

GERMANY

POLAND

"كيف يمكنني الكتابة عن حياة مفككة إلا عن طريق فقرات مفككة؟!"



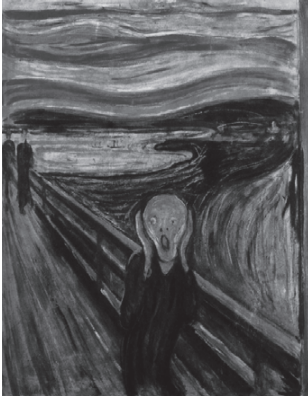
الألفية في بلجراد

فلاديمير بيستالو

ترجمة: هند عادل



روايات مترجمة



الألفية في بلجراد

الألفية في بلجراد
تأليف: فلاديمير بيستالو

ترجمة: هند عادل
تحرير ومراجعة: هدى فضل
مراجعة لغوية: فاطمة محمود

الطبعة الأولى: نوفمبر 2018
رقم الإيداع: 2018/15885
الترقيم الدولي: 9789773194321

الغلاف: عصام أمين

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg



©Vladimir Pištalo, 2000.
First published in Serbia as *Milenijum u Beogradu* by **Agora Publishing House**

فلاديمير بيستالو

الألفية في بلجراد

رواية من الصرب

ترجمة: هند عادل





منحة الترجمة Translation Grant

صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

بطاقة فهرسة

بيستالو، فلاديمير

الألفية في بلجراد: رواية من الصرب / تأليف فلاديمير بيستالو.

ترجمة هند عادل- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص: سم.

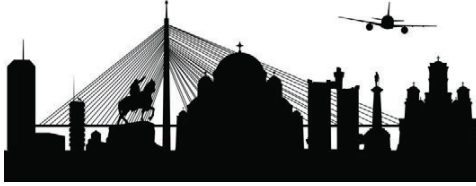
تدمك 9789773194321

1- القصص الصربية

أ- هند، عادل (مترجم)

ب- العنوان 891.823

مقدمة



هناك أسطورةٌ عن نشأة بلجراد تحكي قصة رجلٍ أهان القناطير الأسطورية.. كانت تعيش في منحدرات "أبالا" منذ بدء الخليقة.. اهتزت الأرض تحت حوافرهم الغاضبة، ووصلت صيحاتها أعالي السماء.. هرب الرجل بمعجزة عندما غاص في النهر.. سمع أصوات السهام التي اخترقت سطح الماء.. توقفت القناطير عند ضفة النهر، وهي تصهل وتضرب بحوافرها في الوحل.. أطل الهارب برأسه وسط نهر "سافا"، وشهق ليتنفس.. لقد ابتلع الكثير من الماء قبل أن يصل إلى الضفة الأخرى من النهر.. انهار بإرهاقٍ تحت جرف "كاليميجدان"، حيث يلتقي نهر "سافا" والـ"دانوب".. ثم أغلق عينيه.

حلُمٌ بمدينة..

حلم بمعابد وقصور.. حلم بمسارح تحيط بالميدان الذي يلتقي فيه الشعراء، ويلقون أشعارهم على المسامع.. حلم برجالٍ وسيدات كبار السن يسرون في المتنزهات متأنقين ونشيطين.. حلم بعشاقٍ غارقين في قبلاّت حارة.. حلم بتماثيل في الميادين وأمّام واجهات البنايات.. حلم بألف فندق يقدم طعامًا من ألف بلد.. حلم بمحلات الخمور التي تشبه المكتبات.. حلم بمدينةٍ بها نهران يزيلان همومها ويريحانها.

حلم بمكتباتٍ ومقاهٍ يقضي فيها أي رجلٍ حياته إلى أن يشيخ بكل راحة.. حلم ببلدٍ يتمتع فيها الإنسان بمرور الزمن.. حلم بمكانٍ يغريه بتفاصيله حتى يسحره بكيانه.. حلم بمدينةٍ تظل كما هي في أحلام مواطنيها لكنها تغيرت في أرض الواقع.. مدينة في ظهرٍ أبدي بلا غروبٍ أو ظلام.. تمشي الملائكة في الشوارع وتطل النساء من النوافذ لتنثر عليهم قصاصات الورق الملون المعبأة في أكياس الوسائد.. رأى الحالم أذرعًا بيضاء تلوح له من الشرفات.

عندما فتح الرجل عينيه رأى ملاكًا يقف فوقه.. لم يرَ الرجل عينين مثل عينيه من قبل.. أشار الملاك إلى الجرف الذي يعلو النهر وقال:

- انظر!

نظر إلى الرجل إلى ما يشير إليه إصبع الملاك و... ورأى كل شيءٍ هناك! رأى مدينة على الجرف.. جدرانها أنصع بياضًا من العظام وتلمع في ضوء الشمس.. رأى المباني مكدسة في فوضى ساحرة.

كان هذا قبل مولدي بزمّنٍ طويلٍ في بلجراد، حيث قابلت "إرينا" وعشقتها.. ومع ذلك أكتب عن الأمر بصفتي شاهد عيان.. هذا ممكن؛ لأنه حدث في زمن الأحمال الذي يمكنه أن يتقدم أو يتأخر أو يتزامن مع الزمن الحقيقي.. كل هذا حدث عند الينبوع المقدس، في الأبدية، في كل مكان وزمان؛ لهذا يمكنني أن أشهد بمدى سعادة الحالم، عندما يرى الجدران التي ستحميه أخيراً من البراري المتوحشة.

نظر الحالم بعينين مלאهما الانبهار، وتأمل حلمه الذي تحول لحقيقة.. كل ما عليه فعله هو فتح البوابة والاستقرار هناك، لكنه فجأة شعر بعجزه عن تحمل مسؤولية حلمه.. أراد النحيب والصراخ، أراد أن يخفي رأسه تحت جناحه كما تفعل الطيور.. شعر أنه سينفجر كالفقاعة، عندما تحول حلمه إلى واقع.. لوى الحالم شفته وسخر من نفسه.. تراجع خطوةً بساقيه المرتجفتين، ثم تراجع خطوةً أخرى وأخرى.. عندما أدار رأسه ناحية المدينة انطلقت صيحة الملاك وسط أسوار المدينة الجيرية.. رحل الحالم عن حلمه غير المنتهي دون أن ينظر للوراء، وعاد إلى البراري المتوحشة.

قامت الآلهة التي حققت أمنية الرجل بوضع لعنة رهيبة على المدينة:

"ليكن هذا المكان كالجراح.. كلما غطتها طبقات الجلد، تأتي أظافر قذرة تمزقها.. فلتأتِ أجيالٌ من الأبناء لا يكملون ما بدأه الآباء أبداً.. ليسخر سكان المدينة دوماً مما يرغبون بشدة".

وهذا كان عقاب الآلهة للرجل الذي تخلى عن حلمه.

"عن جنازة الإمبراطور والنقاش المثمر الذي أجريناه يومها"



"با - دوم، با - دوم، با - دوم".

بث إذاعة بلجراد ضربات قلب المارشال اليوغوسلافي "جوزيف بروز تيتو" على قناتها الأساسية، وعندما سكت الصوت قال لي "باين":

- إنه صوت التاريخ.

في ذلك اليوم، الرابع من مايو 1980، نشرت جريدة "بوليتيكا" اليومية خبراً بعنوان:

"سكن القلب العظيم.. لقد تُوفي رئيسنا المارشال جوزيف بروز تيتو".

نعت العناوين:

"حلت الهموم والأحزان بالطبقة المتوسطة، وبكل الجماعات والأعراق في أمتنا، وبكل فردٍ وعامل وجندي ومزارع وفنان، وبكل عضوٍ في اتحاد الشباب الشيوعي، وبكل مراهقٍ وفتاة وأم".

في الدقيقة الثالثة والأربعين من الشوط الأول من مباراة كرة القدم بين فريقَي "هاي واي مان" و"ريد ستار"، توقفت الكرة وسط الملعب، وفاضت الدموع.
تم تحديد سبعة أيامٍ من الحداد.

ظلت الصحف تنعى الفقيد لثلاثة أيام.. تم دفن المارشال يوم عيد ميلادي؛ بعد إعلان وفاته بأربعة أيام.. اجتمع "بوريس" و"باين" و"زورا" و"إيرينا" في شقتي.. شربنا بعض من خمر "لاشكي" السلوفيني، وشاهدنا الجنازة على التلفزيون.. أطفأنا الصوت، وعزفنا أغنية "Sultans of Swing" لـ"مارك نوفلر" خمس مراتٍ على التوالي.

حين كنا تلاميذ، كان "بوريس" يسانديني في المشاجرات.. يشع وجهه برجولةٍ هادئة، كما يمكنه فتح زجاجة بيرة بأسنانه.

سألني:

- ما المكتوب في الجريدة؟

لم أكن أعرف لكن "باين" عرف.. قرأ العناوين بصوتٍ مرتفع:

- مكتوب: "من منصة الأمم المتحدة، ومنذ أكثر من ثلاث ساعات، قام نوابٌ من أفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية والغربية وأمريكا الجنوبية

وحلف جنوب شرق آسيا "سياتو" وجامعة الدول العربية بتقديم التعازي في رئيسنا المتوفى.. غطى الجنازة سبعمائة مراسم من أربع وأربعين دولةً، فساعدوا ملياراً ونصف مليون شخص على متابعتها.. كان "تيتو" راعياً للجميع، لذلك خسارته هي خسارة لكل الشعوب النامية في العالم".

بينما يقرأ "باين" هذا النعي الحزين كان يمد يده اليسرى للسماء، ويضع يده اليمنى على قلبه ليقوم بحركةٍ درامية.. تقطع صوته، ومسح دمعاً وهمياً، وهو يقول:
- "لقد كان.... كان.... كان أحد مؤسسي "حركة عدم الانحياز".

في تلك الفترة انفصلت "إيرينا" الجميلة عن "بوريس"، ولم تصبح حبيبتني إلا بعد ذلك بوقتٍ طويل.

قالت "إيرينا" وهي ترفع الصوت:

- هدوء، لتتابع الأخبار.

تعلمت من التلفزيون أنه بصفتي يوغوسلافياً في حداد عليّ أن أجد التعازي في حضور مندوبي الدول الأخرى جنازة الرئيس المتوفى.. إنهم الأشخاص أنفسهم الذين كان الرئيس يصطاد معهم الدببة المخدرة في غابات جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الاتحادية.. وصل ملوك السويد وبلغاريا والنرويج إلى بلجراد؛ جاء "ساندرو برتيني" رئيس إيطاليا، و"ليونيد بريجنيف" رئيس الاتحاد السوفيتي، و"مارجريت ثاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا العظمى، و"والتر مونديل" نائب الرئيس الأمريكي، و"فرانسوا ميثيران" رئيس فرنسا، و"فيلي برانت" زعيم

الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني، و"أنديرا غاندي" رئيسة وزراء الهند، و"كينيث كاوندا" رئيس زامبيا، و"هوا جيو فينج" رئيس الحزب الشيوعي الصيني.. حضر أيضًا الأمير "هينريك" من الدنمارك، والأمير فيليب دوق إدنبرة، و"جيانيندرا" أمير نيبال، والأميران "كلاوس" و"برنارد" أميرا هولندا.. كما تم تأكيد حضور "كيرت فالدهايم" أمين عام الأمم المتحدة.

قال "بوريس" ببساطة:

- من الجيد أنه سيأتي أيضًا.

أداع التلفزيون أن نواب اليونسكو وجامعة الدول العربية والبرلمان الأوروبي والمجلس الأوروبي وصلوا إلى بلجراد أيضًا.

- يا للروعة.

وصلت "ليليان" والدة الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر"، وسارت على مهبط الطائرات في مطار بلجراد بقدمين مرتجفتين.. ساعدها "والتر مونديل" نائب الرئيس بابتسامة مضطربة.. تم إعلان الحداد في ثلاث وخمسين دولةً.

قالت "زورا" دون أن تبعد نظرها عن التلفزيون:

- هذا ما يغذي جنون العظمة لدينا.. ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع، وهذا ما سيحدث لنا حتمًا.

طالب "بوريس":

- قولي ذلك مجددًا!

اعترضت "زورا" باختصار:

- لا، اخرس!

- من فضلك يا "زورا"، افتحي لي زجاجةً أخرى.

نظرت إليّ "زورا" مطوّلًا.

انهال علينا التلفزيون بالمعلومات.

من المريح معرفة أن:

1- العالم المنقسم أنزل أعلامه إعلانًا للحداد وتكريمًا لرئيسنا "تيتو".

2- أينما ذهب "تيتو" كان يقابله الناس بالابتسامات ويودعونه بالدموع.

3- وفاة الرجل العظيم الذي تحشقه الطبقة الكادحة قد هزت العالم.

4- ملايين الناس تعاطفوا مع الشعوب اليوغوسلافية.

نفخ "باين" خصلهً من شعره سقطت على عينه.. هجرته حبيبتة يوم وفاة "تيتو"..

كانت المغنية وعازفة الـ"ساكسوفون" في فرقة "أكوستيك شادو".. عزف معهم لمدة

سنة.. ثم "باين" بشدة.

أصدر صوتًا بشفتيه وسأل:

- أتساءل ما الذي تفعله الشعوب اليوغوسلافية كلها الآن؟

قالت "زورا":

- أتذكر ما قرأته في الأخبار.. يقوم السلوفينيون بأعمالهم وواجباتهم بقلوب مهمومة.. فقد الكرواتيون جزءًا من روحهم.. يعاني البوسنيون حزنًا عميقًا.. في "فويودينا" يصرخ الناس: "ستحيا إنجازات "تيتو"!.. أمّا سكان الجبل الأسود فيعتصرهم الألم.. وتعبّر قلوب المقدونيين عن حزنهم بفصاحة.. شعب "كرايينا" غارق في حزنه بتماسكٍ وتحفظٍ.. أمّا منخفضات "سريم" فأغرقتها دموع المزارعين الحزاني.

قال "باين":

- اندثرت موسيقى "باين".

صاحت "زورا":

- لا تهتم أُمي بشأن الموسيقى، بل تهتم بشأن "تيتو".. إنها منهارَةٌ من شدة البكاء.
كان يوم عيد ميلادي علامةً بارزةً في حياةٍ لم أفهمها.. والآن أستمع إلى موجز الأحداث المهمة في التلفزيون.. وصل جثمان "تيتو" من "ليوبليانا" إلى بلجراد في قطارٍ خاصٍ.. ثم تم عرض الجثمان في نعشٍ مغلقٍ في مبنى الاجتماعات اليوغوسلافي.. اجتمع مائتان من أبطال الحرب العالمية الثانية، مرتدين ميداليات الشجاعة الخاصة بهم في موكبٍ حول النعش.. واحد من كل خمسة يوغوسلافيين مروا بذلك النعش في اليومين التاليين.

أحبيت أن المدينة كانت ساطعة تمامًا في الليل.. وكان الأمر مذهلاً!

انتظر الناس في طوابيرٍ طويلةٍ ليحنو رؤوسهم؛ تحيةً أمام جثمان "تيتو".

وقفت مع "باين" تحت ظلال الشجر المقابل لمبنى الاجتماعات في المدينة الساطعة

المليئة بالناس الصامتين حزنًا.. قلت له:

- انظر إلى هذه الطوابير.. لقد أصبحت جثة قلب المدينة.

قال:

- يعجبني الأمر حقًا.. لا يبدو حقيقيًا أبدًا.. وكأن من رسم هذه النسخة من بلجراد

هو الرسام "بول ديلفو"، الذي يعبر عن المجهول في كل لوحاته، ويخلط الواقع بالأحلام،

وأن من نظم مراسم الجنازة هو مخرج الأفلام الوثائقية "لويس بونويل".

انتظر الوافدون في بلجراد السريالية طوال اليوم ليمرروا بنعش "تيتو" ويبدون

احترامهم بتوديعه.. جاءت الطوابير الصامتة من سوق "زيليني فيناك" إلى مبنى

الاجتماعات.. قامت القوات العسكرية بتوزيع الماء في داريّ رعاية "تراجيبه"

و"سكادارليا".. امتلأت الداران بالأطباء في حال فقد أحدهم الوعي.

نشرت الصحف أن رجال الشرطة - الذين أشارت إليهم الصحافة باسم "منفذو

القانون المحترفون" - قد سمحوا للمارة بكسر إشارات المرور؛ لأنهم في عجلةٍ لحضور

الموكب.. من الواضح أن رجال الشرطة اليوغوسلافيين عاملوهم برفقٍ شديدٍ.

من المثير للاهتمام مراقبة طوابير الألم والصمت هذه على أرض الواقع.. لقد اجتمع أناس من مختلف الأعراق اليوغوسلافية أمام مبنى الاجتماعات، ووقفوا في صفوفٍ وأغمي على بعضهم من الحرارة.. قال أحد المرسلين إن الجميع صار يذرف الدموع.. كما لاحظ مراسلٌ آخر أن كل من في بلجراد تجمد مكانه، ما عدا الأنهار التي ظلت تتدفق.

صب "بوريس" لنفسه كأساً من نبيذ "لاشكي" السلوفيني ثم ترك الزجاجاة، وهرش خلف أذنه قائلاً:

- أرغب في معرفة أي نوعٍ من الأشخاص كان "تيتو" حقاً.

أجابت الصحف عن سؤاله بحزنٍ عميقٍ كالتالي:

"كان "تيتو" إنساناً فريداً.. خاض كل معاركه لصالح المواطن العادي! وفاته هي المعركة الوحيدة التي خسرها! كان "تيتو" رمز جيلٍ بأكمله.. ملأنا إنجازاته بالفخر، وحثتنا على تلبية نداء الواجب.. إن مساهمته في مجال العلوم لا تُقدر بثمن! كان عظيمًا في القضايا البسيطة.. لقد اهتم بالشطرنج ولاعبيه! لكن ذكرى العظماء تظل في قلوبنا.. لهذا نشعر أن أحزاننا تشجعنا على التذكُّر.

سأل "بوريس" بلا مبالاة:

- تشجعنا على ماذا؟

رأى "باين" أنه لا داعي لاستخدام الكوب، وشرب من الزجاجاة مباشرةً.. بدأ ينادي:

- "إيرينا!!!!!!!"

لم تجبه "إيرينا" الجميلة فكرر النداء:

- "إيرينا!!!!!!!"

- ماذا؟

- متى كانت أول مرة أردت فيها معاشره رجل؟

لم ترد "إيرينا".. بينما ينتظر "باين" إجابتها على هذا السؤال التافه، ناقش التليفزيون القضية المهمة الخاصة بالأخلاق الإنسانية وفناء العالم:

"أكثر الأغراض مبيعاً في مركز تسوق "بلجراد" الرئيسي هي ثياب الحداد وشارات عليها صورة "تيتو".. أخبرنا المؤلف "تون سفيتينا" كيف تجلى كرم "تيتو" في أثناء صيده".

كما علمنا أنه "سيتم حفر أسماء كل انتصاراتنا على قبر تيتو".

- "إيرينا!!!!!!!"

شاهدت "إيرينا" مراسم الجنزة بمللٍ كبيرٍ مثل كل يوغوسلافي عادي، لذلك لم تستطع الاستجابة إلى نداء "باين" المخمور.

حذر "بوريس" "باين" قائلاً:

- كفى، لا تستفزها.

سأله "باين" بجديّة:

- ومتى بدأت أنت بممارسة العادة السرية؟

في تلك اللحظة ارتفع صوت الإيقاع في التلفزيون، وقالت المذيعة بنبرة عالية: "لقد تفوق "تيتو" على نفسه! إنه أكثر الأشخاص بروزاً في التاريخ! لقد أحسن عملاً.. إنه أفضل إنسان.. فليحيا في قلوبنا.. لقد توفي أعظم رجلٍ في تاريخنا..".

استمر "بوريس" في حديثه التافه:

- حتمًا كنت في الثالثة عشر.. لا يوجد احتمالاتٌ أخرى.

يبدو أن المذيعة الجادة لم تهتم بحديثنا التافه.. قالت بغرورٍ إن رجال السياسة الذين حضروا جنازة "تيتو" أتوا من مائةٍ وعشرين دولة، ويمثلون ثلاثة مليارات وسبعمائة مليون نسمة.

ما زال "باين" مصرًا على الحديث:

- كم مرةٍ كنت تفعلها في اليوم؟

هرش "بوريس" شعره الأحمر القصير، وقال:

- حوالي خمس.. أردت فعلها أكثر، لكنني لم أجد وقتًا.

قاطعتهما "زورا":

- حسنًا، هذه هي المشكلة.. المشكلة هي أن كل اليوغوسلافيين يقدسون رئيسهم كما لو كان فرعون.. دومًا ننظر إلى العالم باعتبارنا الأسمى.

سألت المذيعة: "لماذا أتى كل هؤلاء؟"، ثم أجابت فورًا على سؤالها البلاغي: "لقد أتوا من جميع أنحاء العالم لينحنوا أمام "تيتو"، أحد أفضل الأشخاص في زماننا.. إنه الرجل العالمي.. إن جنازته تعتبر مؤتمر قمة

بحد ذاتها.. لا تعيق القرون عمل "تيتو".. إن موته هو المعركة الوحيدة التي خسرها! لم يحدث شيء كهذا من قبل قط في تاريخ العالم!".

أخذ التلفزيون يمدح فيه.

قال أحد الرجال في التلفزيون لاهتأ:

- سأحكي لأولادي وأحفادي ما شعرت به حين مررت بجانب نعشه..

قال عامل مصنع، وهو يحاول البحث عن كلمات مناسبة:

- نحن مستمرون في عملنا كما نعرفون، لكن فلتعلموا أن الأمر ليس كالسابق..

الأمر لم يكن هكذا قط.. نعرفون، لست خجلاً من البكاء.

سب "باين" السكران:

- تَبَّأ لكم أيها القردة.. تَبَّأ للعالم كله.

لقد أحببت واحترمت العالم.. صدقت فكرة الفيلسوف "إميل دوركايم" عن أن

المجتمع يملك جميع صفات الرب.. بما أن البشر هم أكبر مجتمع في العالم؛ فالأمم

المتحدة بالنسبة لي كانت كالرب.

علق "باين":

- هذه هي نهاية "حكمننا المطلق المستنير".

قلت ساخراً:

- وماذا سيأتي بعد ذلك؟ "الحكم المطلق المظلم"؟

كنت سعيدًا بمزحتي، لكن بمجرد أن أغلقت فمي أدركت أنها نهاية حقبة.. شعرت
برجفةٍ باردة تأتي إليّ من النجوم ثم تحيط بي كالكفن.. سألت بنبرةٍ مختلفة:

- ماذا سيحدث الآن؟

قالت "زورا":

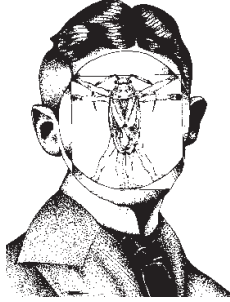
- سيحل الوباء وستبقى الحكايات فقط.. مثلما حدث في كتاب "ديكاميرون"
لجيوفاي يوكاتشيو.

جاءت "إيرينا" من خلفي وقبلت خدي وهي تقول:

- مبارك على نضوجك وعيد ميلاد سعيد.



التحول



وصلت موسيقى الـ"روك أند رول" في بلجراڤ لأفضل حالاتها بعد وفاة "جوزيف بروز تيتو".. مع حبه وكرهه الأبديين لـ"ماريا"، ظل صديقي "باين يانوفيتش" يحلم بتشكيل فرقة موسيقية جديدة مثل "أكوستيك شادو Acoustic Shadow" و"شباب لكن بدين Youthful but Fat" و"مرتعب خوفاً Crippled wth Fear" و"خُطاب كافكا Kafka's Fiances".

مع قدوم الموجة الجديدة من الموسيقى شعت بلجراڤ بالطاقة، لدرجة أن تماثيلها كانت مندهشة.. انتشرت الأحاديث الحماسية في الشوارع ولمعت كل العيون.. يمكنني أخيراً القول إن هذا ليّ، هذه مدينتي أخيراً، هذا شيءٌ من عالمي.

بدأ الأمر حين وجد "باين يانوفيتش" ميدالية شجاعة من الحرب العالمية الثانية.. أشعل ولاعته، وسخن إبرة الميدالية ثم قرص صدره ورشق الميدالية في جلده.. صك على أسنانه وقال: "هيا!.. قام "باين" بتعريف موسيقاه باختصارٍ كالتالي:

(1) أنا يائس.

(2) ليس لدي حبيبة.

(3) لا أستطيع العزف.

(4) هناك الكثيرون ممن يمكنهم العزف، لكنهم ليس لديهم ما يعبرون عنه.

(5) لدي ما أقوله لكن لا أعرف كيف.

حتى يتعلمان كيفية العزف، سيقوم "باين" و"ماريا" بتسميع نصوصٍ للمبتدئين مصحوبة بالطبول.. لقد اتبعا حركة "زينيث" الجديدة التي ظهرت في العشرينيات، وتأثرا بأغاني الـ"بوب" والواقعية الاشتراكية من الستينيات.. انهارت فرقة " Crippled with Fear" وهي على وشك تسجيل ألبومٍ جديد.. غادر الفرقة أفضل عازف بيانو في البلدة ليكرس حياته لممارسة السحر الأسود.. اضطر أعضاء الفرقة للاتصال بصديق في مدينة "زغرب" عاصمة كرواتيا لإلغاء حفلةٍ في نادي "كولوشيتش".. عندما أصبحت فرقة "Kafka's Fiances" راسخة في الساحة الفنية بدأت صور "باين" تظهر في مجلة "يوكبوكس ماجازين".

قال في أحد المقابلات الصحفية: "هناك القليل من الحقيقة في بلدتنا".

وقال في لقاءٍ آخر: "لا يمكنني احتمال الناس الآخرين أبداً.. فهم "الآخر" بالنسبة لي..
وعلى كل حال، لماذا أهتم أصلاً...".

سألوه ذات مرة: "هل تعتبر نفسك مشهوراً؟".

فأجاب بكلمات الفنان "إيان ديوري": "أصبح مشهوراً حين أكون سعيداً".

ذات مساءً في مايو 1982، عزفت فرقة "Kafks's Fiances" في بناءٍ صغير يشبه القلعة، كان يسمى في ما مضى "نادي الضباط".. قبل اثنين وسبعين عاماً، غادر "دراجوتين ديميتريفيتش أبيس" وشركاؤه في المؤامرة هذا المبنى ليغتالوا الرئيس الصربي "أليكساندر أوبرينوفيتش" وزوجته "دراجا ماشين".. أشعلت فرقة "حُطاب كافكا" الدنيا عزفاً في المبنى نفسه، حيث أقسم أعضاء منظمة "اليد السوداء" "Black Hand" بعهود الولاء.. كلما فكرت بـ"باين" و"ماريا" تذكرت اسم ألبومهما الأول "كم منهم تمتلك وماذا؟".

ذكرتني يد عازف جيتار الـ"بيس" لفرقة "Kafka's Fiances" بكف كلب يحك نفسه.. وسط ضباب المسرح كان عازف الطبول بالكاد يستطيع قرع طبله.. ارتدى "باين" سترةً مبطنّة الأكتاف، فبدأ أشبه بـ"فرانكنشتاين".. وقف وسط دائرة الضوء، ثم استقام وقذف سترته.. لمعت ميدالية الشجاعة من الحرب العالمية الثانية على صدره العاري.

بدأ الجمهور كتلةً راقصةً بلا ملامح.. كانوا أشبه بالمسوخ.. استجابوا لـ"باين"
بالصرخات التشجيعية.

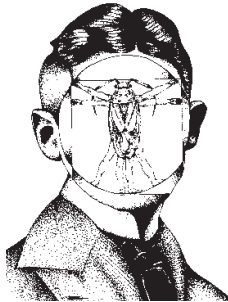
بدا ما رأيته أشبه بخليطٍ من الشعوذة وأوبرا نابولي من القرن التاسع عشر.. أصبح المسرح مكانًا سحريًا.. آلمتنا أقدامنا من إيقاع السماعات عالية الصوت، وهز جيتار الـ"بيس" أمعاءنا.

بدأ "باين" يهز أكتافه وسط دائرة الضوء.. حرك قدميه بدافع العصبية أكثر من الموسيقى.. شعرت أنه يصرع للسيطرة على جسده، ويبدو أنه بدأ يستعديها تدريجيًا.. فجأة حطّم قيود رهبة المسرح وصاح يغني في الميكروفون.. بدأ يرقص بحركاتٍ قويةٍ غير متناسقة، فثار المعجبون بجموح.. أمّا "باين" يانوفيتش" الذي كان يكافح للسيطرة على جسده منذ لحظات، أصبح يرقص الآن مع الجمهور.

بدا لي أن السيطرة على النفس هي محور موجة بلجراد الجديدة.. لم أرَ "باين" بهذه الجدية في حياتي.. كان يشبه زعيم الهنود الحمر المعروف بلقب "الحصان المجنون".. بدأ أشبه بدرويشٍ في حالةٍ دائمةٍ من الوعي واللاوعي.. أمسك "باين" بالميكروفون بيديه وجارت قدماه الإيقاع.. شعرت بالفخر والحسد.. لقد جرؤ على فعل ما لم أجرؤ قط على فعله.. تجرأ على أن يتصرف على طبيعته.. تحول "باين" على المسرح ليصبح كالسائر على النار.. صار كساحرٍ يشق السماء بنظره ويفجر الينابيع بضربةٍ من كعبيه.. انتشر الدخان من خلفه، وتفجر بداخله أكثر شيءٍ جميلٍ ومخيفٍ في الوقت ذاته.. عندما شاهدته في الحفل أدركت أن كل مؤسسات العالم مجرد أسوار أمنية تحيط بجاذبية أي شيء.. هذه القوة السحرية يمكنها أن تحول الصحراء إلى واحة، وتشفى العاجز، وتوقظ النائم، وتدمع العيون...

تغيرت الأضواء المسلطة على "باين" فتغير لونه.. أصبح الآن أخضر كالصبار.. هل هذا هو الرجل نفسه الذي كبرت معه؟ اقشعر بدني حين سعدت "ماريا" على المسرح مع آلة الـ"ساكسوفون".. لقد تحولت هي أيضًا.

بدا "باين" جادًا بشكلٍ دراميٍّ، أما صدره المغروس فيه ميدالية الشجاعة امتلأ بالفخر.. سال العرق على صدغيه.. توقف عن الغناء ونظر إلى "ماريا" فقط.. رفعت الـ"ساكسوفون" وبدأت بالنفخ فيه.. كان نفخها قويًا مثل صفير شخصية "بهيموث" في رواية "المعلم ومارجريت" لميخائيل بولغاكوف.. نفخت فهاجت الرياح.. نفخت فرفرت الستائر.. نفخت في أشعة أرواحنا.. رفعتنا بريحٍ عظيمةٍ.. انحنت "ماريا" للخلف وهي تعزف مثلما ينحني المراكبي وهو يجدف، وحملتنا جميعًا بنغمات الـ"ساكسوفون".. تحولت قاعة الحفل المليئة بالأجساد الراقصة إلى سفينة القرصنة الشهيرة "الهولندي الطائر".. نفخت "ماريا" في الأشعة؛ فحلقت السفينة فوق المدينة والعالم بأسره.. شعرنا جميعًا أننا سنطير إلى فضاءٍ يمتلئ بالقناديل الملونة الزاهية والجان والأرواح.



لوحة "زورا" مع خطابٍ عن كرامة الإنسان



عندما كنتُ و"زورا ستيفانوفيتش" أجنّةً في الأرحام شاءت الأقدار أن نكون صديقين.. منذ البداية شعرت أنها لطيفة جدًّا، وهذا لم يتغير قط.. عرفتُها منذ كانت فتاة صغيرة.. عرفت كل مخاوفها وأحببت كل ما فيها.

قالت لي ذات مرة: "تُوفي والدي عندما كنت في السابعة.. عندها انهار عالمي، ولم أتعاف قط".

بدأت ترى امرأةً في أحلامها بعد وفاة والدها.. تظهر أحياناً في صورة فتاة صغيرة، وأحياناً في صورة سيدة مسنة.. أرادتُ دومًا الاقتراب من "زورا" ولمسها.. امتصت المرأة الحياة منها، فكانت تستيقظ منهكة.. في الذكرى الخامسة لوفاة والدها ظهرت مصاصة الدماء تلك مرتدية فستاناً للحفلات الراقصة.. أخفت أنيابها بينما تبتمس.. نظرت إلى "زورا" بنظرةٍ

مريعة ومستهينة، ثم اقتربت منها على أطرافها الأربعة.. في تلك اللحظة دخل والد "زورا" الحلم ووقف مانعاً بين ابنته ومصاصة الدماء وصاح:

- دعيها وشأنها!

استدارت المرأة الطيف برشاقةٍ، وغادرت الغرفة بلا رجعة، لكن كوابيس "زورا" لم تتوقف.. منذ ذلك الوقت بدأت تحلم بوالدها يومياً.. أخذتها جدتها إلى قبره، ثم أمرتها بوضع زهرة أقحوان على القبر، وعمل مقايضة رمزية:

"سأعطيك زهرةً بيضاءً مقابل أن تعتقني من كوابيسي".

توقفت الكوابيس منذ ذلك الوقت.

عندما بدأت "زورا" بالنضوج أخبرتها أمها أن مظهرها عادي، لكي لا يغطي جمال ابنتها عليها.. أحببت أمها أن تذكر كم أن الكثير من الناس يظنون أنهما شقيقتان.. وهكذا كبرت "زورا" في منزلها مثل "سندريلا".. أنا واثقٌ من أنها لم تحصل قط على حبيب، ولم تذوق طعم القبلات.

عينا صديقتي "زورا" آيةٌ في الجمال والحسن.. عندما تكون السماء غائمةً تصبح عيناها رماديتين مثل ربة الحكمة "أثينا".. عندما تغضب تتحول عيناها إلى اللون الأخضر، مثل الخنافس المضيفة في شمس أغسطس.. جميعنا أحب القراءة لكن ليس بقدر "زورا".. كانت فيلسوفةً مجموعتنا.. عندما هزم "بوريس بيتروفيتش" "يوشكو فاريجينا"، وفاز ببطولة الجودو الوطنية للشباب، أخبرته "زورا" أنها لا تفهم أبداً لماذا يبذل أي رجلٍ كل جهده ليتعلم كيفية ضرب شخصٍ آخر.. حضنها "بوريس" وصاح:

- إياكم أن يجرؤ أحدكم على لمسها.. إنها أختي!

عندما صرح "باين يانوفيتش" في مقابلة صحفية أن هناك "القليل من الحقيقة في بلدتنا"، اندفعت "زورا" قائلة:

- لا يمكنك الحصول على أي حقيقة دون جهد!

غضب "باين" وقال:

- "زورا"، ستمضين حياتك إما كفتاة ذكية أو كشخص يعتني بأناس يعيشون بحال أفضل منه.

أخذتها جانبًا، وأنا أقول:

- حمدًا لله لوجود أشخاص مثل "زورا".. كيف ستكون الحياة دون أناس طيبين مثلها؟ ستصبح الحياة لا تطاق...

اعتبرت "زورا" كل النساء ذوات النهود الضخمة "سوقيات"، ما عدا "إيرينا بويوفيتش".. عندما تجلسان معًا تتحدثان عن أكثر الشبان جاذبيةً، وألذ الحلوى وتضحكان كفتاتين صغيرتين.

شخصٌ عادي مثلي ليس مقدرًا له أن يعرف الكثير من الناس.. الأصدقاء الأربعة الذين أتحدث عنهم كانوا الركائز الأربع لعالمي.. يعتمد تاريخي مدينتي وحياتي عليهم.. لكن الأقدار أرسلتنا في طرقٍ متفرقة.. أصبحت مؤرخًا.. حصلت "إيرينا" على شهادة في الهندسة المعمارية، لكن لم تستخدمها قط.. ظل "باين" زير نساءٍ وعازفًا.. أصبح "بوريس" بطل جودو ورجل أعمال إلى حدٍ ما.. أما "زورا" فأصبحت أستاذًا مساعدًا في كلية الفنون التطبيقية في

بلجراد، بعدما كانت تغني وهي صغيرة أغنية: "ماما، أعطني ثقابًا والقليل من الجاز لأحرق المدرسة، فيما أظل دافئة ونظيفة".

"زورا" هي أكثر شخصٍ محبٍ للسفر عرفته، على الرغم من أنها لم تسافر قط.. أرادت دومًا رؤية برشلونة والأخدود العظيم في أمريكا.. لكنها لم ترهما قط.. إن حب "زورا" لكل ما هو أجنبي يكاد يصبح رمزًا لكرهيتها لوطنها.

قالت لي ذات مرة:

- لم أدرك أني أعيش في يوغوسلافيا إلا بعدما تخطيت الثامنة عشرة.. أظني عشت هنا كعقابٍ عما فعلته في حياتي السابقة.

نظرت للأسفل وقلت:

- لا يجب أن نخجل من هويتنا.

ردت "زورا":

- لا يجب أن نرضى بالقوالب التي فرضتها علينا الظروف.

نهضت بسرعة، وأحضرت كتاب "خطاب عن كرامة الإنسان" بقلم "بيكو ديلا ميراندولا"، وقرأت فقرهً يتحدث فيها الرب إلى الإنسان:

"آدم.. أنا لن أعطيك ملجأً دائماً أو هيئةً لك وحدك أو وظيفةً محددةً.. وذلك لكي تجد هيئةً ووظيفةً وكياناً من اختيارك، وهذا وفقاً لأسبابك ورغباتك.... إن حدود الكائنات الأخرى تتماشى مع قوانيني، بينما تتمتع أنت بحرية وضع حدودك الخاصة.. وضعتك في مركز العالم؛ لكي ترى

بسهولةٍ كل ما فيه.. لم أجعلك كائنًا سماويًا ولا دنيويًا.. ولم أجعلك خالدًا ولا فانيًا.. بل جعلتك قادرًا على تكوين نفسك كما تريد.. ستكون قادرًا على الانحدار إلى أشكال الحياة الوضيعة والبدائية.. لكنك ستكون قادرًا أيضًا على السمو إلى أشكال الحياة السماوية والراقية".

أفكر عادةً في الفتاة التي عرفتنى بهذه الفقرة.. أعتقد الآن أنها متدينة.. أين أنتِ الآن يا عزيزتي "زورا"؟ لطالما كنتِ صافية الذهن والنية.. ولطالما شعرت بالحرَج نيابة عن الناس الوقحين.. هذا السجل التاريخي يتحدث عنكِ.. هذا سجلٌ تاريخيٌّ عن كل الأشياء الجميلة التي تم استكشافها وليس ربحها.



عن رجلٍ لم يفوت فرصةً للعراك



نظرت "زورا" إلى "بوريس" وضحكت.

- أتعلم، أنت تبدو خطيراً.

وافقها "بوريس":

- بالطبع أنا كذلك.

لمست "زورا" كتف صديقنا بحذرٍ وقالت:

- أعني أنك تبدو خطيراً حقاً.

صاح "بوريس":

- بالطبع! وهل تعلمين لماذا؟ لأني رجلٌ خطيرٌ بالفعل!

يبدو "بوريس" تمامًا مثل شعوب التراقيون، كما وصفهم المؤرخ اليوناني "زينوفون"، فهو أحمر الشعر وله نمش وعيناه تشبهان عيون الماعز.. ابتسم بترفعٍ مثلما يفعل ذواق الخمور.. إنه لا يشبه أبدًا الرجل الشرير الموجود في أحد عروض العرائس، والذي يخرج على المسرح، ويزمجر قائلاً: "جرررر! أنا شرير، أنا شرير".

تذكرت حين هربت أنا و"بوريس" ذات ظهيرة من المدرسة.. قمنا بتدخين السجائر الطويلة، وبصقنا على الأرض في متنزه "تاشمايدان".. كان "هانز" يجلس مع حبيبته في المقعد المجاور لنا.. لا يمكن لشخصٍ أن ينظر لشخصٍ آخر باحتقارٍ مثلما نظر إليّ "هانز" تلك الظهيرة.. مررت بمقعده بضحكةٍ مترددةٍ.. ظن "هانز" أنه عليّ احتمال ابتسامته المحترقة، بينما هو ليس مضطراً لاحتمال ابتسامتي.. هذه هي المشكلة.

سألني:

- ما المضحك؟

يا له من تعليقٍ وقح، مع اعتبار أن كلينا قام بالفعل نفسه.. لم أجهه، بل أمسكت كتابًا به روايتان من تأليف "نات هامسون" هما "الجوع" و"المقلاة".. كان ثقيلًا كقالب طوب.

اقترب مني "هانز" من الخلف وكرر سؤاله:

- ما المضحك؟

لم أتفوه بكلمة، بل استدرت وضربته على وجهه بكتاب "نات هامسون".. تمنيت أن تلهم فعلتي مؤسس الأدب الصربي في عصر

التنوير، "دوستي أوبرادوفيتش"، أن يقول من مكانه في السماء: "اتجهوا للكتب يا إخواني، الكتب وليس أجراس الكنيسة ورنينها!".

كان "هانز" مذهولاً.. حتى اليوم لا أعرف ما الذي توقع مني فعله بحق السماء.. تعاركننا وظل "بوريس" يراقبنا بينما نتصارع ونتشاجر.. ثم تدخل ولكم خصمي مرتين.. وداعاً يا "هانز"! لن أنسى هذه المساعدة أبداً.. ولن أنسى أيضاً حبيبة "هانز" وهي تصرخ:

- دعوها القتلة!

لطالما حاولت "زورا" إقناعنا بأن شخصية الرجل لا تعتمد على بيئته بل على مكنون قلبه.. أمّا "بوريس" فأمن بالعكس تماماً.

أخبرنا ذات مرة أن "ما يحدد شخصيتنا هو هويتنا وهوية عائلتنا.. أخي أحقق وأنت صديقي.. لكن إن طلبت مني اقتراض عشرة آلاف لن أعطيها لك بل سأعطيها لأخي كهدية".

ينتمي والد "بوريس" إلى جنوب صربيا، من مكان يدعى "هيك تاون"، بينما والدته من "بوني فيل" المجاورة.. تعرض "بوريس" إلى كثيرٍ من الإزعاج بسبب خلفية والديه الاجتماعية.. في بلدٍ ريفي مثل يوغوسلافيا من الغريب أن يشعر المرء بالإحراج لكون أقاربه مزارعين، فهذا يعكس مدى الحرج والنفور من الذات اللذين يشعر بهما المواطن عندما ينظر لنفسه.. سخر زملاء "بوريس" في المدرسة من "لكنته الغريبة"، كما أسموها، بالرغم من أنه لم يكن لديه أي لكتة غريبة، لكن بعدما انضم لنادي الجودو توقفت الإساءات، عندما هزم "بوريس" "يوشكو فاريجينا"

وأصبح بطل البلاد في بطولة الشباب، نسى زملاؤه أنهم تنمروا عليه.. تخرج في ناديه رجال شرطة ومجرمون على حدٍ سواء..

في أثناء البطولات أصبح "بوريس" ملازمًا لـ"دابل هانك" الذي أصبح صديقه العزيز في المستقبل.

كان والد "بوريس" رقيبًا أول.. وبالرغم من أنه كان غالبًا يزعج مرؤوسيه في معسكرات التدريب بتمرينات الأمن والسلامة، كان عطوفًا في البيت، أمّا والدته فكانت ربة منزل مدبرة.. منذ اليوم الأول في حياتهما الزوجية قرر والدا "بوريس" الادخار لبناء أكبر منزلٍ في "هيك تاون".. إنهما يشبهان الفلاحين الذين يأتون للمدينة بحثًا عن عمل، لقد اجتهدا وتعبا في العمل؛ لينالا حسد الفلاحين أمثالهما في المستقبل، لقد حرما وأمسكا على نفسيهما في مقابل الحسد المستقبلي.. استخدمت الأم زيت القلي نفسه عدة مرات، والوالد ظل يطفئ الأنوار باستمرار.. عندما تزوجا اقتصدا في المعيشة لدرجة التجويع.. وقت العشاء كانا يقفان عند أي مطعمٍ ويشمان رائحة اللحم المشوي حتى يشبعا.. ظنًا أنه بمجرد أن يبنيا بيتهما سيصبح ملتقى لجميع أفراد العائلة الكبيرة التي يتذكراها منذ الطفولة.. لكن العائلة لم تجتمع قط لأن أفرادها منتشرون في ألمانيا والسويد ويوغوسلافيا السابقة.

لطالما انزعج "بوريس" واشتكى من كون والده نزيهًا، وكأن النزاهة مرضٌ خطيرٌ.. لم يرغب والده يومًا عن العمل حتى عندما أصيب بحمى شديدة.. كانت والدته جميلة في شبابها.. كلما زرتهم سمعت الخالة

"ماكا" تتمتع لنفسها في المطبخ، وهي تعد محشي الكرنب: "أحب حقًا أي امرأة لكي أكون متقلبة المزاج كما يحلو لي".

أما والد "بوريس" فيجلس بجواري ويصيح:

- "ماكا"، أعدي كوبين من القهوة بسرعة!

تسأله الخالة "ماكا" من المطبخ:

- خفيفة أم مرة؟

- مرة قليلًا كما يشربها العمال أمثالنا.

أخبرني "بوريس" وهو يضحك كيف يغازل والده والدته.. ذات ليلة صيف كان يمر بجانب "ماكا" كما يفعل عادةً.. ثم استدار فجأة وأشار إلى السماء بإصبعه.. ثم قال بهرح:

- هل ترين هذه النجمة؟

ثم جذب كتفي "ماكا" وهتف بشغف:

- أنت مثل هذه النجمة تمامًا!

سألني "بوريس":

- مَنْ تستطيع مقاومة حركة كهذه؟

يبتسم والدا "بوريس" كلما سمعا كلمة "في الريف".. حبيبة "بوريس" تكره سكان الريف.. تكره كل من يمسخ مؤخرته بأوراق الذرة ويموء منادياً على خرافه.. الاستثناء الوحيد هو والدها الذي تعتبره أذكى

رجلٍ في العالم.. لم يحب والدا "بوريس" "إيرينا".. بمجرد أن خرق "بوريس" و"إيرينا" "الوصية السابعة" بأن مارسا الحب في غرفته، ظلت الخالة "ماكا" تتنحج وتنظف بالممسحة أمام الغرفة، لقد شعرت بضرورة التنظيف في هذه البقعة وهذا الوقت بالذات.. فتح "بوريس" الباب وصرخ في وجهها:

- تَبًّا لِكَ وَتَبًّا لِّلْمَسْحَةِ الَّتِي تَمْسِكِينَ بِهَا!

وعلى الرغم من أنهما قريبان لدرجة أن أنفيهما على وشك التلامس، فلم تسمعه والدته.. لم تسمعه لأن ما قاله لم يكن ضمن الأشياء التي تتخيل أن يقولها.. نظرت "ماكا" إلى "بوريس" بجمودٍ وكأنه لم يقل شيئًا.

عندما هجرته "إيرينا" سكر "بوريس" حتى الثمالة.. سار في الشارع برأسٍ منحني.. لم ينظر إلى أين يذهب فاصطدم برجلٍ عند ميدان "تيراجيبه".. فأبعده بلكمةٍ دون أن يرفع رأسه.

قال لي لاحقًا: "كنت أغرق وأغرق.. انتظرت الاصطدام بالقاع كي أبدأ باستعادة طموحي مجددًا".

بعد ذلك بكثير حين علم أي بادلته الأماكن وأصبحت أواعد "إيرينا" الآن، لم يقل شيئًا.. ذات مرة كنا نشرب معًا، ووضعت يدي على كتفه فزمرج قائلاً:

- لا تلمسني.

سألته:

- لماذا؟

أشار "بوريس" إلى نفسه بخنصر يه قائلاً:

- لأنني مجنون.

سحبت يدي.. من الصعب الشجار مع رجلٍ يمكنه تحطيم ذراعيك وساقيك بكل سهولة.

تخرج "بوريس" في كلية هندسة المرور، وبدأ عملاً مع "دابل هانك".. سار العمل على ما يرام.. اقتبس "بوريس" قولاً للحكيم "كونفوشيوس": "كل ما أراه من حولي هو نكرة يتظاهر بكونه شيئاً ما.. عدم يتظاهر بالكمال.. قليل يتظاهر بكونه كثيراً".

بدأ "بوريس" يقامر.. قال لوالده الذي كان يدخر المال عن طريق إطفاء الأنوار في الشقة: "إن معاشك الشهري بأكمله أقل من قيمة فيشة "بوكر" واحدة من التي أقامر بها".

تذكرت "إيرينا" "بوريس" فتقول أحياناً بإعجاب:

- يمكنه أن يصبح أكثر الناس مرحاً عندما يريد.

اعترف "باين":

- نعم، هو مضحكٌ لكنه سكير.

أضفت قائلاً:

- "بوريس" لا يفوت أي فرصة للعراك.. هكذا يفكر: "سنتعارك عاجلاً أم آجلاً بأي حال.. لذلك من الأفضل أن نفعل ذلك عاجلاً وليس آجلاً".

قال "باين":

- هذا لأنه رجل عصابات.

علقت:

- حسنًا، لطالما كان كذلك.. كان كذلك في المدرسة.

هز "باين" كتفيه قائلاً:

- هذا يعني أنه رجل عصاباتٍ بالفطرة.



"إيرينا بويوفيتش" بعيدة المنال



عندما كنا في المدرسة الثانوية لم أستطع التفكير في أي موضوع أتحدث فيه مع "إيرينا".. كانت "إيرينا" تقف مع صديقاتها، فأمر بهن وأقول "يومٌ لطيف".. عندها ينظرن مع "إيرينا" إليّ وكأني قلت كلامًا وقعًا.. ثم يمر بهن "بوريس" ويقول: "يومٌ جميل" فيذبن أمامه.

يتسارعن لقول: "يومٌ لطيف.. لطيف حقًا! إنه جميل! حقًا رائع!".

لم أعرف ما المشكلة.. ربما لم أحرك حاجبي بالطريقة الصحيحة.. سحفًا! لقد كنت كالضباب بالنسبة لـ"إيرينا" ولصديقاتها.. كان حالي مثلما قال الشاعر الروسي "فيليمير خلبينيكوف":

"أدركت برعب

أن لا أحد يراني،

أنه يجب زراعة عيون،

أنه لا بدّ من قدوم جراح عيون".

وقتها أردت أن أصبح ذا قيمة، لكن كما نعرف جميعًا، العالم يعارض من يحاول تغيير حاله للأفضل؛ لذلك يضطر الإنسان إلى البقاء على حاله.. أشعر أن العالم بأكمله يزعجني.. أظن أن أسلوب الاستجواب جعل من العائلة أداة تعذيب.. كنت أبحث عن وسيلة للهروب من قيود المدرسة الثانوية، ومن رائحة محشي الكرنب التي تفوح في الشقة يوم الأحد، ومن الصوت الأجهش لمباراة كرة القدم على التلفزيون يوم الأحد.. ذهبت لأتمشى في شوارع بلجراد في الثانية صباحًا على أمل إيجاد شخصٍ ما.. دخلت مصاعد متهدمة وضغطت أزرار الطوابق العلوية على أمل الوصول إلى القمر.. انزعجت حين عرفت أن مصاعد بلجراد المغطاة بالخشب والمرايا الكريستالية والمحتوية على مقاعد مبطنة بالجلد المزخرف تم استبدالها بأخشاب "دايفيد باييتش" الرقيقة الرديئة.

لم تكن الحياة سيئةً في يوغوسلافيا الاشتراكية، لكننا كنا نعيش كذبةً.. في الإجازات الأسبوعية كان الوزراء يسافرون إلى روما ويتسوقون لشراء الملابس.. في الصيف كان عمال البناء يسحبون قمصانهم الداخلية، ويضربون بطونهم ويزمجون قائلين: "لا يمكن هزيمة الاشتراكية".. أمّا على التلفزيون فكان الحمقى يثرون عن الأفكار البناء والهدامة.. في

صغري كان كل ما هو ممتع يعتبر مريبًا.. كشف مظهر السياسيين اليوغوسلاف أن الملل هو أداة للسيطرة الاجتماعية.. ما زلت أتذكر بعض أسمائهم.. أشد من يعقد حاجبيه على التلفزيون هو البوسني "برانكو ميكوليتش".. كان يعبس أمام ابتسامة أي شخص في العالم.. كان الصربي "دراجا ماركوفيتش" يتزين بشارب رفيع يشبه شوارب جرسونات المدينة.. توقعنا جميعًا أن يفرك يديه بسرور على شاشة التلفزيون ويقول: "إن حساء الكرشة اليوم لذيذة بشكل خاص".

بدا السياسي المقدوني "كريستي ترفينكوفيسكي" أشبه بخفاش، أما السياسي السلوفيني "ستان دولانس" فيحمل شبهة غريبًا بفرس النهر.

أدهشني مظهر الناس الذين يتحكمون بمصيرنا.. لكن صوري الفوتوغرافية أدهشتني أيضًا؛ لأنني لم أبدأ حقيقياً بها.. مباني الجرانيت التي اصطفت عند الشوارع الشبيهة بالأخاديد لم تبد حقيقيّة أيضًا.. توقعت من شريط فيديو فيلم "بلجراد وأنا" أن يدور فتتحول صور المباني إلى ومضات مشوشة، ويصدر صوت حفيف الشريط، فيما تتحرك صور الواقع.. بذلت جهدي لألمس قمم المباني، لأشب في الشارع الشبيه بالأخدود، لأقبل السماء.

و"إيرينا"؟

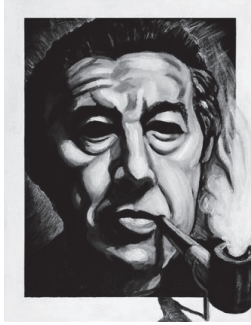
بالنسبة إليّ كانت "إيرينا" من قبل مملة وغير مفهومة وبعيدة المنال، وكأنها مخلوق من كوكب الزهرة كما يقولون.. كانت تقدم نفسها في خطوتين دوّمًا.. أولًا تقول "أنا إيرينا"، ثم تدفع صدرها للأمام وكأنها تقول "وهذا صدري".. كلما فعلت ذلك ضعفت قدمي .. ماذا أقول عنها أيضًا؟ كان موضع الأنف المثالي يعتبر من علامات الجمال الباهر في

القصائد الشعبية الفرنسية في القرن الثالث عشر.. وأنف "إيرينا" كان في موضع مثالي. عاشت هذه الفتاة في عالمٍ معارض للمادية.. واعدت "مغفلين مثاليين"، وبما أنني قرأت أشعار "آرثر رامبو" أعلم أن "مغفليها المثاليين" هم رجال في منتصف العمر يملكون سيارات.. كان الأمر مختلفًا عندما واعدت صديقي "بوريس"؛ فمن خلال "بوريس" أصبحت "إيرينا" فردًا من عائلتنا، لكن قبل ذلك ضحك "باين" بخبثٍ، وهمس في أذني: "أنت تحبها".

لا أعرف.. من الممكن أنه حتى في المدرسة الثانوية شعرت نحوها بالطريقة نفسها التي شعرت بها لاحقًا بعدة سنين.. حتى وقتها ربما رفع الحب سوطه عليّ.. سوطٌ معقود بالماس.. إنه أشد أنواع السياط وأكثرها بريقًا.. ظننت أحيانًا أن هواة تعذيب الذات فقط من سيففون "إيرينا" بأنها حلوة لدرجةٍ مؤلمة.. وظننت أيضًا أنه لو كانت "إيرينا" إعصارًا وليست فتاة لاستطاعت إغراق ألف سفينة.

لكن "إيرينا" لم تكن ملكي.. لم أملك شيئًا في العالم.. في ذلك الوقت كنت غريبًا عن الجميع.. رأيت ذات مرة في مكتب البريد رسم جرافيتي مكتوبًا عليه جملة من أغنية من بلجراد اسمها "صناعة الأحلام"، وهي: "العالم مغلق والمفتاح مخفي".. قلت لنفسي إن هذا صحيح.. الجدران تحيط بي، والأبواب مغلقة بمفاتيح خفية.. صفوف الثانوية مملئة لدرجة أنني مستعد لبيع روحي للشيطان لأصنع أي تغيير.. كنت أسأل "باين" عادةً أين يمكنني إيجاد شيطان في بلجراد صباح يوم الأحد؟

"باين يانوفيتش" وحلم المدينة



عام 1921 ميلاديًا في عربة مواصلات تجرها الخيول في بلجراد، أمر "أندرية يانوفيتش" جد "باين" الأكبر أحد الفلاحين بإعطائه مقعده.

فزمجر الفلاح قائلاً:

- أيها الأخرق اللعين.

عندها استخدم جد "باين" الأكبر سوطه للتفاهم معه.. بعد ثانية كان الفلاح الصربي والأرستقراطي الروسي يتدحرجان على أرضية العربة بعصبية، ويتعاركان بعنف.

تنهد "باين" قائلاً:

- هذه إشارة مبكرة لتدل على أن عائلتي لن تندمج في بلجراد.

ولم تفعل حقًا.

ينتمي أجداد "باين" إلى الصرب الذين هاجروا إلى أوكرانيا في القرن الثامن عشر بدعوة من الإمبراطورة "كاثرين العظيمة" حاكمة روسيا.. بعد ثورة أكتوبر عادت العائلة إلى البلد الذي تركته منذ عقدين.. قام جد "باين" الأكبر بتبذير ماله على الشرب، بينما يستمع إلى أغاني "أولجا يانتشيفسكا" الحزينة.. لم يتحدث "إيفان يانوفيتش" - والد "باين" - عن روسيا قط.. عنوان رسالة الدكتوراه الخاصة به هو "فكرة الشواء في الأدب الصربي".. كان "إيفان يانوفيتش" شخصًا عدائيًا.. لقد ضرب التلفزيون عندما لم يعمل جيدًا.. وضرب حقيبتة عندما لم يتسع لها مكان في حقيبة سيارته.. كما أنه ضرب "باين" أيضًا.

لو سألتني منذ متى أعرف "باين"، سأقول: "طوال حياتي!".. في الحضانة كنت أقول له أن يأكل نملة فيفعل.. في المرحلة الابتدائية كنا نمرح بجذب شعر الفتيات.. على الرغم من أنه انتقل إلى بلدة "نيو بلجراد"، دخل كلانا مدرسة "إيتث" الثانوية.. حلقنا رأسينا في المرحلة الثانوية.. بعد المدرسة كنا نجلس في مقهى "أور سافيرينج" في حي "شوبورا" فأسأله:

- لو عاد إليك قرار إعفاء ولاية ألاباما أو ولاية أوكلاهوما من الإبادة التامة، أيهما

ستختار؟

يجيب "باين":

- سأعفي ألاباما.. لا أهتم بأوكلاهوما أبدًا.

- ربما أوكلاهوما مليئة بالأشخاص الحساسين والشعراء، بينما تمتلئ ألاباما بالمغرورين؟

هذا هو نوع المحادثات التي كنا نقوم بها عادةً.

ذات مرة سألني "باين":

- لو تقاثل ثورٌ مع ديكٍ له الحجم نفسه، من سيفوز؟

- مهلاً، هل سيكون الديك في الحجم نفسه للثور حقاً؟

أوماً "باين" برأسه الشبيه بالبيضة وقال:

- نعم... سيفوز الديك لأنه سينقر عين الثور.

هذه كانت أحاديثنا.

عندما أصبح "باين" مشهوراً، شعرنا بالفخر لأجله.. ألبومه الأول "كم منهم لدينا وماذا" كان مشروعاً عائلياً.. كتب "باين" و"ماريا" عازفة الـ"ساكسوفون" الأغاني.. صممت "زورا ستيفانوفيتش" الغلاف الذي يعرض الصورة التي التقطتها لـ"إيرينا" وهي تقوم بدور "أوفيليا"، وتزين شعرها بزهور الأقحوان.. قام "بوريس" بدور المدير وأمن الحماية أثناء الحفلات.

كلما اجتمع "بوريس" و"باين" معاً تحدثا بصوتٍ عميقٍ.. اتهم "بوريس" "باين" بأنه وقع.. ضحك "باين" حتى ظهرت أسنانه ولثته.. قال له "بوريس" إنه "يشبه القرد".. ومع ذلك ما زالت النساء يقعن في غرام عينيهِ الحزبتين.. حذرتِه "زورا" قائلة: "ستقودك النساء إلى حتفك".

حسدت "باين" لشعبيته مع النساء.. وحسدته أكثر لجرأته على أن يكون على طبيعته، بعكسي.. بدا لي أنه عاش الحياة التي كانت مقدرة لي.. حسدني "باين" بسبب كبه الأرستقراطي، لأن والدي الذي بالكاد عرفته كان رسامًا مشهورًا في باريس.. حسدني لأن شقتنا الكبيرة كانت بجوار الكاتدرائية.. حسدني على جدي الأناني صعب الطباع؛ لأنه كان يعرف الأديب الفرنسي "أندريه بريتون"، وينتمي لحركة بلجراد السريالية.

مثل الكثير من الآباء ظن والد "باين" وزوجة أبيه أنه يمكنهما التصرف بحماقةٍ وحكمة في الوقت ذاته، لكن، على المدى الطويل ستبدو طباعهما طبيعية على المدى الطويل.. كلما استضافا شخصًا على العشاء حاول والد "باين" أن يأكل أكثر من الضيف.. كان يصف عازفي الـ"روك" بأنهم "شواذ مدمنون وصارخون".. أعجب "باين" بالاسم كثيرًا لدرجة أنه فكر في إطلاق هذا الاسم على فرقته.. كلما رأت زوجة أبيه عازف جيتار طويل الشعر على التلفزيون كانت تقول برزانة: "انظروا إلى هذا الأحمق!".

هجر والد "باين" زوجته الأولى وهرب مع إحدى طالباته.

وبرر موقفه قائلاً: "لقد أعجبت بي.. ماذا كان يجب أن أفعل؟".

عانى "إيفان يانوفيتش" أزمةً قلبيةً في الأيام الأولى من علاقته الجديدة.. عاد لزوجته الأولى في فترة النقاهة كي تعتني به ثم عاد للطالبة بعدما تعافى.. تزوج طالبته السابقة فأصبحت زوجة أب لـ"باين".. عندما انفصل والدا "باين" باعا الشقة الكبيرة في شارع "بالوموتيشيفا" واشترى شقتين صغيرتين.. انتقل "باين" مع والده إلى بلدة "نيو بلجراد"، إلى البنايات

الصفراء المليئة بالصراصير.. انتقلت والدة "باين" بعد الطلاق إلى أمريكا؛ لتعيش مع عمها "نيك مانوفيتش".

كانت الأوضاع متدهورة في يوغوسلافيا، وفكر "باين" كثيراً في الانتقال للعيش مع والدته في أمريكا.

كانت حياته تتغير وفقاً لما يريد فعلة في يومٍ محدد.. عندما يشعر برغبةٍ في الرحيل تتحول بلجراد في نظره إلى منطقةٍ وحشية وبغيضة، ويبدو سكانها كالهمج.. عندما يشعر برغبةٍ في البقاء تتحول أمريكا في نظره إلى دولةٍ كريهة بلا تاريخ، ويصبح جميع سكانها بدينين، فيما يضحك السياسيون بخبثٍ كأسماك القرش.

قال ذات مرة:

- لا أريد الذهاب إلى هناك.. فهم لا يغنون الأغاني نفسها.

شجعتة "زورا" قائلة:

- على الأقل لديك خيار، بعكسنا.

قالت "إيرينا":

- احذر، فمن يبقون لا يحبون من يرحلون.

هزرت كتفياً وقلت لـ "بوريس":

- لا يمكنني فهم "باين".

قال "بوريس" باحتقار:

- بالطبع لا يمكنكم فحتى هو يعجز عن فهم نفسه.

لم يرحل "باين"، وظللنا نشرب البيرة أمام السلام القبيحة للمبنى السكني رقم 63..
أظن أننا استمتعنا بتسكعنا هناك.. كنا نشرب البيرة ونجلس بسكون، لكننا نتحرك في
الكون بسرعة تسعة عشر ميلاً في الساعة مثل كل شيء على هذا الكوكب.

لوحث بيدي وكأني أطبح بالبنائيات الحضرية التافهة وقلت:

- انظر إلى هذا.. برزت هذه البنائيات من عقلنا الباطن.

رد "باين" بكحة صغيرة وقال:

- أتعلم، لو أن تصميم المبنى 63 في بلدة "نيو بلجراد" مستوحى من نظريات "لي
كوروبوزييه" لوجب حرق رفاته وإطلاق عظامه من مدفع.

أعجبني "باين" لأنه لا يمانع قول ما يفكر به الجميع، لكن لا يجروون على قوله..
نظر بعيداً في الأفق بعينيه البنيتين وتمتم:

- يا لغرابة الحياة...

تأمل في الأفق بشجن وهو يضيف:

- حلمت بالأمس أني أسست مدينة.. كانت شاحبة جداً، أكثر شحوباً من عظام
السمك، بل أكثر من الطباشير.. لم أدخلها، أعلم أن هذا غريب.. أدت ظهري لها وعدت
إلى البراري المتوحشة.

اختنقت من الرعب.. كيف أخبره أني رأيت الحلم نفسه عشر مراتٍ على الأقل؟

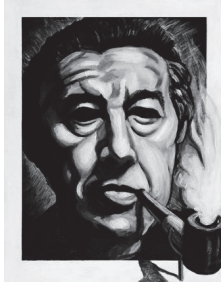
توصلت إلى أن الجميع يرون الحلم نفسه!

واصل "باين":

- هذه المدينة غريبة جداً.. أتساءل أحياناً أين أعيش.. أريد عمل حوارٍ مع المدينة التي أعيش بها.

بالرغم من أنني مؤرخ و"باين" عازف، أعتزف أن هذه الفكرة فكرته.

اقترح "باين" أن أقيم حواراً مع بلجراد.



حوار مع مدينة بلجراد



س: كم عمرك؟

ج: في أثناء بناء "بايلوني بريويري" وجد العمال جمجمةً بشريةً، عمرها ثلاثون ألف عام وعشرة من أسنان الماموث.. يمكن اعتبار مالك أسنان الماموث أقدم مواطن في بلجراد.

س: ما الذي تتساءلن بشأنه؟

ج: أتساءل بشأن القديس "دوناتوس" الذي شنقه الإمبراطور "دقلديانوس"، والذي ينهض من نهر الـ"دانوب" في السابع من يناير كل عام؛ ليجوب شوارعي حتى الفجر.

س: إلى من تنتمين أيتها المدينة؟

ج: من بداية الزمان دارت الأمم من حولي كأوراق الشجر وسط دوامة.. تطيح ببعضها، لقد دمرتني وبتنتني في الوقت ذاته.. أولاً، ضحى "سكورديساكس الكلتي" بالأسرى الرومان، وقدمهم قرابين للآلهة، وتشهد جدراني على ما حدث.. ثم اخترق الفيلق الروماني الرابع بواباتي، وظل قابلاً أربعة قرون.. شن الفيلق الرابع التابع للقائد العسكري "فلافيوس" حملاتٍ على القبائل الإيرانية القديمة "السامراتيون"، ومملكة داقية، والقبائل القوطية الشرقية، وقبائل الـ"جبييد" الجرمانية الشرقية.. استطاع الهون إخراج الرومان لفترةٍ قصيرةٍ مني.. وتمكنت قبائل الآفار المغولية من إخراج قبائل الهيروليون الإسكندنافية من المناطق المحيطة بي.. جاء السلافيون تحت قيادة قبائل الآفار بطاعةٍ عمياء.. تفتحت أعينهم على مرأى بواباتي اللامعة؛ فزرعوا الحقول من حولي مجدداً.

تسلح البيزنطيون بالنار الإغريقية، وقاتلوا شعوب البجناك والمجر للفوز بي.. أصبح عشاقى الجدد هم البلغاريون والصرب الذين سحقوني وبنوني أيضاً.. جاءت شعوب الـ"تسينتسار" الأورومانيون الذين سكنوا البلقان قديماً، كما جاء التتار والأرمن مع الأتراك المنتصرين.. لكن بعد خروجهم من أسبانيا والمجر تشبث بي يهود السفارديم - أي يهود الشرق - مثلما يتشبث الغريق بقشة، أمّا أحفاد الأتراك الذين غزوني سابقاً، تدهورت أحوالهم لسنين قبل أن يطردهم النمساويون في بداية حروب الفترة الباروكية الطويلة.. على مدى قرون كنت أنا بلجراد مثل العظمة، فيما كان النمساويون والعثمانيون مثل كلابٍ تتصارع عليّ وتنهشني.. عندما أصبحت العاصمة الصربية هاجر إليّ العديد من الناس.. وأق أناس

أكثر حين أصبحت العاصمة السلافية الجنوبية.. بعد الهجرة الجماعية في ثورة أكتوبر أصبح ربع المواطنين لديّ من الروس.

يوجد بداخلي اليهود وسكان جمهورية راجوسا السابقة وأرمن ومسلمون ومدافن للرومان الكاثوليك.. ترقد جثثهم تحت أساساتي.. ما زالت صلواتهم المتحدة تحميني، بالرغم من أنها فشلت كثيرًا في ذلك وهم على قيد الحياة.. كل أمةٍ وكل فردٍ كانوا كالشظايا المترامية وسط دوامةٍ ضخمة.. كلٌ منهم كان يأكل ويصلي بطريقةٍ مختلفةٍ.. استمتعوا جميعًا بمنظر الطيور المحلقة فوق الماء من تل "كاليميچدان".. جميعهم أحبوا التل الذي يعلو الأنهار، وأسموه عن جدارة "تل التأمل".. كل هؤلاء الأفراد والأمم هم أسلافك.

س: عمّ تتحدث هذه الأمم؟

ج: تحدثت عن الحب.. لقد أطاحت ببعضها، ولكنها تحدثت باستمرارٍ عن الحب.. همس الهيروليون: "الحب حلمٌ لا يتحقق".. وزمجر الآقار: "الحب مستحيل في هذا العالم".. وقال الصرب بدهشةٍ حين انفتحت بواباتي أمامهم: "حتى هنا لا وجود للحب".. قال الأتراك: "الحب موجود في جنات الله".

س: هل تذكرين أي قديسين أو قادة عسكريين؟

ج: أذكر أن الإمبراطور "دقلديانوس" أصدر عندي القانون الذي يحدد مظهر الشهود في المحكمة، أمّا الإمبراطور "جوفيان" الذي وُلِد بي فقد أعاد الديانة المسيحية إلى الإمبراطورية الرومانية، بعدما منعها الإمبراطور

"جوليان المرتد".. أعاد الإمبراطور "جستينيان" بناء حصن بلجراد، وأعاد تأسيس الأسقفيات.

أنا، بلجراد، استضفت القديسين "كيرلس" و"ميثوديوس" و"أنجيلار" أيضًا.. وصفني القديس "كليمنت" بأعظم مدينةٍ على نهر الـ"دائوب".. لفترةٍ من الزمن كنت مركزاً لتعاليم الهرطقة الخاصة بالكاهن "أريوس" السكندري، وفي أثناء الحملات الصليبية قام "جودفري" حاكم بولونيا و"وولتر" حاكم "باونس" بنهبي وحرقي.. عاقب الملك "فريدريك بربروسا" من ارتكبوا جرائم في المجر، وقام القائد العسكري المجري "جون هونيادي" المعروف أيضًا باسم "إيوان دي هونيدوارا" بصد السلطان العثماني الجريح "محمد الفاتح" عن أسواري.. بداخلي تم تهنتة السلطان "سليمان العظيم" على فتحه للمجر وسط حشود العبيد الأسرى.. داخل أسواري سكن جسد السلطان "سليمان القانوني" بعد وفاته.. شهدت على إشعال رفات القديس "سابا" في السابع والعشرين من إبريل عام 1573.. بعثت الرياح رماده في أعين الحاضرين، فأعاد البصر لكثيرٍ من المكفوفين.. قام البارون "ترينك" والبارون "مونشهاوزن" بتقمص شخصية فرعونين في فندق "وايلد مان" بداخلي.

س: هل تذكرين شعراءك؟

ج: قام الحاكم الصربي "ستيفان لازاريفيتش" بتأليف شعره "رسالة عن الحب" على أرضي، ولقد كان من مواليد بلجراد.. يوم وفاة هذا الحاكم الشاعر غنى الشاعر البلغاري "قسطنطين الفيلسوف" أغنيته "ابكي

أيتها المدينة البيضاء على أسوأ لحظاتك...". .. على أرضي ندب الكاتب اليهودي "يهوذا ليرما" اللحظات الضائعة في الزمن مثل دمعَةٍ في المطر.. كتب "سيمحا كوهين" أن "المعرفة ليست تجربة، وهي لا تعفينا من الحاجة إلى التجربة".. بين جدراني كتب "نور الله منيري بلجرادي" بحثه عن الشاعر الفارسي "سعدي الشيرازي".. أبحر في قاربٍ وسط بحيرة في يومٍ ربيعي وكتب: "الطيور تقرأ وبحيرة السمك هي كتابها.. الرياح تكتب والسحب هي نقاطها...".

أرسل إليّ البطريك الصربي "أرسينيوس الرابع" تحذيره المشؤوم: "سيلتهم الخنزير شبابكم...". .. كتب الأديب الملهم "دوسيتي أوبرادوفيتش" مؤلفاته على أرضي.. بين جدراني دندن الشاعر أشعث الشعر "فلاديسلاف بيتكوفيتش ديس" أشعاره الرمزية مرتدياً نظارته المرتكزة على أنفه بلا ذراعين على الأذن.

"جاء الأموات بالأمس لزيارتي

من القرون القديمة والمقابر الجديدة

كنت ضحية أرادوا رؤيتي

في إطلالة عابرة سريعة الزوال".

س: هل لديك ألقاب أخرى؟

ج: أسماني الرومان "سينجيدونوم" على اسم القبيلة الكلتيّة "سينج".. أطلق الشاعر "أبولونيوس الرودسي" على صخرة "كاليميجدان" اسم

"كانالاك".. أسماني النمساويون "بلجراد اليونانية" بسبب ديانتني الأرثوذكسية التي تعود أصول تسميتها للغة اليونانية، أمّا الأتراك فهم الأكثر إبداعاً مع الألقاب.. أسموني "محظية السلطان" و"الأساس الصخري" و"بيت الجهاد" و"مستقر النعيم" و"بوابات الحرب".. كما نعرف جميعاً، إنهم يطلقون لقب "تل التأمل" على تل "كاليميبدان".. أمّا أجمل تركيبةٍ من بين هذه الألقاب، بالإضافة إلى اسمي الحقيقي هي "تل التأمل، أعلى بوابات الحرب".



ركيزة العالم



ما زلت لا أستطيع إخباركم بما تنادوني.. أعاني مشكلةً في توثيق هويتي.. كلما سألني شرطي عن بطاقة هويتي تتلوى أحشائي من الاضطراب.

أنا مؤرخ.. إنه عمل قذر، لكن على أحدٍ ما القيام به.. أنا مؤرخٌ صادق - إن كان لهذا معنى - أفكر ليس فقط في رخاء أمتي، بل أيضًا في رخاء أمم البلقان كلها.. سأخبركم شيئًا عن أمم البلقان دون أن تسألوني.. إنهم لا يملكون فكرة عن بعضهم البعض.. هذه الأمم مثل الرسوم المتداخلة، تبدو من بعيد كرسمةٍ واحدة.. هذه الرسمة الموحدة لا يلحظها أيٌّ من المؤرخين البلقان.. ربما حتى أنا لا ألحظها، لكنني أقترّب تدريجيًّا من المكان الأمثل لرؤيتها كاملة.. هذا ما يسمى بالبحث العلمي.

سأخبركم أمراً آخر دون أن تسألوني أيضاً.

لو سألني والداي إن كان عليهما الزواج لأجبتهما "لا تفعلوا!".. لو سألني مؤسسو يوغوسلافيا حيث ولدت إن كان عليهم تأسيسها لقلت "لا تفعلوا!"; فحتى الأطفال يولدون في زيجاتٍ فاشلة! بالنسبة إليهم تتحول هذه الزيجات الفاشلة إلى ركائز للعالم.. يكذب الآباء على أطفالهم في كل مكان، وقدرتهم على كشف هذا الكذب هي أصعب جزءٍ في عملية النمو.. سألت صديقتي "زورا ستيفانوفيتش" لماذا يسمع الأطفال الأكاذيب في كل مكان فقالت بذلك:

- أولاً، لأن الآباء لا يعرفون ما يجب قوله عادةً.. ثانياً، لأن العائلات والدول والأفكار مبنية على أنصاف الحقائق على أفضل تقدير.. وإن ذرة الكذب تنمو داخل الحقيقة بأفضل مما تنمو ذرة الحقيقة داخل الوهم.

أظن "زورا" محقة.. كن على علمٍ بالحقيقة الغريبة القائلة إن اتحاد أحمقين يصنع عائلة، واتحاد الكثير من الحمقى ربما يصنع دولة.. هذه الأساسات السخيفة والضعيفة مثل الدولة والعائلة قد تكون ركيزة العالم بالنسبة إلى شخصٍ ما، مثلي، يشاهد ما يحدث بنظرةٍ متعالية.

ما هي ركيزة العالم؟

كتب الأديب والمؤرخ "ميرتشا إلياده" عن ركيزة العالم في كتابٍ لا أذكره لكنه يوضح حياتي.. إنه رمزٌ للقبائل - يُسمى "طوتم Totem" - يربط بين السماء والأرض، إنه يرمز لحياتي، لكنني لا أعرف حتى إلى أي قبيلةٍ أنتمي.. يقول "ميرتشا إلياده" إنه عندما يتدمر رمز القبيلة - "الطوتم" -

يستلقي أفراد القبيلة حول "ركيزة عالمهم" - أي رمز قبيلتهم - ويموتون.. تحدث هذه الأمور عندما تتدمر الأساسات الضعيفة التي تدعم بيت شخصٍ ما.. توفي بعض أقاربي وأصدقائي عندما انهار البيت الضعيف الذي عشنا فيه في يوغوسلافيا.. استلقوا وماتوا بكل بساطة.

سأذكركم في النهاية أنه لا يمكنني إخباركم من أنا.. ما أكتبه هو نتيجة نظرية لا يمكن اعتبارها علميةً.. إنها قصةٌ عن حبي، وثلاث صداقاتٍ لي، وحربٍ أو سلسلة حروبٍ طاحنة، وضياع فكرة الوطن، والضعف المستمر مع خسارة الدعم، وانقسام العالم مع نسيان أسلوب الفسيفساء البيزنطي، وعن المرأة التي تعكس الروح ومحاولاتي لإدراك انعكاسي في الآخرين وفي مدينتي.. هذه أيضاً قصةٌ عن إعادة بناء مستمرة للمدينة، والوحوش المفترسة للبشر، والجماليات، والبشر الودودين مع النمر، والكثير من الشخصيات الثانوية.. بالطبع لا تعتبر الشخصيات الثانوية نفسها هكذا.. فهم يشيرون لأنفسهم بكلمة "أنا"، تمامًا مثل مؤلف هذه القصة الواقعية.

إنها أشبه بيوميات عامة أكتبها بنية نشرها يوماً ما، ربما.. لقد اعترفت برغبتني في توحيد تفاصيل حياتي المختلفة والمنفصلة عادةً في هذه اليوميات.. كل إصبعٍ من أصابعي مرتبط بأحد التفاصيل.. أشعر أحياناً أنني مثل محرك الدمى عندما أتحكم بالتفاصيل.. أحياناً أكون مثل الدمية التي تهتز بين الخيوط.. بما أنني لا أرغب في كشف اسمي سأضطر إلى استخدام اسمٍ مستعار في هذه الصفحات.

عندما دافعت عن رسالة الدكتوراه الخاصة بي أسماني صديقي "بوريس" "دكتور جيكل" على اسم الشخصية الشهيرة وهو يمزح.. أظنها ملاحظة جيدة وقوية.. لا أمانع هذا اللقب.. فليلتصق بي.. هاها، أنا حقًا سعيد باختياره.
"دكتور جيكل".



لكن ما هذا بحق السماء؟

كتبت هذه السطور وأنا سعيدٌ بنفسي.. ثم وضعت المفكرة جانبًا وشردت، بينما أتخيل ثياب "إيرينا" التحتية.. ثم أمسكت المفكرة وبدأت أقرأ مجددًا.. كانت هناك مرآة معلقة على الجدار المجاور لي.. عكس سطحها ورقةً من يومياتي.. نظرت فرأيت أن الحروف لم تكن معكوسةً في المرآة، بل كانت تختلف عما كتبت.
هذا ما كان مكتوبًا: ...



موقفٌ غريبٌ حدث بيني وبين "إيرينا"



عندما قابلت "إيرينا" ذات العينين المسحوبتين في منزله "زيمون"، شعرت بتغييرٍ ما طرأ بيننا.. عيناها الداكنتان اللتان أظهرتا فقط اللامبالاة من قبل، أظهرتا الآن الاهتمام.. ربما أصبحت مهمًّا بصفتي المالك المستقبلي لشقةٍ كبيرة في أفضل منطقةٍ في المدينة.. ربما رأته بضع مراتٍ على التلفزيون، بينما أجادل قائلاً إن أمم البلقان تتظاهر بعبادتها لآلهةٍ مختلفة فيما هي تعبد الإله نفسه، إنها معاناة.. ربما لحياتي الصغيرة المربعة تبدو أنيقة.. لن أكون حفيد "تويفل جورجيفيتش" الرسام السريالي من بلجراد دون الإيمان بأبسط التفسيرات، ألا وهي المعجزة.. في ذلك اليوم أصابتنا معجزة بقوة.. أخبرتني "إيرينا" للمرة الأولى شيئاً عن نفسها.

قالت:

- حتى نهاية المرحلة الثانوية، كنت كمن يسبح في عرض البحر ولا يرى يابسة على مرمى البصر.. ثم.. ببطءٍ شديدٍ.. لمحت البر.

تلك الظهيرة أدركت كم نعرف قليلاً عن الأشخاص الذين نظن أننا نعرفهم جيداً! اتضح أنه في المرحلة الثانوية عانت "إيرينا" من إدمان الهيروين.

قلت لها مندهشاً:

- لم يكن لديّ أدنى فكرة.

تنهدت "إيرينا" وقالت:

- ظننت الجميع يعرف.

لدى "إيرينا" صورة لها مع مجموعةٍ من أصدقائها يوم بدأت التعافي.. كانت مقتنعة أن كلهم قادرون على الشفاء من الهيروين.. جميع من في الصورة موتى الآن ما عدا "إيرينا".. آخر مرة رأته "باليانا" و"ديكي" كانا شبحين هزيلين يسندان بعضهما في أتوبيس.. ولاحقاً قرأت نعيهما في جريدة "بوليتيكا".

ارتجفت "إيرينا" وهي تقول:

- لا أحب حقيقة أن البشر فانون.. إن التفكير في الأمر وحدي ليلاً ليس ساراً.

اعترفت "إيرينا" أنها لم تتطلع للحياة الأخرى، فهي لم تتوقع دخول الجنة.. لقد آمنت أنه يكفيها أن تكون في مكانٍ ما بين الجحيم والجنة.

عندما عرف والدها "تشيدومير بويوفيتش" أن ابنته تتعاطى المخدرات أرسلها إلى الطبيب "بوبوف" الشهير في موسكو.. جعل الطبي "بوبوف"

"إيرينا" نكره حياتها، لكنه حررها من إدمان الهيروين.. لفترةٍ طويلةٍ بعد عودتها إلى بلجراد، كانت تمر بالأماكن التي اعتادت التعاطي فيها فتشعر كما لو أنها مرت بشقة حبيبٍ سابق.

اعترفت قائلة:

- الإثارة هي الكلمة المناسبة لوصف الحالة التي مررت بها لعامٍ كامل.

- كيف لم يذكر "بوريس" هذا لي ولو مرة؟

هزت "إيرينا" كتفيها.

اندمجنا في الحديث وتمشينا إلى أطراف البلدة حتى وصلنا إلى مقبرة "زيمون".. أريتها تمثال فتاة صغيرة نحيلة الخصر وكبيرة الصدر.. علمت أن طلاب الإعدادية بمدرسة "زيمون" يأتون للمقبرة، ويمارسون العادة السرية أمام هذه الفاتنة البرونزية.

ابتسمت "إيرينا" وقالت:

- هذا يثبت أن الجمال الأنثوي يتخطى حدود الموت.

شربنا قهوة عند برج "سيينيانين يانكو".. أصرت أن "زيمون" تبدو في أوج جمالها عند النظر إليها من قاربٍ في النهر وهي تتلألأ وسط الأرض التي أنها اتسعت فجأةً.. شعرت بروحي تسمو فيما يذوب الجليد بيننا.

اعترفت قائلاً:

- هل تعرفين أي كنت معجبًا بكِ سرًا في المدرسة الثانوية؟

- لماذا لم تخبرني من قبل؟

والآن حان دوري لأهز كتفي.

سرنا في الشارع المرصوف بالحصى حتى وصلنا إلى مطعم "شاران".. وهناك شربنا "براندي" المشمش ثم طلبنا حساء السمك.. دخل شخصٌ منتفخ العينين إلى فناء المطعم.. كان يبيع المجوهرات الرخيصة والفئران اللعبة التي شغلها، وجعلها تركض بين الموائد.. اشتريت لـ"إيرينا" فأرًا لعبة، ثم ذهبنا نتمشى في متنزه "زيمون".. شعرنا بجوٍ من الدفء بينما نتمشى.. شيءٌ ما جعلنا نسير متلامسين.. كانت الرياح تهب على مياه نهر الـ"دانوب" الذهبية بسبب انعكاس الشمس.. بدت القوارب وكأنها تسبح في الشمس المنعكسة على صفحة الماء.

نظرت "إيرينا" إلى الضوء الساطع في السماء، فاهتزت وابتسمت.. أسمت هذا "قبلة العين السماوية".

قالت:

- في الأيام الشبيهة بهذا تتغلغل الشمس بداخلك.. فتتحرك بخفة كالشمس تمامًا.

فكرت أن هذه قد تكون أجمل لحظات حياتي.

عبرت "إيرينا" عن مدى احتقارها لمجلات النساء التي تنشر صورًا للفاتنات، وهن يلقين نظرات إغراء وابتساماتٍ ساحرة.. ومع ذلك تعترف بأنها تسرق هذه المجلات بانتظامٍ من والدتها، وتقرأ باهتمامٍ مواضيع مثل "عشرة أشياء لا تفعليها عارية" أو "كيف يتحول الانجذاب إلى حب" أو "خمسة تصميماتٍ ملونة جديدة للصيف" أو "كيف تعدين سلطة

خيار منعشة" .. بعدما تقرأ كل كلمة تعيد المجلة إلى غرفة أمها سرًا كاللصوص، ثم تستعيد سلوكها الذي يوحى بالتفوق الفكري.

قلت موافقًا:

- هناك شيء عميق في هذه المجالات.

أخبرتها أن رئيسي في مؤسسة "تاريخ البلقان" كان دقيقًا بشكلٍ مزعج ويبدو مثل حيوان التايبر الشبيه بالخنزير.. تحدثت عن شكوكي بشأن مجال تخصصي ألا وهو التاريخ.. كان رئيسي يحب الإحصائيات.. رأيي أن الآراء لا يمكن استبدالها بالأرقام.. أتساءل، ما الذي يجب أن نعتقده في طبيعة المسيحية إذا علمنا عدد اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، ويعتبرون أنفسهم آلهة بيننا؟!!

حسب إحدى النظريات الروحانية التابعة لمذهب "الجنوسية" (Gnosism)، خلق الرب العالم بضحكته.. أظنني سمعت صدى هذه الضحكة الإلهية في الضحكة التي ردت بها "إيرينا" على كلامي.

اعترفت "إيرينا" إليَّ أنها لم تعترف لأي رجلٍ بالحب.. بعد كل السنوات التي قضيناها معًا، اكتشفت أنها لم تقل هذه الكلمات لي أيضًا.

سرنا حتى التقاء نهري "سافا" والـ"دانوب"، ثم ذهبنا إلى متحف الفن المعاصر.. شاهدنا اللوحات وأخبرتني "إيرينا" أن أختها الصغرى "سانيا" تشع بالثقة.. كلما أخبرها أحدهم أنها جميلة تومئ "سانيا" برأسها وتوافقها قائلة: "نعم، أنا جميلة" .. وعندما يخبرها أحدهم أنها ذكية توافق قائلة: "نعم، أنا فائقة الذكاء".

سألتها:

- هل كنتِ واثقة مثلها وأنتِ صغيرة؟

أردت أن أعرف.

قالت "إيرينا" مفكرة:

- بصراحة... كنت كذلك، لكنني تغيرت لاحقًا.

ما زال الوقت نهارًا عندما خرجنا من متحف الفن المعاصر.. نظرت غربًا فرأيت خريطة المدينة محفورة على لوحة نحاسية ساخنة.. ذلك اليوم مع "إيرينا" كان جميلًا، ومشهد الغروب كان أجمل.. تلالأت السماء، ولمعت الأرض.. دق قلبي بقوة مثل أجراس الكاتدرائية، بينما أوصلها إلى محطة الأتوبيس.. التفت الناس ونظروا إليّ.. لم أستطع إبعاد عيني عن "إيرينا".. ما زال نور الشمس يتلألأ في عينيها وشفثتها.. لو طلبنا من الشاعر "أبولونيوس الرودسي" أن يصف الحالة التي مررت بها سيكتب أن ربة الجمال "أفروديت" أرسلت إله الحب "كيوبيد" ليرمي قلبي بسهم الحب ثم يشعله بلهب العشق، بينما تذوب روعي بألمٍ عذب.

وعدت نفسي أنني لن أنسى أبدًا هذا اليوم من إبريل عام 1988.. فهذه ليست تجربة يومية بالتأكيد.. تساءلت إن كانت مشاعرنا متبادلة.. قال شخصٌ ما إن كل شيءٍ متبادل دومًا.. عرفت عن تجربة أن هذا ليس صحيحًا، لكنني أحببت الفكرة.

قالت "إيرينا":

- أحسست بهذا الشعور مرةً واحدةً في حياتي حين تناولت حبوب السعادة.
سعلت.

- قد يكون هناك اسم لائق أكثر لهذا المخدر.

لم أعلم ما الذي حاولت قوله، لكننا ضحكنا.. انتظرنا حدوث شيءٍ ما.. فاتها أتوبيسان بينما ننتظر.. ترددت طويلًا في لمسها، وكأنها محمية بجهاز إنذار.. لكنني أخيرًا شعرت بنعومة شفتي "إيرينا"، وحصلت على حق لمس جسدها كما يحلو لي.. بدأ كل شيءٍ يرقص من حولي.. كنت عاشقًا، مثل شخصية من ألف ليلة وليلة.

لاحقًا، زرت "إيرينا" بانتظام، وشربت الويسكي مع والدها "تشيدومير بويوفيتش".. سألني "تشيدومير" ذات مرةٍ كيف بدأنا نتواعد.. أخبرته أننا تقابلنا صدفةً في يومٍ طويلٍ وجميل.. أوصلتها إلى المنزل وفاتنا أتوبيسان، بينما كنت أستجمع شجاعتي لأقبلها.. الشجاعة التي احتجت إليها لأقبلها كانت ضعف الشجاعة التي احتاج إليها "دابل هالك" ليقاتل حثالة حي "بولبودر".

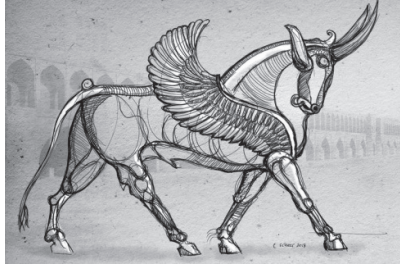
جذب كلامي اهتمام "تشيمودير" والد "إيرينا"، فسألني:

- وما الشجاعة التي احتاج إليها "دابل هالك" ليقاتل حثالة حي "بولبودر"؟

رفعت إصبعي بقوةٍ وصخب:

- شجاعة عظيمة!

قصص خادعة عن "دابل هالك"



أوضحت لـ"تشيמודير بويوفيتش" والد "إيرينا" قائلاً:

- عندما اتجه "دابل هالك" ليوافه حثالة حي "بولبودر" كان الزمن مختلفاً.. فبدلاً من الأسلحة النارية كان المجرمون العتاة يحملون السكاكين.. وقتها كان أخوه في السجن، و"بوريس" في الجيش، سيصبح "بوريس" إشبينه في المستقبل، وهو أعز أصدقائي الآن.

هكذا كان "دابل هالك" وحده.

استعد للمواجهة الحاسمة، فارتدى معطفاً أسود، وأخفى تحته بندق الصيد البحري الخاصة بأخيه وقطع حبال رماحها.. سار "دابل هالك" في

ساحة المواجهة باتجاه قذرين بلا أسنان، إنهما الأخوان "فوكوتيتش" و صديقهما "أباجا"، مثلما حدث في الفيلم الدرامي القديم "هاي نون".. كان "أباجا" ذا أنفٍ مكسور وأذن متورمة وذقن ملتصق ب صدره؛ لأن رقبتة قصيرة جدًا.

قال "أباجا" لـ "دابل هالك":

- ماذا تريد أيها الحثالة؟ سنقتلع عينيك الآن.

أشهر "أباجا" والشقيق الأصغر من الأخوين "فوكوتيتش" خنجرهما، أمّا الشقيق الأكبر فكان يمسك بقضيبٍ معدني.. انتظر "دابل هالك" اقتراب "أباجا" والأخوين "فوكوتيتش".. ثم سحب إحدى بنادق الصيد البحري.. صوب إلى الساقين بلا رحمة، أطلق الرصاص نحو ركبة الأخ "فوكوتيتش" الكبير؛ فأعاقه مدى الحياة.. بابتسامةٍ شرسة سحب "دابل هالك" بندقية الصيد الأخرى.. أمسكها بيديه وصوب نحو صدر "أباجا".. ألقى الشقيق "فوكوتيتش" الصغير سكينه وهرب، أمّا الشقيق "فوكوتيتش" الكبير فلم ينس قط كيف استنجد بشقيقه الأصغر بعجزٍ قائلاً: "لا تتركني يا ميو".

سند "أباجا" نفسه رويدًا رويدًا، وظل يقول: "لا تفعلها يا نيبوشا".. شعر "دابل هالك" أن "أباجا" الذي يحاول استعادة طاقته تحدث إليه بصوت "ديسانكا" - والدته المتوفاة - "لا تفعلها يا نيبوشا".. أرجوك، أخفض سلاحه وقال: "عُد لبيتك".

بعدهما سمح لـ"أباجا" بالعودة لمنزله اقترب من "فوكوتيتش" الجريح وركله في أسنانه.. هذا الموقف أدى إلى سجنه للمرة الأولى.

قال "دابل هالك" لاحقاً:

- لو أنني تجاهلت صوت أمي المتوفاة، وقتلت "أباجا"، لتم سجنني فترة أطول بالتأكيد.

فرد "بوريس" بعبوس:

- لكن عندها ما كنا سنضطر للتعامل مع الأخوين "فوكوتيتش" و"أباجا".

قبل أن أقابل صديقي "بوريس" لم أكن أعرف أن ذقن الإنسان قد يكون صلباً كالجرانيت.. عندما خرج "دابل هالك" من السجن سألته ببراءة:

- هل هناك طيبون في السجن؟

نظر إليّ بعينيه الداكنتين وقال:

- نعم، لكن ليس كثيراً.

أحب "دابل هالك" أن يروي حكايات عن السجن.. كتب أحد المساجين على جدران زنزانتة: "اقترب من المؤمن" .. لعب "دابل هالك" كرة القدم مع مسجون عجوز من بلدة "باراشين"، محكومٌ عليه بعشرين سنة في السجن.. اندمج العجوز في اللعب فعانقه قائلاً: "أنا أحبك مثل ابني" .. المشكلة هي أنه قتل ابنه بنفسه في ثورة غضب وهو مخمور.

تذكر "دابل هالك" مجرمًا قويًا من "فينكوفسي"، كان يقرأ الكتاب المقدس في السجن.. هناك أدرك أنه كتابٌ قوي.. أدرك أن الرب أقوى من كل الأقوياء في "فينكوفسي" أو بلجراد، لهذا استعان بالكتاب المقدس، بالإضافة إلى قصة "دابل هالك" من السجن، أحب أيضًا أن ينصني بشأن النساء.

قال لي ناصحًا: "تحب المرأة أن تتعرض للصفع مرة كل حين.. لا يجب أن تظن المرأة أنها فهمتك أبدًا.. إن ظنت أنك ستقبلها اصفعها.. وإن ظنت أنك ستصفعها قبلها.. هكذا تجعل الفتاة تفكر: "فهمت، لا يمكنني فهمه، إنه يفوق قدراتي".

هذه الفلسفة الذكورية الأساسية تذكرني بالفلسفة الأنثوية التي وضحتها لي "إيرينا": "عندما يريد أي رجل الاقتراب مني، أبتعد أكثر.. أصبح بعيدة المنال دومًا".

قبل وبعد السجن عانى "دابل هالك" من المشكلات مع الشرطة بسبب شجارات البار.. حاول أن يجعلني أصدق بأنه كان دومًا الضحية.. تورطه في هذه المشاجرات كان للسبب نفسه دائمًا.. كان يجلس بهدوءٍ في البار ويشرب، يدخل أي شابٍ ويبدأ بإهانته، فيحاول "دابل هالك" أن يخبره بأن سلوكه غير لائق:

- لا تتحدث هكذا يا رجل، فهذا ليس لطيفًا.

يستمر الشاب بإهانته بكل وقاحةٍ واحتقار.. فيحذر "دابل هالك" هذا المتنمر

مجددًا:

- لا تفعل هذا يا رجل.. سنحاول إصلاح الأمور.

يستمر الشاب بمضايقاته البغيضة.

يعجز "دابل هالك" عن احتمال هذه المعاملة الوقحة، فينقض على الشاب، ويمسك بهذا المغفل ثم يقذفه من نافذة البار؛ ولأنه يكون غاضبًا جدًا يضرب موظف البار وشابين آخرين يجلسان على المائدة المجاورة له.

عندما يمتلئ البار بالشرطة يلوح بذراعيه ببراءة قائلاً:

- لقد بذلك جهدي لأمنع حدوث هذا.

ذات مرة شكت "إيرينا" إلى "بوريس" بأن ثلاثة فتيان من مبناها السكني يتصرفون بوقاحة.. لقد نظروا إليها بطمع وشغلوا موسيقى بصوت عالٍ جدًا حتى الفجر.. ذات يوم كادت آذاننا تنفجر بسبب الموسيقى الصاخبة، بينما كنا نجلس في غرفة معيشة "إيرينا".. انزعج "بوريس" ووقف.

توسلت إليه "زورا":

- لا تذهب، أرجوك يا "بوريس".

- لن أذهب أنا.

ثم اتصل "بوريس" برقم ما وقال:

- "دابل هالك"؟ أنا في شقة "إيرينا".. من فضلك، تعال بأسرع ما يمكن!



بعد نصف ساعة فتح الأشقاء الثلاثة بابهم بضجةٍ مدوية.. وكأنما حدث كسوفٌ شمسي.. كان "دابل هالك" يقف أمام الباب.. بدا بشعره الأشعث ولحيته مثل الثور المجنح في الأساطير البابلية.. حك "دابل هالك" أنفه، وقال بنبهةٍ طيبة زائفة:

- اسمعوا يا رفاق.. يعيش عمي في الشقة المجاورة لكم.. إنه مسن ولطيف.. يعجز عن النوم بسبب موسيقاكم الصاخبة.. عمي منزعج.. كيف ستشعرون لو عجزتم عن النوم؟ إنه شعورٌ بغيض.. لا أحد يريده...

اعتذر الفتیان بتلعثم... بعد ذلك امتلأت بناية "إيرينا" بصمتٍ أشد من صمت صحراء "كالاھاري".. بعدما أتقن رياضة الجودو توقف "دابل هالك" عن الشجار.. فتح محللاً لبيع الزهور في الجهة المقابلة للمقبرة المركزية، ووظف الكثير من أطفال الغجر ليسرقوا الأزهار من القبور ويحضرها له.. كان يقوم بإعادة بيع الأزهار.. ثلاث جنازات مختلفة استخدمت الأزهار نفسها.. لم يجمع "دابل هالك" مالاً كثيراً قط، لذلك بدأ بتهريب السترات الجلدية من إسطنبول والأجهزة الإلكترونية من ميونيخ.. في البداية عمل "بوريس" معه ثم بدأ يشكو من أن هذا مضيعة للوقت ويسبب الإحراج.

لدى "دابل هالك" شقيق اسمه "دادا".. كنت أنا و"زورا" نخشاه؛ لأن عينيه لا تكشفان ما يدور في خاطره أبداً.. إن مؤخرة الحصان في لوحات الفنان "باولو أوتشيلو" أكثر تعبيراً من عيني ذلك الرجل.. كان "دادا" مطلوباً للعدالة في الكثير من الدول الأوروبية.. من آنٍ لآخر كان يرتدي سترة واقية من الرصاص ويركب طائرة ليسافر ويقتل أحد أعداء

يوغوسلافيا في ميونيخ أو زيوريخ، ثم يعود إلى بلجراد، ويواصل عمله في المقهى بهدوء. "دادا" هو أحد الأمثلة المبكرة عن تداخل أعمال المخبرات والعصابات.. عندما بدأت الحرب قام "بوريس" و"دابل هالك" و"دادا" بتهرب شاحنات نصف نقلٍ لا نعرف ما بها من كرواتيا، وناقلات جاز من رومانيا.. كان "دابل هالك" يتاجر في الجاز خلال الفترة التي عانت فيها يوغوسلافيا من نقص الموارد بسبب العقوبات الاقتصادية.. بلفتة غرور قام بتك سيارته الـ"مرسيدس" البيضاء دائرة المحرك أمام مقهاه.. يتركها هكذا لساعتين.. في هذا الوقت كان الجاز يباع بالزجاجات في بلجراد، ولم يملك الناس ما يكفي منه للقيادة حتى المستشفى.. اقترب رجلٌ متقاعد من مائدة "دابل هالك" وقال بتردد:

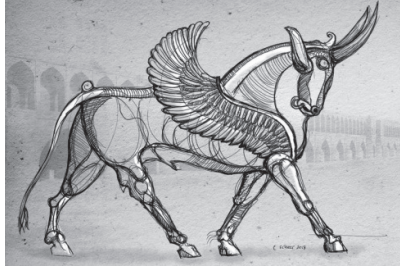
- سيدي، ما زال محرك سيارتك دائرًا.

غمز "دابل هالك" وقال بنبرته الطيبة المزيفة:

- أنت تقلق كثيرًا على شؤون الحياة أيها المسن، ستصاب بأزمةٍ قلبية، دعه يدور.

هذا تقريبًا كل ما أعرفه عن "دابل هالك".. معظم ما ذكرته حدث لاحقًا.. لقد أخبرت "تشيدومير بويوفيتش" والد "إيرينا" بالجزء الأول وحسب.. عندما انتهت، طرف "تشيدومير" بعينه، وقال بعدم رضا:

- الشجاعة التي احتاج إليها "دابل هالك" لقتال حثالة حي "بولبودر" والشجاعة التي احتجت إليها أنت لتقبيل "إيرينا" ليست شجاعةً على الإطلاق.. ولا تنزعج إن ضحكت على كلامك.



عن تحرير بلجراد



شرب "والد" إيرينا" رشفةً من الويسكي بانتصار بعدما أعلن أنه لا يحق لي أو لـ"دابل هالك" التباهي بشجاعتنا.

سألته:

- ما قصدك؟

- مقارنةً بالشجاعة التي احتجنا إليها لتحرير بلجراد، فهذه ليست شجاعة مطلقاً.

- حسناً يا سيد "تشيدومير"، ما نوع الشجاعة التي احتجتم إليها لتحرير بلجراد؟

رفع "تشيدومير بويوفيتش" إصبعه، ونظر بثباتٍ ثم قال:

- شجاعة عظيمة.

- هل ستخبرني عن الأمر؟

- نعم..

- هل ستفعل الآن؟

- نعم.. في أكتوبر 1944 جاءت فرقتي العسكرية من "ساياك" عن طريق مدينة "أوجيتسي" وجبل "سوفوبور".. دخلنا المدينة من حي "ديديني". كانت المرة الأولى التي نرى فيها مدينة بهذا الحجم.. حتى مدينتي "كروشيفاتس" و"نيس" بدتا كبيرتين بالنسبة لنا.. في ذلك الوقت كانت المدينة قد تحولت إلى حصن.

هل تسألني ما نوع الشجاعة التي احتجنا إليها لتحرير بلجراد؟ أولاً، لا يمكنك معرفة من أين تأتيك الطلقات في المدن.. تظن رأسك وتظل تحركها مثل مؤشر الرياح لأن الرصاصات قد تصيبك من أي مكان.

حصن الألمان أنفسهم في المباني، وأمنوا المداخل بالألغام.. قُتل العديد من الناس بسبب الألغام المضادة للدبابات والأفراد.. تقدم الروس بكاشفات الألغام، وحددوا الممرات الآمنة لدباباتهم.. وكُتب على جدران المباني الجملة الروسية أصل كل الجرافيتي في بلجراد: "الممر آمن، لا ألغام".

أصبحت بلجراد خراباً.. كانت المباني إما مدمرة بالكامل أو متضررة بشدة.. العديد منها بدا أشبه بأهراماتٍ مصنوعةٍ من الطوب.. أظن أن

المنتزهات وساحات الركن الحالية أنشئت مكان المباني المتهدمة.. ثقت الرصاصات نصب الأمير "ميهايلو" التذكاري تمامًا.. تعرض المسرح الوطني لوابلٍ من الطلقات، خاصةً حول النوافذ.

نُصبت الحواجز عند مفارق الطرق.. تصاعدت رائحة عفنة من الحاجز المجاور لنادي الضباط، لقد كان هناك أكوامٌ من الجثث المنتفخة ومفتوحة الأفواه.. كل شيءٍ تم نهبه أو تدميره أو غلقه.. فقط سكان بلجراد كانوا سعداء بحمل السلاح.. كانوا يركضون إلينا ليخبرونا عن المبنى الذي يكمن فيه الألمان ويطلقون منه.. بعدها نهاجم المبنى.. تسألني عن الشجاعة التي احتجت إليها لتحرير بلجراد.. عندما تبدأ المدافع الرشاشة بإثارة الغبار من حولك وتمتلئ أذناك بأصوات الانفجارات، تعجز عن التحكم بجسدك.. حتى لو استلقيت على الرصيف سترتجف مثل سمكةٍ خارج الماء.. يصبح الخوف حالة طبيعية للعقل، ومن غير الطبيعي أن تكبته.. هذا غير طبيعي لكن ممكن.. زحفنا إلى النوافذ مع الروس بين المدافع الرشاشة المدوية.. حاولنا سحب الجرحى بعيدًا عن خط النار.. رأيت اثنين من مقاتلي المقاومة وجندي روسي يموتون، بينما يحاولون إنقاذ أحد جرحانا..

دفنت وزارة السكك الحديدية الكثير من الألمان.. إن المنتزه الصغير المواجه لذلك المبنى هو في الواقع مقبرة.. أفكر بذلك كلما مررت به.. إنه مجرد تعليقٍ عابر.. بدأت الحرب تضح أوزارها.. بدأ المحررون يرقصون فرحًا.. فردنا أذرعنا وشبكناها سويًا، فبدونا نحن والروس مثل مجموعةٍ من المصلوبين يشدون بعضهم بعضًا في رقصةٍ دائرية.. انضمت إلى

حلقة راقصة أمام مبنى في نهاية شارع "فرنش ستريت"، لم نشعر بوجود شخص يراقبنا من خلف فوهة مدفع عبر نافذة الطابق الثالث.

استخدم ضابط ألماني بكرة لرفع مدفعٍ خفيف من الفناء الخلفي، وثبته عند النافذة ثم غطاه بالستارة.. أطلق المدفع حمولته وارتد في الغرفة.. تركنا موتانا وجرحانا مستلقين على الرصيف.. ركضنا لنأخذ ساترًا وبدأنا إطلاق النار.. ردوا علينا بسيلٍ من الطلقات الرشاشة من أعلى، فانبطحنا أرضًا.. أخذ ضابطٌ روسي أشقر وقته في تجهيز مدفعه الهاون.. انطلقت قذيفته عبر نافذة الطابق الثالث بسهولةٍ وسلاسة.

فرد "تشيدومير بويوفيتش" ذراعيه بأسلوبٍ مسرحي وقال:

- حدث انفجار!

ثم حرك يديه وكأنه يفرك شيئًا خفيًا وهو يقول:

- ثم حل الصمت!

واصل روايته:

- عندما نظرنا للأعلى رأينا دخانًا يخرج من النافذة.. اجتمع الراقصون الذين تفرقوا وأشاروا إلى نافذة الطابق الثالث.. لاحقًا، صعد إليها بعضنا.. ألقينا جثتين من النافذة إلى الفناء.. دمرت قذيفة الهاون أحد الغرف، لكنَّ الغرفتين الأخرين ظلتا سليمتين.. أخبرت رفاقي أنه من الأفضل قضاء الليلة في هذه الشقة بدلًا من المبيت على الأسرة ذات الأربعة أدوار في صالة كلية الحقوق حيث تتركز، لم تكن الصالة مزودة بنظام تدفئة.. كنا محظوظين لأنها لم تمطر.. بالمناسبة، نحن - محرري بلجراد - ذهبنا

لتناول الفاصوليا وخبز الذرة وسط الفوضى التي عمت مبنى أكاديمية الفنون والعلوم..
أذكر أنهم وضعوا لنا بعض المرطب الألمانية مع أدوات المائدة الخاصة بالجنود، وقد
شعرنا أنها رفاهية بالغة.. وهكذا قررنا قضاء الليلة في شقةٍ محررة في مدينةٍ محررة.
قلت لنفسي إنه يخلق القمص.

شرب "تشيدومير بويوفيتش" الويسكي بتلذذٍ وتنحنحٍ ثم واصل:

- أخبرتك بالفعل أننا كنا على وفاقٍ مع الروس، وأنا أنقذنا جرحى بعضنا البعض..
هذا صحيح.. ومع ذلك... في تلك الليلة حدث ما كاد يكلفني رتبتي وحياتي.. استلقى
العديد منا على أرضية الغرفة الكبيرة مستخدمين سجادة أو بطانية.. راقبت رفاقي
النائم.. شاهدتهم وهم يفكرون.. كانوا شاباً متعيين وبسيطين.. ماذا يمكنك أن تفعل؟
كانوا حمقى لكن طبيين.. في تلك اللحظات سمعت صرخاتٍ من الحمام: "النجدة! لا
تفعل ذلك!".

أسرعت إلى هناك ورأيت الروسي الأشقر يعتدي على فتاة اسمها "ميلويكا".. مزق
قميصها المصنوع من الحرير الطبيعي المعاد تدويره من الحرير المستخدم في إحدى
مظلات الهبوط، ثم شرع في نزع بنطلونها.. كنت شاباً وقتها.. كنت أحد المؤمنين
بالشيوعية ومستعداً لدخول المدن المحررة كالفرسان، لكنني لم أستوعب الموقف الذي
أراه.. بالنسبة لنا نحن اليوغوسلافيين الشيوعيين، كان الروس في غاية العظمة.. هكذا
تعلمنا، أن الروس ليسوا أنانيين، بل كائنات مخلصة من عالمٍ أسمى.. جذبت ذراع
الروسي "كوليا" الذي عرفته جيداً من قبل وقلت:

- مهلاً أيها الرفيق.. نحن نعاشر النساء أيضاً لكن ليس هكذا...

نظر إليّ وهو مخمور وزمجر قائلاً بالروسية:

- اخرج أيها القذر.. أنا حررتك.

اشتعل غضبي المتراكم من سنوات عملي في المقاومة وصحت بغیظ:

- أنت حررتني!؟

حاول الوصول لمسدسه لكنني سبقته وأمسكت بمسدسي الـ"كولت" الأمريكي ووضعتة على رأسه.. جالت خاطرتان بعقلي: "أتمنى أن المسدس لن يتعطل" و"لقد قتلت روسي".

تمكنت من نزع سلاحه ودفعته خارج الشقة.. أحكمت إغلاق الباب وحصنته.. هكذا أمضيت ليلتي الأولى في الشقة التي صارت ملكي لاحقاً.. طلبت تلك الشقة بالذات فأعطتني إياها السلطات.. تعيش زوجتي السابقة "أولجا" هناك الآن.



المستورد



حاولت دومًا أن أفهمه.. كنت أزوره باستمرار في منزله في "نيمار".. عرفت الكثير عن حياته بينما نتناول المشروبات.. وعرفت أكثر عنه من خلال قصص "أولجا".

ولد "تشيدومير يويوفيتش" في قرية "رينيتسا" بالقرب من مدينة "كراليفو".. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت قوات الاحتلال الألمانية تعدم مائة رهينة مدنية عن كل جندي ألماني يتم قتله.. جمع الجنود الألمان الرهائن في المصانع، وأخرجوا الطلاب المصدومين من المدارس.. أخرجوا "تشيدومير" مع زملائه من المرحلة الثانوية أيضًا.. عندما كانوا يقودونه للإعدام وهو مندهش، قال لنفسه: "تبًا لذلك.. فليقتلوني!".

قفز الفتى الذي سيصبح والد "إيرينا" من على أحد المنحدرات بقوة، ثم قفز فوق سورٍ من الشجيرات، وهرب عن طريق الساحات الخلفية.. كان في السابعة عشر عندما ساعده عمه في الانضمام للمقاومة.. وظل كتفه اليمنى مائلاً عن كتفه اليسرى لنهاية حياته بسبب حمل البندقية.. تم أسرهِ في مناوشة ونقلوه إلى بلجراد.. في السجن، ضربوا باطن قدميه وساقيه.. لكن "تشيدومير" لم يستسلم قط.

قال لي: "ليس الكعوب وقصات الساق ما تهم، بل الروح والقلب".

عندما كانوا ينقلون "تشيدومير بويوفيتش" من سجنٍ إلى آخر في بلجراد، سد الشارع دسنة من جنود المقاومة المسلحين.. أخرجوا المساجين من شاحنة الشرطة ووضعوهم في شاحنتهم.. اتخذوا طرقاً مختصرة وداروا في المدينة حتى وصلوا إلى جراج آمن.. ومن خلال اتصالات المقاومة عاد "تشيدومير" مجدداً إلى صفوف المتمردين.. أصبح مفوضاً سياسياً وهو في التاسعة عشر.. هناك صورة من عام 1944 تظهر "تشيدومير" وهو يدخل مدينةً محررة ركباً حصاناً أبيض.

تولى "تشيدومير بويوفيتش" بعد الحرب منصب كبير ضباط المخابرات الحربية في مدينة "كيكيندا".. في الأسبوع الأول من توليه المنصب توفي بطل الحرب الشهير "ميتشان بربانوفيتش تجفان" أثناء خضوعه لعملية في "كيكيندا".. لا تموت الناس من استئصال الزائدة الدودية.. كان البطل بصحةٍ ممتازة، والجراح كان خبيراً.. ساعدت راهبتان في العملية.. تولى "تشيدومير بويوفيتش" القضية.. كان على والد "إيرينا" أن يحذر بشدة، لأن السلطات الشيوعية كانت في بداية إعادة

علاقتها بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية.. سأل نفسه ما العمل.. انتهت سيجارته وحرقت أصابعه بينما يفكر.. دار حول مكتبه تحت المصباح الأصفر.. صاح في الممر في الثانية صباحًا:

- أحضروا الراهبتين!

أحضروا إحدى الراهبتين، كانت خدودها محمرة وعيناها زرقاء اللون.. هز "تشيديمير" رأسه واقترب منها.. ثم بدأ يلكمها بقبضتيه وهو يسألها:

- كيف قتلتموه؟

صرخت المرأة:

- توقف يا سيدي، سأخبرك بكل شيء!

اتضح أن الراهبتين سممتا الضمادات المستخدمة في العملية.. كانتا من كرواتيا وتتعاطفان مع النازيين.. تم إعدامهما فجرًا وانتقل "تشيديمير" إلى بلجراد.. استطاع أن يحصل على الشقة التي حررها من قبل.. في الليلة الأولى التي أمضاها هناك حلم حلمًا غريبًا:

حلم بمكتباتٍ ومقاهٍ حيث يقضي الرجال حياتهم إلى أن يشيخوا بكل راحة.. حلم ببلدةٍ يتمتع فيها الإنسان بمرور الزمن.. حلم بمكانٍ يغيره بتفاصيله حتى يسحره بكيانه.. حلم بمدينة تظل دومًا في أحلام مواطنيها لكنها لا تتأسس في الواقع.. إنها مدينة في ظهرٍ أبدي بلا غروب أو ظلام.. تمشي الملائكة في الشوارع وتطل النساء من النوافذ لتنثر عليهم قصاصات الورق الملون المعبأة في أكياس الوسائد.. استيقظ "تشيديمير" بيويفيتش

- الذي كان مفوضًا سياسيًا منذ وقتٍ قصيرٍ - غارقًا في العرق وقال: "لن أتناول لحم الخنزير والسلطة والجبن على العشاء مجددًا".

بالنسبة لـ"تشيدومير بويوفيتش" كان الثالث من سبتمبر 1984 أهم من قرار تأسيس مكتب الإعلام الشيوعي "كومنفورم" وانفصال "تيتو" عن "ستالين".. في الثالث من سبتمبر تعرض إيمان "تشيدومير" المطلق بالماركسية اللينينية للاختبار.. هكذا سار الأمر: دعا "تشيدومير" ممثلة إلى العشاء.. بعد ذلك قبلها في مدخل بناية.. انسلت يده تحت جيبها فتحسس ثيابًا تحتية حريرية.. ملمس الحرير تحت أصابعه قلص من سلطة تعاليم "ماركس" و"إنجلز".. اكتشافه لتلك القطعة من الملابس النسائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت غيرت رؤية "تشيدومير" للعالم بالكامل.. كانت هذه نقطة التحول الجذرية في حياته.. لم يعد الإنسان نفسه قط.

تخرج "تشيدومير بويوفيتش" في كلية الحقوق عن طريق الدراسة بالمراسلة.. ثم بدأ يعمل في واحدة من أوائل شركات الاستيراد والتصدير في يوغوسلافيا، وسأطلق عليها في القصة اسم "مانيكس إكسبورت".. ظن صديقي "بوريس" أن عمل والد "إيرينا" في الاستيراد والتصدير ما هو إلا واجهة.. غمز وقال لي: "عندما يصبح المرء شرطياً، سيظل هكذا دومًا".

يجب الاعتراف أن أحاديث "تشيدومير بويوفيتش" عن التجارة الأجنبية كانت شيقة.

قال متنهّدًا: "جميعهم حمقى.. ثلاثة أشخاص منهم لا يساوون فردًا واحدًا جيدًا.. لكن لا تظن أن من يعمل لدى شركائنا الأجانب هم أنصاف

آلهة.. مستحيل! بل هم أغبياء مثل من هنا! ثلاثة أشخاص فقط من يقومون بالعمل الفعلي هناك.. الفارق الوحيد هو أن بعضهم يتجرأ على أن يصبح ماهراً.. هذا مسموحٌ به هناك...".

ترك "تشيدومير بويوفيتش" انطباعاً جيداً في الخارج لأنه لم يكن متزمتاً.. عرف كيف يصبح ساحراً عندما يتطلب العمل ذلك.. أعجبه رحلات العمل إلى إيطاليا.. كان ينجز العمل في خمسة أيام لكنه يبقى خمسة عشر يوماً.. يسألونه في يوغوسلافيا ماذا يستورد.. فيجيب مبتسماً: "أستورد سلعاً عادية.. لكني أفضل استيراد بعض السحر، فنحن نحتاج إلى الكثير منه".

استخدم أصدقاء "تشيدومير" شقته الكبيرة في حي "دورتشول" من أجل نزواتهم الغرامية.. تمتع الكثير منهم هناك! ستشعرون بالصدمة لو أخبرتكم بقائمة أسمائهم. يضحك "تشيدومير" برفقة أصدقائه من عاشقي النساء العابثين ويقول: "أقول للنساء إنني أحبهن.. هذا يساعد على تلطيف الجو دائماً".

سافر "تشيدومير" ذات عامٍ إلى مدينة "دوبروفنيك" الكرواتية للاعتناء بصحته، ثم عاد مع شابةٍ تدعوه بحب "يا عيوني الزرقاء".. سرعان ما استطاعت زوجته الشابة طرد الفاشلين الذين يستخدمون شقة "دورتشول".. من منظورها، طرقت "أولجا" الأبواب ودخلت لترى العاهرات يدرن حول "تشيدومير"، فسألتهن "هل أنتن "ليلا" و"سانيا" و"مايا"؟".. أجبن بنعم.. بدون كلمةٍ إضافية، سحبت "أولجا" مسدس "لوجر" ألماني وأطلقت النار على وجوههن المغربية وبطنوهن المثيرة.. هكذا سار الأمر في

خيالها، أمّا في الواقع طردت كل النساء من شقتها، وحولت "تشيدومير" إلى خادم يسافر ليشتري لها كل ما هو جميل ومفيد.. ساهمت "أولجا" بشراء المصابيح القديمة والتحف من سوق "بايلوني".

انهار السرير تحت "تشيدومير" و"أولجا" في العام الأول من زواجهما.. أحضرنا النجار لإصلاحه وطلبنا منه تزويده بقائمة خامسة في الوسط.. كان "تشيدومير" سعيداً في زواجه.. لكن عمله في "مانيكس إكسبورت" سبب له الكثير من الصداق.. لم يكن سهلاً إدارة الموظفين في الشركة.. اعتبر كلّ منهم أن الاجتماع يكون فاشلاً إذا لم يطيلوا في الحديث لمدة نصف ساعة.. أما سكرتيرته فكانت فاسقة تنام مع كل الرجال العاملين في كل المكاتب المجاورة.. مرؤوسوه كانوا مملين.. يتفاخر أحدهم في الاجتماعات بأنه يأكل لحم خنزير مشويّاً على الفطار، بينما آخر يعبر عن ندمه لأنه لا يفعل.. كتبوا مذكراتٍ مجهولة التوقيع.. طلب صديق "تشيدومير" العزيز منه أن يأتي إلى مجلس الحزب الشيوعي بالمدينة ليريه بعض المذكرات الرسمية.. ادعى موظفوه أن الرئيس "تشيدومير بويوفيتش" يتصرف كما لو كان مخترع سيارات "مرسيدس" وويسكي "جون ووكر" وطبق كبد الإوز الألماني.. أكدت المذكرات المجهولة أنه لا يفرق بين فكر الحزب ومكاسبه الشخصية.. كتب أحد الموظفين المجهولين في مذكرته بخبث: "وأى فكرٍ قد يعلو على المكاسب الشخصية؟!.. في النهاية ادعت المذكرات المجهولة أن "تشيدومير بويوفيتش" اختلس مالا من فرع الشركة الإيطالي المسجل باسمه.

سأل "تشيدومير" بصوتٍ أجش:

- هل تصدقون ذلك؟

قال صديقه العزيز من المجلس:

- لو صدقناه لما أريناك إياه.

عاد "تشيدومير" إلى الشركة وطلب عقد اجتماعٍ عاجل.

افتتح الاجتماع بهذه الكلمات: "أيها الرفاق، لقد لاحظنا بعض الأفعال.. هناك بعض العناصر بيننا تعمل ضد مصلحة شركتنا.. ماذا نسمي هذه العناصر، أيها الرفاق؟".

رفع سبابته مهددًا.. نظر إليه عشرون رجلًا وامرأةً بغباءٍ ودهشة.. لوح "تشيدومير" بسبابته بانتصار، وزمجر كالأسد قائلًا: "نسميهم محرزين!".

أيًا كان من يحدثه "تشيدومير بويوفيتش" في ذلك اليوم؛ فلقد بدأ يتلعثم.. نتيجة الاجتماع كانت استدعاء مندوب فرع روما.. أحد الموظفين تم طرده.. بعض رؤساء الأقسام المستقلة تم نقلهم إلى وظائفٍ وضيعة.. حاولوا التآمر ضده.

قال "تشيدومير" بابتسامةٍ بسيطة: "دعهم يتآمرون.. الشيء الوحيد الذي يمكنهم خسارته هو قيودهم".

ظل "تشيدومير بويوفيتش" رئيسًا لشركة "مانيكس إكسبورت".. ظل يستورد ويستورد.. استورد غيومًا فضية اللون من إقليم "نيو إنجلند".. واستورد فجرًا صافيًا من اليابان.. واستورد أمطارًا من كاليفورنيا

الجنوبية.. كما استورد غروبًا أحمر من ولاية جوا الهندية.. بفضلها حصلنا على كل هذا في بلجراد.

كان الرئيس "بويوفيتش" يذهب أحيانًا إلى "كالييميجدان" ليلعب الشطرنج مع أفراد المقاومة السابقين من منطقة "كوردون" الكرواتية، إن أنوفهم تشبه المناقير ويتحدثون دومًا عن فرقهم العسكرية بإحباط.. يجلسون معًا ويهينون السياسيين اللصوص بصوتٍ عالٍ.

عندما عزز "تشيدومير بويوفيتش" منصبه في شركة "مانيكس إكسبورت"، بدأت مشاجراته الضارية مع "أولجا".

في الماضي كان رفاقه يسألونه: "ما الذي أحرّك؟" كان يهز كتفيه ويقول: "كنت أضاجع زوجتي".

لكن حين قل الانجذاب الحسي بين "أولجا" و"تشيدومير" بعد عشر سنواتٍ من الزواج، بدأت المشكلات، وكأنهما يريان بعضهما للمرة الأولى.. زعمت "أولجا" أن "تشيدومير" يشخر عمدًا عندما ينام معها، ولا يشخر عندما ينام في الغرفة الأخرى، مثلما فعل والد "بوريس"، بدأ "تشيدومير" يطفئ الأنوار توفيرًا للكهرباء.. وحدث أنه أطفأ النور بينما "أولجا" في الحمام.

صرخت قائلة:

- أشعله أيها الأحمق!

تمتم "تشيدومير" من خلف الباب قائلاً:

- آسف، ظننت...

أحبت "أولجا" الذهاب للسينما، والبكاء في أثناء مشاهدة الفيلم، فقال لها "تشيدومير":

- اهدي، فهم مجرد ممثلين.. إنهم يتلقون مبلغًا كبيرًا لقاء هذا.

انزعجت "أولجا" وردت عليه:

- أيها الخنزير، أنت تفسد كل ما أحب.

لدى "أولجا" و"تشيدومير" خللٌ في جينة "عامل البندر أو الريسس" في الدم.. أدى هذا إلى وفاة طفلهما الأول.. حاولا مجددًا، لكن ولدَ الطفل الثاني ميتًا برغم كل الجهود لإنقاذ حملها.. عاشت "أولجا" مع شبحي طفليها.. في خيالها، كانت روحا طفليهما مثل طائري سنونو معششين في غرفتها.. تحول زواج الأبوين البائسين إلى صحراء جرداء.. لم يعد لدى الزوج والزوجة ما يقولانه لبعضهما.

عندما وقعت "أولجا" في غرام والدي "أندريه"، وقَّع "تشيدومير" أوراق الطلاق وغادر شقتها.. بعد ذلك مباشرةً تزوج بالمرأة التي أصبحت والدته "إيرينا".. اسم حمالة "تشيدومير" قبل الزواج هو "تالفي"، وتم بناء منزلها في "نيمار" بأرباح مائة حمولة من البناتيل من شركة "تالفي" و"مانديلوفيتش".. سمعت الكثير من القصص عن حياة "تشيدومير" بينما أجلس في بلكون ذلك المنزل.. كان هذا الحي مقدسًا نوعًا ما، لأن "مولي" باشا أحرق رفات القديس "سافا" بالقرب من هنا عام 1521.. وفقًا للرواية، حملت الرياح الرماد نحو مجموعة من المتسولين فاستعاد عشرة عميان البصر...

في ذلك الحي المقدس، في المنزل المحاط بنباتات اللبلاب المتسلق، أنجب "تشيدومير" ابنته "إيرينا" .. لم تهدئ ولادة ابنته من روحه المضطربة لسوء الحظ.. أمضى المزيد من وقته في اجتماعات ورحلات العمل.. أصيب "تشيدومير بويوفيتش" في أثناء تلك الرحلات بنوبات جوعٍ ضارٍ.. كانت شهيته الكبيرة تليق بشخصٍ من أثيوبيا أو السودان وليس رئيسًا بديئًا لشركةٍ أجنبية.. عندما يجوع "تشيدومير بويوفيتش" يبدأ بالهسهسة كالثعبان.. فيحني سائقه رأسه بين كتفيه ويهمس: "أمنى لو أستطيع سد جوعه...".

عندها يتوقف سائق "تشيدومير" فجأة أمام أول مطعمٍ يصادفه ويفتح باب السيارة الخلفي مضطربًا.. يخرج "تشيدومير" مسرعًا، ويسير الأمر كما لو كان فيلماً صامتًا وستظهر جملة "لقد أطلق عنان الوحش" على الشاشة.. يطلب "تشيدومير" كمًّا مهولًا من الطعام.. يحيط طعامه بمرفقيه ويملاً فمه بالطعام وهو يتمتم كلمات الكاتب اليوغوسلافي "برانكو تشوبيتش": "أنا أكل من أجل والدي وجددي وكل أقاربي الجوعى...".

ومثل الكاتب العظيم، لم يكتفِ "تشيدومير" بالأكل فقط بل شرب أيضًا.. ظل يشرب دون أن يشعر بالذنب حتى قرأ كلمات الشاعر الكرواتي "تين أوفيتش":

"لم أكن حيًّا طوال هذه السنين

تخدر كياني بأكمله

وابتعدت عن الحياة

فنمت في الشارع كالمشردين".

بعدها قرأ الأبيات المحذرة، ذهب "تشيدومير" ليشتكي إلى صديقه الطبيب النفسي الذي سمعه مبتسمًا.. ثم قال بجديّة:

- لا يمكنني مساعدتك.. أنت مدمن كحول.

زفر "تشيدومير" وقال:

- حسنًا، قدم لي خمراً إذًا.

صب الطبيب خمراً لكليهما وقال:

- خطؤنا هو أننا نتعامل مع مدمني الكحول وكأنهم مرضى، نحن نحاول فهم ظروف حياتهم وما إلى ذلك، بدلاً من ذلك علينا أن نقول لهم: "أنت أحمق وحقير.. أنت مغفل.. توقف عن إفساد حياتك وحياة من حولك".. هكذا يجب أن نخبرهم..
نخب صحتك...

كان "تشيدومير" شاردًا في كأسه فتردد ثم استجمع قوته وقال:

- في صحتك...

ثم شرب كأسه دفعةً واحدةً.

كم أتوق لأن ينطفئ لهيب قلبي بنسمات قلبك



تخصصت والدتي: "ميلينا" في أمراض الأطفال، وعملت في مؤسسة الأم والطفل في "زيمون" .. أمّا "دافينا" والدة "إيرينا" فربة منزل.. نظرت "دافينا" إلى أمي باحتقار وكأنها برجوازية متسلقة اجتماعيًا.. لم تحب "دافينا" قط الجلوس والخياطة بهدوء في شقة أمي.. أحب "تشيدومير" "ميلينا" لأنها كانت من "كرالييفو"، ولأنه تنهد برضا حول مائدة العشاء الخاصة بها.. استغرق "تشيدومير" و"ميلينا" في ذكرياتهما عن أشجار الصفصاف على ضفاف نهر "إيبار"، وعن أفضل كريمة جبن في العالم.. أحيانًا يشرب والد "إيرينا" كأسًا من الـ"براندي"، بينما يبكي متذكرًا إعدام طلاب الثانوية في "كرالييفو".

ذات ظهيرة في يوليو 1990، أي بعد وفاة "تيتو" بعشرة أعوام، زارنا والدا "إيرينا" في شقة أمي الصغيرة المجاورة لكلية الحقوق.. تم تقديم "براندي" المشمش.. أصبح والد "إيرينا" حيويًا.. ضحكت أمي مثل الممثلات، أمًا والدة "إيرينا" فزمت شفيتها.. بقيت برفقة "إيرينا" في المطبخ شديد الحرارة ذي الستائر المسدلة.. وضعت "إيرينا" أكواب الكوبالت على صينية.

قالت:

- افتح علبةً من بسكويت "جافا" من فضلك.

رفضت مساعدتها؛ فلقد كنت أتسكع في المطبخ لأعانقها من الخلف.

ضحكت "إيرينا" قائلةً:

- توقف.. اخرج إن كنت لن تساعدني.

وضعت "إيرينا" قليلًا من الرغوة بمعلقةٍ صغيرة في كل كوب.. رتبت البسكويت والملاعق في الصينية.. أصدرت أكواب الكوبالت رنينًا عندما تلامست.. ثم حملت "إيرينا" الصينية إلى غرفة المعيشة.. والآن سأخبركم ما تقف لإخباركم إياه.. ارتدت "إيرينا" فستانًا صيفيًا مبهجًا.. تخيلت منحنيات ثيابها الداخلية تحت الفستان.. سرت خلفها مباشرةً بينما تحمل الصينية إلى غرفة المعيشة.. في الممر، أحطت خصرها بذراعي وأمسكتها من بين ساقها.. اهتزت أكواب الكوبالت على الصينية.

قالت "إيرينا" بدهشة:

- هل أنت مجنون؟

أثرت بي نبرة صوتها.. لم يكن رفضها حقيقياً.. جلس آباؤنا مندمجين في الحديث في غرفة المعيشة، ولا يفصلنا عنهم إلا بابٌ زجاجي ضبابي.

صاح والد "إيرينا" بلا مبالاة:

- ما الذي تفعلانه هناك؟ أين القهوة؟

كانت "إيرينا" تحمل الصينية بيديها.. في البداية لم أكن جاداً حين التصقت بها من الخلف في الممر المظلم.. حاولت إنزال ملابسها الداخلية، واندهشت عندما سقطت بسهولة حول ركبتها.

همست متسائلة بنبرةٍ تحمل شغفاً أكثر من احترامٍ للأشخاص الجالسين خلف الباب الزجاجي:

- ما الأمر؟

فتحت بنطلوني ودفعت عضوي المثار بين فخذيها.. وجدت "إيرينا" مستعدة تماماً فغزوتها.

قلت لنفسي إنني مجنون.

همست "إيرينا" مرددةً أفكاري:

- أنت مجنون.

كانت "إيرينا" لا تزال تحمل الصينية، بينما فستانها مرفوع وملابسها الداخلية حول ركبتها.. بدأت أجذبها نحوي ببطءٍ وأتحرك نحوها ملامساً مؤخرتها المرنة.. رنت الأكواب التي على الصينية.. في الغرفة المعيشة التي

يفصلنا عنها بابٌ زجاجي، جلس أباًؤنا مندمجين في حديثٍ مفاده أن الصرب هم أقدم أمةٍ في العالم وأن الأبجدية السيريلية أجمل من الأبجدية الرومانية.. ثم بدأ والد "إيرينا" يتحدث في موضوعٍ شيق:

- بعد الحرب كنت ضابطاً شاباً أذهب عادةً إلى "بانتشيفكو".. كان هناك الكثير من الأيتام من "كوردون".. هناك فتيات مراهقات يقعن في الحب بسهولة، لكننا الضباط لم نهتم بالأمر كثيراً.

قلت لنفسي إني لا أصدق ذلك.. ما زلت أجدب "إيرينا" بينما تحمل الصينية.. كانت مطيعة ومليئة بالمنحنيات ورائحة.. ظلت الأكواب ترن بينما أتحرك ملامساً مؤخرتها الممتلئة.. رفعت "إيرينا" فخذيتها وأدارت رأسها بولع.. يسمي المزارعون هذا بـ"الاندفاع".. كان مثل الحلم. كانت كالحلم.

واصل والد "إيرينا" كلامه باستمتاعٍ في غرفة المعيشة:

- كنا نرقص في المساء.. جاءت المراهقات الأيتام للرقص مرتديات بلوزاتٍ بيضاء وجيباتٍ قطنية منقوشة.. كانت الأجواء عبارة عن مزيج من الفقر والاحتفال.. بدأت الموسيقى فبدأنا نرقص ببطء.. وفجأة انهارت إحدى الفتيات على الأرض وأدارت رقبتها وبينما ترفس برجليها وهي تصيح "طائرات! طائرات!.." فجأة أصيبت اثنتا عشرة مراهقة بالهستيريا، وانهرن على الأرض وهم يرفسن ويصحن بصرع "طائرات!، أو يهذين بكلامٍ عن منظمة الـ"أوستاشي" الإرهابية الثورية من كرواتيا.. وسط قاعة الرقص الصامتة.. كانت المراهقات ذوات البلوزات البيضاء يتقلبن على الأرض كالسمك.

مسح "تشيدومير" دمعة انزلقت من عينه وهو شبه ثمل وقال:

- هذه هي الصدمة النفسية يا أصدقائي.. قامت السلطات اليوغوسلافية الاشتراكية برشوة الناس لينسوا هذه الأمور.. والآن صُرفت النقود وانتهت الاشتراكية فعادت الصدمات النفسية من غياهب النسيان.

استمتعت بانزلاق عضوي النابض داخل "إيرينا" .. ما زلت أجذبها نحوي وأتحرك نحو مؤخرتها الممتلئة.

قلت لنفسي: "أنا أمارس الحب معها حقًا!".

قالت لنفسها: "إنه يمارس الحب معي حقًا!".

أشعلت رغبة "إيرينا" رغبتني.. أفضل ممارسة حبٍ في الألفية تحدث في بلجراد مع وجود آبائنا تقريبًا، في شقةٍ صغيرة بجوار كلية الحقوق.. بماذا يمكنني مقارنة هذه التجربة؟ أولاً تتحرك الشفاه وكأنها تدعو، ثم يشعر المرء بهيبة.. بعد الحركات الحسية تأتي موجة عظيمة من المتعة الفائقة تغمرنا أنا و"إيرينا"، تأتي من الكون ومن النعيم ومن الأرض ومن كل مكان.. لا بدُّ أن هذا ما شعر به "آدم" و"حواء" قبل نفيهما من الجنة.

قالت والدة "إيرينا" بكآبة للمرة الأولى هذه الظهيرة:

- الصدمة النفسية أمرٌ فظيع.. في "نيمار"، كان لدينا جارٌ اسمه "نوفيتسا" وكان يعمل سباً.. كلما تعطل شيءٌ في منزلنا كان يصلحه ويطلب الفول السوداني مقابل خدماته.. كان أهدأ وأفضل رجلٍ في العالم.. إنه يتيمٌ صربي نجا من مذابح منظمة الـ"أوستاشي" في منطقة "بانيا" الكرواتية...

بينما كانت "دافينا" تتحدث في الغرفة المجاورة، كانت أكواب الكوبالت تهتز وترن على الصينية التي تتشبث بها "إيرينا" بصعوبة.. لم تعد تتظاهر.. كانت تحرك رأسها بقوة وتكبح انفعالها.. التهمت عنقها بشفتي، بينما أمسك صدرها بإحدى يدي وأتشبت بفخذها باليد الأخرى.. رنت الأكواب.. وها هي موجة النشوة مقبلة.

واصلت والدة "إيرينا" بصوتٍ مبحوح:

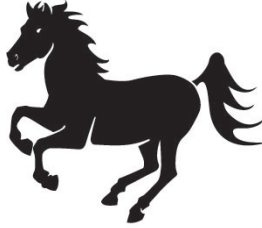
- خلال الاشتراكية، كانت ذكريات "نوفيتسا" مكبوتة.. لكنها عادت عندما بدأت حملة البغض التليفزيونية وعندما بدؤوا يستخرجون عظام الضحايا الصرب من الحرب العالمية الثانية.. عندها دخل الحمام وشنق نفسه.

جلس "تشيدومير" في غرفة المعيشة مع سيدتين متعاطفتين، فمسح دمعته التي انحدرت عندما أدرك أن الصدمات النفسية للحرب العالمية الثانية في يوغوسلافيا قد عادت من غياهب النسيان.

اندفعت داخلها بكل قوتي، فانحنت "إيرينا" بعنفٍ إلى الخلف.. يا لها من شهوانية! جن جنوني.. شعور الشهوة اللذيذ الذي حام حولي تمركز الآن في حوضي وفي جسد "إيرينا" بأكمله واجتاحنا تمامًا.. غمرتنا موجة اللذة والنشوة.. نعم، غمرتنا تلك الموجة تمامًا! جذبت ذراع "إيرينا" بيدي اليسرى، ودفعت أصابع يدي اليمنى بين ساقها.

أخيرًا سقطت منها الصينية ورنت كالجرس.. تناثرت القهوة، وتحطمت أكواب الكوبالت الثمينة إلى فتات.. طارت الشظايا الصغيرة كالبراغيث إلى أطراف الممر.

حكاية فارس



كيف يمكنني الكتابة عن حياة مفككة إلا عن طريق فقراتٍ مفككة؟!

في طفولتي، تأثرت كثيراً بحكاية فارس.. لا أتذكر اسمه، أو لماذا أرادوا تمزيق جسده.. هل أقول إن القصة أثارت خيالي عندما قرأت فقرة "صدق أو لا تصدق" بقلم "ريبلاي" في جريدة "بوليتيكن تجابافنيك" الأسبوعية للأطفال؟ كان الفارس مستلقياً وسط ساحة المدينة، ربما تكون مدينة "آخن" الألمانية أو "قرقشونة" الفرنسية.. قيدوا ذراعيه وساقيه بشدةٍ بالحبال ثم ربطوها بأربعة خيولٍ سوداء قوية.. كانت الكلاب الشاردة تفتح أفواهها بجوعٍ في الساحة.. ضرب الجلادون الأحصنة بالسياط؛ لكي تشد أطرافه وتمزقها.. لكن لم يحدث.

كان الفارس ذا قوةٍ غير عادية.. عندما شُدت الحبال بقوةٍ ورفعته عن الأرض، قبض ذراعيه وساقيه ومركز جسده، بطنه.. بدأت الخيول

السوداء تنزلق على الأرض الحصوية المبتلة.. نجح الرجل المربوط بقوته الجسدية في سحب الخيول للخلف.. اندهشت الحشود.. فكر الجلادون والقضاة ماذا يفعلون.. تأمل الفارس السماء، بينما ينتظر قرارهم.

سحب رئيس الجلادين قلنسوته على رأسه وأشار لهم بالاستمرار في تنفيذ الإعدام.. ضربوا الخيول السوداء مجددًا.. رفعت الحبال المشدودة الفارس عن الأرض، فقبض عضلاته كلها بشدة.. جذب ذراعيه وساقيه نحو بطنه بينما يصرخ من أعماق كيانه.. تراجعت الخيول ثانية.. شهق الحشد من الذهول.. لم يحدث مثل هذا الموقف من قبل قط.. انسحب القضاة ليفكروا في الأمر قليلاً، ثم قرروا الاستمرار في المحاكمة. دوى صوت السياط وارتجفت مؤخرات الخيول.. جاهد كل حصان ليجذب أحد أطراف الفارس.. تصلبت عضلات الفارس من فرط الجهد.. انحنت مفاصله.. سهلت الخيول بعصبية.. رفست حوافرهم وهي مكانها.. شهقة الحشد الثالثة كانت أشد من سابقتها.. صاح الجلادون والقضاة: "إنها معجزة!".. بعد ثلاث محاولات لإعدامه، قرر القضاة العفو عن حياة الفارس.

أنا هو ذلك الفارس.

أجزاءً مختلفة من حياتي، ومن عقلي، ومن رغباتي، ومن ملاحظاتي وتجاربي العديدة تنازعت بداخلي لتحطمني.. كل جزءٍ من حياتي يشبه أحد الخيول.. أقاوم وأسحبها إليّ.. أحاول الحفاظ على كياني على أمل أن تبقي على حياتي بفضل جهود المستميتة.. هذا الكتاب هو الجهد الذي أتحدث عنه.

"يقول العميان إن العيون مزعجة"

(إنه مثل من الكاميرون)

رجلٌ أعمى



في العقد الأخير من الألفية، وبالضبط في عام 1991، انقسم العالم لا محالة إلى أجزاء.. أخبرتنا "زورا" كيف مر بجانبها في الشارع مسن أعمى يضرب بعصاه البيضاء الأرض بغضب.. تساءلت بصوتٍ عالٍ إن تحولت بلجراد إلى مدينة يسرع فيها العميان. رمقها "بوريس" بنظرةٍ غاضبة.

نبوءات العرافة الإغريقية:

كان العام 1991.

كان العام 7486 بالتقويم القبطي.

كان العام 1369 هجريًا.

كان العام الذي يلي الثورة الفرنسية بـ202 سنة.

كان عام العنزة بالتقويم الصيني.

إنه العام الذي انهارت فيه يوغوسلافيا.. كان حاكم المدينة هو "تاركوينيوس" الملقب بالفخور، رفض تصديق نبوءات العرافة فأحرقت الجميع.. في المجتمع الذي عشت فيه، وضع "تاركوينيوس الفخور" قواعد الحكم بناءً على الفساد المختلط بالخداع غير المبرر.

كلما كان المرء شريراً خادعاً، كان مفضلاً في بلاط "تاركوينيوس الفخور".. يقولون عن شخصٍ ما إنه ذكي.. فكلما كان المرء متهوراً مجنوناً، كان مقدراً أكثر.. يقولون عن شخصٍ ما إنه مغامر.. فكلما كان المرء أحمق بدائياً، كان مقدراً أكثر.. يقولون عن شخصٍ ما إنه جديرٌ بالثقة؛ ففي بداية التسعينيات كان الأذكاء والمغامرون والموثوقون يعيشون في بلاط "تاركوينيوس الفخور".

هكذا حكم "تاركوينيوس الفخور".. بدأ يتحدث عن أهمية منفذة السجائر، ثم حطمها وأخذ يتكلم عن الفائدة الفائقة للكرسي، ثم حكم الكرسي، وبدأ يتحدث عن أهمية الثياب في حياة الإنسان، ثم مزق الثياب

وراح يتكلم عن الأهمية المطلقة للسجاد.. ثم.... ثم لا شيء.. أحب الناس السجاد بعدما نسوا منفضة السجائر والكرسي والثياب.. كان سهلاً على "تاركوينيوس الفخور" أن يحكم الناس الذين أغمّتهم الألفية وتركتهم بلا ذكريات.

الدبابات

في التاسع من مارس 1991 في بلجراد، بدت قوات الشرطة المسلحة مثل صفٍ أسود من الغيلان خلف دروعهم الشفافة.. أمطرهم الغوغاء بوابلٍ من الحصى.. وكرمزٍ لهذا اليوم، وقفت امرأة بشجاعة أمام خراطيم الحريق.. شعرت بالخوف من الأماكن الضيقة واختنقت من الغاز المسيل للدموع في ذلك اليوم.. قالت لي "إيرينا" لاهثة:

- "جلسنا أنا و"زورا" وطلبنا بعض الصودا، ثم فجأة دخلت الدبابات ميدان "تراجييه".

اهتزت الأساسات وارتجفت بلجراد بسبب دخول الدبابات.

تم وضع المتاريس في كل مدن يوغوسلافيا وتم هدمها أيضاً.. انتشرت الشرور.. ازدادت الأمور سوءاً وخزياً.. قُتل أول رجل في مباراة كرة قدم.. لا أذكر ترتيب الوفيات بعد ذلك.

ذات يومٍ سمعت في التلفزيون بياناً يقول: "أعزائي المشاهدين، تمر يوغوسلافيا بأسوأ فترةٍ منذ الحرب العالمية الثانية".. والناس في الشارع يهمسون "خيانة!".. حث الراديو الناس على الانتقال.. سمم الإعلام عقول الناس مثل غاز الأعصاب.. تم إذاعة العديد من الأخبار العاجلة والمنتظمة

طوال الوقت.. أكد التلفزيون أن الجيش النمساوي قاتل جنباً إلى جنب مع وحدات الجيش الإقليمية السلوفينية.. زعم الإعلام السلوفيني أن الجيش اليوغوسلافي يرتكب أعمالاً وحشية في سلوفينيا.. النساء اللاتي لا يعرفن مكان أولادهن اقتحمن قاعة الاجتماعات العامة، وأذاع التلفزيون بكاءهم وغضبهم.

وسار الحال على هذا المنوال...

مديح الحماسة

بالنسبة لسب الحرب في يوغوسلافيا، فجوابي الجاهز هو أن كل عائلة يوغوسلافية كان لديها فاشي عنيف في غرفة معيشتهم.. إنه التلفزيون.

استمع مواطنو يوغوسلافيا عبر التلفزيون إلى الحماسة التي تدعوهم للحرب.. عندها ضحكوا وهللوا.. أشرفت وجوه الناس من الفرحة الغامرة.. استقامت الحواجب العابسة.. حامت الوجوه الابتسامات على وجوه الناس الذين كانوا يائسين مؤخراً.. علمنا الفيلسوف الهولندي "دسيديروس إراسموس" أنه لا يكمن مجدٌ عظيم في الحرب، أمّا شجاعة من يشعلونها فتتناسب عكسياً مع عقولهم.. قال "إراسموس" مكرراً إن لعبة الحرب المجيدة يلعبها متطفلون ولصوص وقتلة مغفلون وقوادون ومخمورون وكل الحثالة من البشر، أمّا القوة التي تستدعي الحرب؛ فلقد أسماها حماسة، وأوضح أن ما يساعد عليها هما الجهل والثمالة.. لكن هنا والآن، تتظاهر هذه القوة بأنها روح الشباب، وتؤكد أن تصبغ كل شيءٍ بصبغةٍ جديدة كما يفعل الربيع.

الروح

في البيئة التي عشت بها أصبح الحب أكثر خزيًا من الكره.. وكل هؤلاء الثنارين كانوا محقين، فلديهم الأسباب التي تدعم كراهيتهم "الطبيعية".. بينما حبي "الصناعي" - كما وصفه صديقي الكاتب الكرواتي - لا يملك ما يسانده مطلقًا.. بشكلٍ عام، الروح شريفة.. في فيلم "بعد منتصف الليل"، قال عازفُ أسود اللون: "السمكة في المحيط، والطفل في رحم أمه، أمّا الروح فلا مكان لها".. لا مكان لها حقًا.

أصوات

رأيت كابوسًا مزعجًا.. أخبرني فيه والداي: "ابننا العزيز، كن حقيرًا!".
وقال لي المدرسون في مدرستي الأولى: "بصفتي ممثلًا عن الصفوة الفكرية، أخبرك أن تكون حقيرًا!".

وقال لي مبعوثو الجيش والشرطة: "أيها الوطني المحترم، كن حقيرًا!".

عانقتني حبيبتي "إيرينا" وهمست في أذني: "حبيبي، كن حقيرًا!".

مزقت ثياب نومي قبل أن أختنق.

مسرحية "ميديا".

شاهدت مسرحية "ميديا" على التلفزيون.

قالت الممرضة:

- الحياة أفضل من الموت.

ردت "ميديا":

- ليس الآن!

الديوك

في العقد الأخير من الألفية، انشقت الأرض من تحتنا وعدنا إلى خمسين سنة مضت، إلى زمن يهود الحرب العالمية الثانية.. قرأت أن قرية كاملة في دولة الجبل الأسود ابتلعها زلزال كارثي.. لمدة يومين بعد ذلك ظل صياح الديوك يدوي من تحت الأرض.. تذكرني هذه الديوك التي تصيح من تحت الأرض بنا.

العيون

في محاولة لشرح ما حدث لنا، سأخبركم بقصة خرافية تشيكية يوضح جوها الدموي الظروف التي عشت فيها.. قامت جنيات الغابة "إيزينكاس" باقتلاع عيني راع عجوز.. خدع أحد الصبية الجنيات وربطهم ليجبرهم على إعادة بصر الرجل العجوز (ليس مصادفة أن رجلاً عجوزاً يفقد بصره ويعيده إليه صبي).. أخذت الجنيات إلى كهفهم وأروه كومة من العيون في الركن.. اختار الصبي عينين ووضعهما في محجري العجوز.. لكن العجوز بكى قائلاً: "هاتان ليستا عيني، لا أرى سوى البوم" .. عرض عليه الصبي زوجاً آخر من العيون من الكومة، واشتكى العجوز قائلاً: "هاتان ليستا عيني أيضاً، لا أرى سوى الذئب".

قبل أن أختتم الحكاية، عليّ أن أتوقف وأهمس بضع كلماتٍ للدفاع عنا.. لو اسم الناس في هذا الجزء من البلقان - خاصةً الذي أنتمي إليه - أصبح مرادفًا لكلمة قتلة، لا تنس أنهم كانوا بلا عيون في عالمٍ دون قانون أو سند يدعمهم.. وفي ظلامهم هذا، أخذوا عيون شخصٍ آخر.. بزواجٍ من العيون رأوا المؤامرات فقط، وبالزواج الآخر رأوا القتلة فقط.. أدعو الله أن يمنحنا فرصةً أخيرةً لنختار مجددًا من هذه الكومة المريعة، وليساعدنا على إيجاد عيونٍ حقيقية ترينا منظورًا آخر كي نرتاح مثلما حدث مع بطل الحكاية في النهاية عندما وجد زوجًا وقال: "هاتان عيناى.. حمدًا لله، الآن يمكنني الرؤية جيدًا مجددًا".



حكاية آكل لحوم البشر



ما زال العد التنازلي للألفية مستمراً.. مع كل لحظةٍ ننحدر أكثر.. المرحلة الأولى من انحدارنا كانت الحرب في سلوفينيا.. المرحلة الثانية من تدهورنا كانت الحرب في كرواتيا.

تمتم "باين":

- يا لغرابة الحياة.

كنا نشرب "براندي" المشمش عند "ميلينكو" صديق "بوريس" في "سورتشين" .. كنا جالسين في فناءٍ أسمنتي لمنزلٍ ريفي في صيف 1991.. تفوح زريبة الخنازير برائحةٍ مقرفة.. كان الراديو يذيع أوبرا.. سمعنا صوت الشخص الذي يلعب دور "ألفريدو" في أوبرا "لا ترافياتا"، كان يغني عن

الحب الغامض والقوي الذي يُعتبر قلب الكون النابض.. تأملت "زورا" بشروءٍ في انعكاس الشمس البرتقالي الشاحب على الأسمت.. استمتعت بالغروب، وشربت "براندي" المشمش، وتبادلت النظرات مع "إيرينا".

قالت "إيرينا":

- إنها لحظةٌ مجيدة.. لدينا رائحةٌ قذرةٌ وأوبرا وزربيةٌ خنازير!

قلت بفخر:

- يا لها من حياة!

أفاقت "زورا" من شرودها وقالت فجأة:

- رأيت أكل لحوم بشرٍ بالأمس في سوق "كالينيتش".

- أي أكل لحوم بشر؟

- كانت امرأةٌ ترتدي ثوبًا عليه زهور كبيرة، اشترت خنزيرًا صغيرًا بثمنٍ بخس..

أمسكوا بالخنزير أثناء الحرب في سلوفينيا، حيث تناثرت الجثث في حقول الذرة ولوثتها.. أكل الخنزير الجثث التي هناك.. أكل الأكراد والزنوج.. هاها.. ضحكت آكلة

لحوم البشر وقالت: "لقد أصبح سمينًا.. إنه وقت العشاء!".. فقال لها الرجل العجوز:

"اخرجي من هنا يا امرأة، لقد سئمت منك".

واصلت "زورا":

- لم ترد أكلة لحوم البشر.. ظلت هادئة بشفتيها الكبيرة وصدورها الضخم.. ضحكت وانعكس الضوء على سننها الذهبي.. الآن جاء دورها لتأكل الخنزير الذي أكل لحوم البشر.. قهقهت.. لقد رأيت أكلة لحوم بشرٍ حقًا.

قال "بوريس" عابسًا:

- على المرء ألا يثق في الأمور بسهولة قبل التأكد منها.

صاح "باين" المخمور:

- يجب أن يضاجع أحدهم تلك المرأة، وأن يسكب كميةً من السائل المنوي عليها.. شفاهها كبيرة وصدورها ضخم والجزء الأكثر إثارةً، السن الذهبي.. شفاه كبيرة وصدر ضخم.. أكلة لحوم بشر.

ما زال صوت "ألفريدو" يتردد في عرض الأوبرا: "الحب، إنه غامضٌ وقوي!!".

وما زالت الخنازير تفرز رائحةً كريهةً ونفاذة.



حكاية جميلة



قال "بوريس" لـ"زورا":

- أنتِ رأيتِ أكلة لحوم بشر، وأنا رأيتِ جميلةً.

سألته "زورا":

- أي جميلة؟

- رأيتها ذات مرةٍ عند مطبعة "جلاس" خلف قاعة الاجتماعات العامة، ولم أنسها قط.. تجمدت من الذهول حين دخلت.. لم تكن شابة، لكن لا شك بأنها جسدت ما يعنيه الشعراء بوصف الجمال الأبدي.. لديها شعراً فصي وعينان مشعتان.. ندمت لأنني لم أقترّب من هذه السيدة الكبيرة لأخبرها كم هي باهرة الجمال.. سألت عنها صديقي المصمم هامساً.. تنهد

صديقي البوهيمي فضي الشعر وقال: "آه لو تعلم أي نوعٍ من النساء كانت.. تقرب إليها العظماء والساعون للعظمة.. لكنها تجاهلتهم.. عاشت بأسلوبها الخاص ولم تتزوج.. لكنها مريضة جدًا الآن".

زرت صديقي المصمم مجددًا الأسبوع الماضي.. رأيت الجميلة ثانيةً.. وجهها المترفع يشبه القطة المقدسة المصرية.. لم أصدق عيني، إنها حقًا مسنة! لاحظت للمرة الأولى أنها تعرج.. كانت تستند إلى عكازٍ بينما تسير، وأضاف إليه خيالي يدًا فضية.. بدت مثل كونتيسة روسية في أحد منتجعات بلدة "دافوس" السويسرية.. تأملت قامتها الرشيقة وتمتعت ببريق عينيها الخضراوين وشعرها الفضي.. هناك شيءٌ خالدٌ في جمال هذه المرأة.. إنها تمتلك جزءًا من الخلود.. عليّ القول إن هذه المرأة ما زالت جوهرة في بلجراد.. لا شيء، ولا حتى سنها أو مرضها أو أنفاسها الأخيرة، يمكن أن يحو جمالها الخلاب عن وجهها.



حكايات من حديقة الحيوان



ظلت السفن المحملة بالأسلحة تأتي للبلاد من كل مكان.. تم وضع المتاريس حول مدن البوسنة وهدمها عدة مرات.. جن جنون المذيعين.. وقف سكان بلجراد طوابير ليستثمروا أموالهم في نظام التسويق الهرمي في البنك.. سهلت خيول "كاليجولا" في قاعة الاجتماعات الوطنية.. وماذا فعلنا؟ مثل الذين حاولوا الهرب من الطاعون في مدينة فلورنسا الإيطالية، روينا لبعضنا حكايات.. لكن الآن لا يملك أحد وقتاً لسمع الحكاية كلها.. في كتاب "ديكاميرون" للحكايات الرمزية، يكفي كتابة ملخص سريع عن حياة المرء أو ذكر تفصيلٍ صغير.

من قال إننا نستطيع الشعور بوجود الرب إذا تأملنا في تفاصيل الأشياء؟

من قال إن الأشياء توقفت عن الوجود في ترتيبٍ زمنيٍ مستقيم، وبدأت في اتباع ترتيبٍ متداخلٍ وعشوائيٍ؟

من قال إن الحقيقة تهرب من الإنسان المنهجي؟



أخبرت "زورا" و"بوريس" و"باين" و"إيرينا" ما كنت أعانيه في ذلك الوقت:

- بدأ سكان مدينتنا الجميلة يثيرون أعصابي، لذلك بدأت أذهب إلى حديقة حيوانات "كاليميجدان" .. تمشيت بين الحيوانات، وشاهدت الطواويس الذهبية والفضية والعدادية.. كما شاهدت القروود ذات المؤخرات الحمراء.. رأيت فيلاً يهتز للخلف والأمام بيأس.. ورأيت حيوانات اللاما المغرورة والزرافات ذات الرموش الطويلة.. كما شاهدت زوار الحديقة أيضًا.

في حديقة الحيوان قابلت عائلة من الفلاحين الفظين الذين تنقلوا بين الأقفاص بذهول.. بالنسبة لعائلة الفلاحين كانت الحيوانات شيئاً جديداً.. شاهدوها بالكثير من الرهبة.. بدا التمساح الجامد مثل لوح الخشب.. هذا أزعجهم، فألقوا العملات المعدنية عليه ليتحرك.. ثم ركض طفل العائلة الريفية إلى بركة الفقمة التي تسبح في المياه الزرقاء بسرعة.. صاح الولد باشمئزاز: "انظروا! إنه ضفدع!".. اقترب والده من البركة وارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز مثل ابنه.. نظر إلى المخلوق الأسود المبتل وصاح: "هذا ليس ضفدعاً بل قنفذاً!".

قالت "إيرينا" ساخرة:

- "هذا ليس ضفدعًا بل قنفذًا"! ستكون هذه دعابتنا الخاصة.

رفعت يدي ليعلموا أنني لم أنتهِ بعد من الحديث.

- في اليوم نفسه في حديقة الحيوانات، مررت بأنايسٍ يصادقون النمر.. رأيت امرأة ترتدي فستانًا عليه أزهار، اقتربت من القفص الذي يضم خمسة نمورٍ مطيعة.. صورها كل الفتیان بكاميرات الفيديو.. اقتربت المرأة ومدت ذراعيها بين قضبان القفص.. ارتجفت وأغلقت عيني.. سيلتهم النمر ذراعها الآن.. لكن لم يحدث شيء.. فتحت عيني ورأيت نمرةً ضخمةً تفرك نفسها بالذراع الممدودة.. قالت لها المرأة: "يا صغيرتي، يا حلوتي".. يوجد قفص النمر في ركن حصن "كاليميجدان".. سار رجلٌ يحمل مظلة على سور الحصن فغضبت النمرة.. قالت السيدة الكبيرة ذات فستان الزهور بسرعة: "هيا يا كالي".. لن يؤذيكِ أحد.. اهدي.. في أي عالمٍ أنا؟ في أي مدينة؟ على أي كوكب؟ أين يمكن أن ترون سيدة كبيرة تربت على نمرة مسماة تيمناً بربة الموت الهندية لتهديتها؟ ثم تذكرت أن حديقة حيوان بلجراد تعاني نقصاً في الميزانية لشراء الحليب، فعرضت أشبال النمر للمتطوعين الراغبين في تربيتها في المنزل.. وهكذا تربت هذه النمرة الضخمة في منزل السيدة ذات فستان الزهور.

علقت "إيرينا":

- لكن هذه ليست أغرب نقطة في قصتك.. الأغرب هو أن النمرة "كالي"، أعظم وأقوى مخلوقٍ في العالم، كانت خائفة من شيءٍ ما، وأن أمها البديلة من بلجراد كانت تطمئنها.

قلت بينما أنظر في عيني "غيرينا" مباشرةً:

- نعم.. لو كانت "كالي" خائفة من شيءٍ ما، إذًا فعلى الجميع الخوف منه.. أعنى
بالجميع كل مخلوقات العالم من نساءٍ مذهلاتٍ ومُهور.. الجميع ما عدا الله.



رائحة الفهد



ابتسمت "زورا" بودٍ وقالت:

- لديّ كلب "كوكر سبانيل" اسمه "ميمي" وأحبه كثيراً.. "ميمي" لطيف لكنه جرّوٌ أحمق.. كل ما يعرفه عن العالم الواسع هي السجادة السميكة في غرفة المعيشة وأرضية المطبخ، حيث يجد طعامه يومياً.. أخذت "ميمي" الأسبوع الماضي للتمشية في متنزه "تاشمايدان".. لم أعرف أن حديقة حيوان بلجراد أعطت أشبالاً للناس ليربوها في شققهم ويطعموها الحليب حتى تكبر.. إحدى السيدات اللواتي تبينن شبلاً من حديقة الحيوانات كانت تتمشى مع فهدٍ صغير في متنزه "تاشمايدان" في الوقت نفسه.

تنحنت "زورا" بتعاطفٍ وواصلت:

- بالطبع لم يفهم كلبى "ميمي" ما هو الفهد.. بصراحة، بدا شبل الفهد مثل القط، وقد يظن المرء أن "ميمي" سيطارده.. لكنه لم يفعل.. لقد شم رائحة الفهد وارتعب قبل أن يراه حتى.. على النقيض مما يخبرنا به علماء الاجتماع، من الواضح أن بعض المعلومات توجد قبل التجارب الحياتية.. جعلت رائحة الفهد كلبى الأليف يجن.. يعرج الكلب عندما يتردد بين القتال والهرب.. بدأ "ميمي" يعرج.. ثم بدأ يرتجف، ولم يهدأ حتى حملته وعدت للمنزل.

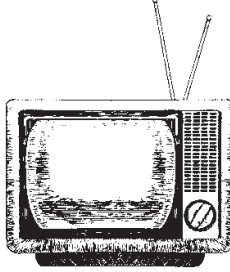
تدخل "بوريس" قائلاً بانتصار:

- هذا ما كنت أخبركم به طوال الوقت.. في هذه الأيام وهذا العصر، جميعنا مثل "ميمي"، كلب "كوكو سبانييل" الخاص بـ"زورا".. جميعنا شممننا رائحة الفهد.. شممننا رائحة خطرٍ أشد من الذي عشناه، وكلنا نعرج بترددٍ ما بين القتال والهرب.

نظر إليه "باين" بعينيه الحزینتين وقال:

- يا لغرابة الحياة.

الموت والجنون يصطدمان بـ"باين يانوفيتش"



كل ما حدث لنا ظهر أولاً على التلفزيون ثم في الحياة الواقعية.. التلفزيون لا يعكس الوقائع بل يخلقها.. تحدث الأمور على الشاشة أولاً ثم في الواقع، وتسير باضطرابٍ مثل لوحات "بيتر بروجل" و"هيرونيموس بوس" التي تمزج بين الحياة الريفية البسيطة والكائنات الشيطانية الشريرة.. يعرض التلفزيون أحد شماسين الكنيسة وهو ينقر رأس طفلٍ بقلمه الرصاص.. كما يعرض مناقشة تدور بين بعض البشر من مخلوقات الله.. يقول ممثل سياسي إنه اصطاد السمك بالديناميت ذات مرة، وقال آخر إنه تقاثل مع دب.

صاح "باين":

- لا أريد التفكير فيهم.. لا أريد التفكير في أسمائهم.. لا أريد أن ترتبط هويتي بهؤلاء الحثالة.

قال "بوريس" بلين:

- كن عاقلاً.. يمكنهم تجنيديك ولا يمكنك تجنيدهم.

هذا ما حدث بالضبط.

قبل تجنيده، أقام "باين يانوفيتش" سلسلة من الحفلات الغنائية أسماها "أفكار جميلة".. أثناء الجولة اعتذر للفتيات لكونه زير نساء.. ماذا يعني "زير نساء"؟ يعني أنه لا يمكنه الالتزام بامرأة واحدة في كل مرة.. استفاض في شرح حالته للفتيات وكأنه يتحدث عن مرض السكري.. صدقته الفتيات.. شرح لي "باين" الموضوع بكلماتٍ بسيطة: "لا يمكنني العيش دون معايشة النساء".

كلما تحدث مع "ماريا" عازفة الـ"ساكسوفون" على التليفون، أغلق "باين" عينيه.. ما زالت فرشاة أسنانه في شفتها.. بالإضافة إلى حبه القديم، لديه عشيقتان أخريان.. "نيدا" تصغره بعشرة أعوام وتناديه "العجوز المنحرف".. أما "تانيا" فتكبره بعشرة أعوام وتناديه "فتاي".. كان "باين" في مفترق طرق.. ما زال لا يعرف إن كان عليه السفر لأمه في أمريكا أم البقاء في بلجراد.. عندما يفكر في الذهاب، يسيطر عليه فكرٌ ذاتي عقيمٌ وشريير، يجعله لا يصدق سوى نفسه فقط، هذا يسمى بـ(solipsism) أو "وحدة الأنا".. فيقول: "كل ما هنا كرهه لأنه كرهه، وهو كرهه لأن كل شيءٍ كرهه".

قلت له متسائلاً:

- لماذا لا تذهب؟ لو كنت مكانك لذهبت، لكني لا أملك مكاناً أذهب إليه.. كل الأبواب مغلقة في وجهي.. لا أحد يفتح ذراعيه لاستقبالي في أي مكان.

فجأني جواب "باين":

- لماذا أذهب إلى هناك؟ إنهم لا يحنون الأغاني نفسها.

قلت لـ"بوريس" كثيراً:

- لا أفهم "باين".

رد "باين" باقتضاب:

- إنه يخادع.

شجعت "زورا ستيفانوفيتش" "باين" على الهجرة.. لو كانت فتى لقاتل إنها لن تشارك في الحرب أبداً.. هذا بسبب اعتقادها الذي يتبناه قلّة من الناس، ومفاده أن الكرواتيين والصرب هم الشعب نفسه.

قالت رأيها بصراحة:

- لو هاجم أحدهم كرواتيا لذهبت، لكني لن أحارب كرواتيا.

قال "باين":

- بما أنك لست فتى فجدالك باطلٌ وعقيم.

في يومٍ سيئ، طرقت التاريخ باب "باين" في هيئة ضابط تجنيد.. كانت حملة تجنيد غريبة.. بكت الأمهات على أكفان أولادها الذين ماتوا في

الحرب.. لكن لم يتضرر من رفض القتال.. أتذكر أن الجو كان حارًا في هذه الأيام حتى
كاد يغمى علينا.. ملأ "باين" حوض الاستحمام بالماء البارد وغطس فيه حاملاً بطيخة قد
بردها مسبقًا.. عندها سمع جرس الباب.. فتح الباب وهو ملفوف بمنشفة، ويقطر ماءً
على السجاد.. هكذا استلم استدعاء التجنيد.

لن يطرق التاريخ باب "باين يانوفيتش" مجددًا ويقول: "أسف لأني خربت
حياتك".. لا أفهم لماذا يستجيب عازف "روك" يسخر من العالم إلى استدعاء تجنيد.. قبل
ذلك ببضعة أيام، أصر "باين" أن قادتنا الأعراء تراجعوا من كونهم حمقى إلى كونهم
مجانين، وكل ما يمكننا فعله هو التمني بأن يعودوا حمقى مجددًا.. لماذا ذهب "باين"
إلى الحرب؟ لاحظت أكثر من مرة أن شعبنا الذي يسخر من العالم مثل مثيري الشغب
بدأ يميل إلى تعظيم السلطات.. يبدو أن احترام السلطة الأحمق قد أضر في "باين"..
بالكاد أمنع نفسي من الضحك حين أفكر في "باين" كمواطن مسؤول، لكنه استجاب إلى
نداء الواجب مثله تمامًا! أظن أن مفهوم المواطن المسؤول في مجتمع آكلي لحوم البشر
مثل شعب الأزتك هو أن يقتلع قلوب آلاف الرجال بهدوء.. "تانيا"، حبيبة "باين"
الكبرى، كانت كرواوية.. أمسكت يده قبل أن يفترقا ونظرت إليه بعينين دامعتين.. سألتها
"باين" بعينين مغرورقتين بالدموع أيضًا وسألها: "لماذا تنظرين إليّ بقلبي وشفقة؟".

أرسلوا "باين" إلى سلوفينيا حيث الخنزير من قصة "زورا" عن آكلة
لحوم البشر.. هناك حاول الناس في مدينة "فاليفو" الصربية
و"فينكوفيتسي" الكرواوية قتل بعضهم البعض.. إنهم الناس أنفسهم

الذين وقفوا معًا في جنازة "تيتو" قبل عشر سنوات.. أذاعت أجهزة الراديو المحمولة في صربيا وكرواتيا موسيقى فرقة "أذرا" الكرواتية:

".... هؤلاء السفلة،

سافكو الدماء، الحمقى الأغبياء،

إنهم قتلة وقاطعو طريق...".

كان زمنًا بشعًا ودمويًا ومريعًا.. زمن الرعب والخزي والغضب.. استمر النهب والتدمير والمذابح في مدينة "فوكوفار" الكرواتية لوقتٍ طويل.. ظلت القذائف المشتعلة تشق سماء الليل.. كانت "تانيا" تصلي باستمرار من أجل سلامة "باين".. أخبرني أنه أحيانًا يسيطر عليه رعبٌ مطلق في الظلام.. قال: "فجأة، يشتعل عقلك وتضطر لإطلاق النار".

هذا ما قاله عن الضباط: "لم أر أشخاصًا مؤذنين بهذا القدر في حياتي.. يمكنك أن تلعنهم، أو تفعل لهم ما تشاء.. لا بأس.. كل ما عليك فعله هو الظهور.. كمن النقيب "ريستيتش" في أحد المنازل ورفض المغادرة.. ألقى أوامره عبر النافذة".

سخر "باين" من "ريستيتش" وأصبح صديقًا لـ"مايل بروتيتش"، وهو رجلٌ مخمور ومنتفخ العينين من بلدة "أوب".

عرض "بروتيتش" على "باين" بعض الـ"براندي" وقال: "الكثير من الماء لن يسرك لكنه قد يغرقك".. ثم شرب بشراهةٍ وعاد يتفلسف قائلاً: "سواء شربت أم لا سينتهي بك المطاف في القبر.. إنها العدالة الوحيدة..

وإلا... "غمز" بروتيش "وأشار بفظاظةٍ إلى كل مجندٍ في العالم ثم أكمل: "وإلا سيعيش الناس ثلاثمائة عامٍ مثل الماموث.. لكن الأمور لا تسير على هذا المنوال! إلى القبر! والبوق العسكري يدوي في الجنازة...".

لا يتكلم "مايل بروتيش" بجديّةٍ مهما كان الموضوع.. ارتسمت ابتسامته المعتادة على وجهه بينما يتحدث إلى "باين" قائلاً: "الشيء الوحيد الذي لا يمكنني مسامحة أُمي عليه هو... إخراجي إلى هذا العالم...".

عندما تعرض "بروتيش" للقتل على يد قناص، شرب "باين" زجاجة كاملة لينسى.. أسرف في الشرب أكثر من "بروتيش" بينما يراقب المجرمين الذين عاصروا الحرب يركضون مذعورين.. هددوا بحبسه في زريبة خنازير في "إردوت".. شاهد حقول الأرز مشتعلة وفيها الجثث التي فاحت رائحتها العفنة.. تسلى بقصة الجندي الذي ذهب من الخطوط الأمامية إلى وسط بلجراد بدبابة.. لكن في اللحظة التالية عَشش الخوف في روح "باين"، ودق فيه مثل حفار الأسنان.. كان هذا زمن الرعب والفوضى.. بطل "باين" كان شاباً انتحر وهو جالسٌ بتردد بين مجموعتين من جنود الاحتياط من مدينة "فاليفو"، إحداها بقت عند الخطوط الأمامية والأخرى رحلت وعادت للمنزل، دون أن تعلم أي منهما سبب الحرب.. تساءل "باين" عن عدد الناس الذين قد يختاروا الموت الجسدي إذا واجهوا معضلة محيرة بين الموت الأخلاقي والجسدي.

النهار على اليسار والليل على اليمين.. إنه الاختيار بين الحياة والموت.

دفن "باين" وجهه بين يديه وزمجر:

- هذا مقزز، مقزز، مقزز.

قال لي لاحقًا:

- ظننت أنني سأجن.

- أولًا، لو كنت مكانك، لما استجبت لنداء التجنيد.. وثانيًا، لتصرفت بجنون من البداية.

ناح "باين" قائلاً:

- كل غرائزي كذبت عليّ.. كنت واثقًا تمامًا من أنني سأموت.. لم أشك مطلقًا في العكس.. أرسلوني لأكون تحت الملاحظة.. لم أضطر إلى التظاهر حتى بالجنون، صدقني.. أظهر صديقي في "بوباني بوتوك" علامات عدم الاستقرار باكراً في معسكر التدريب.. بعد وفاة "بروتيتش"، ظل "باين" تحت الملاحظة في المصلحة العقلية العسكرية.. اعتاد هذا الشاب الوقوف على المسرح المضاء بشموخٍ وعظمة، وأجبر الجمهور على الرقص بأغانيه، الآن يرقد متكورًا في وضعية الجنين تحت غطاء رمادي.. تمكن "باين" أحيانًا من القراءة في المصلحة.. تمكنت مقتطفات من كتاب "الحمل الأسود والصقر الرمادي" بقلم "ريبيكا ويست" من إعطاء "باين" القدرة على التنبؤ.. هذه فقرة من وصف فندق "موستار":

"انتقل الضباط الشباب بانتظام عبر الضوء الأبيض المسلط على ترائيزات البلياردو الخضراء، ودوى صوت ارتطام الكرات ببعضها.. تساعد شعور أهل البلقان بالتغيير والهلاك في الوقت ذاته.. ربما يأتي

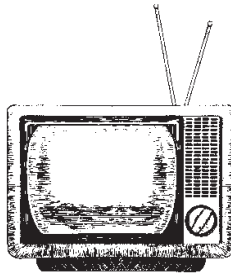
شخصٌ يخلع قبعته ويوضح ببساطة أنه ليس جنوناً أن كل الناس المحيطة بالترابيزات عليهم الانتظار حتى ينتهي ضابطان من لعب البلياردو بعدما لعبا مليون مرة، وستحدد النتيجة مصيرهما، وستقبل الأمر وسينتظر الناس بهدوءٍ ويقرؤون الصحف حتى ينتهي اللعب.

هذا ما حدث بالضبط.

في العقد الأخير من الألفية، دخل الشيطان حياتنا وأمرنا بالتوقف.. لعب الضابطان من نبوءة "ريبيكا ويست" مليون دور من لعبة البلياردو.. انتظر "باين يانوفيتش" في المصححة العسكرية قرار مصيره.. استلقى على فراشٍ معدني.. بين جدران بيضاء.. خلف النافذة المؤمنة بأسلاكٍ معدنية.. انهارت الدموع على خديه بينما يحدثني.

زمجر "باين" وهو يئن وقال:

- بعد كل ما حدث أقسمت على مغادرة البلاد إن خرجت من هنا حياً.



"يونس" و"دانيال"



عندما تمسّى "باين يانوفيتش" في بلجراد بعد الحرب، بدت المدينة غير حقيقية في نظره.. تساءل الجندي المحنك كيف يعتبرون هذا السراب المديني حياة؟!.. بدت بلجراد في أبهى حالاتها بعد خراب الحرب السلوفينية.. لم يلبس الناس الأزياء الموحدة بل ثياباً متنوعة.. أينما ذهب "باين" لاحظ الجنود الذين تجاهلهم أهل بلجراد.. اتصلت والدته من نيويورك بانتظام، كان يخبرها أنه يقابل طبيباً طبيياً نفسياً أسبوعياً.. اشتكى أن المهدنات التي يتناولها حولته إلى "زومبي".. عندما عاد إلى بلجراد توقف عن العزف ولقاء الفتيات، لكن السير بمحاذاة النهر يومياً قد هدأه.

ذات أحد تنفس "باين" رائحة الطمي بينما يتمشى كالمعتاد بين ملتقى نهريّ "سافا" والـ"دانوب" ومطعم "فينيس" في بلدة "زيمون"

كالمعتاد.. نثر الرب النوارس فوق نهر الـ"دانوب" مثل القصاصات.. نظر "باين" مطوِّلاً إلى طرف جناحي النوارس ثم إلى الرمل الذي جعلته الأمواج ناعماً.. كان الجو دافئاً، لذلك خلج حذاءه وجواربه.. غاصت قدماه العاريتان في الرمال، بينما يسير نحو النهر.. انحنى "باين" ليضع يديه في الماء.. فكر في طبيبه النفسي، ما قدر معرفة هذا العجوز الذي يدخل ثلاث علبٍ من السجائر يومياً؟ إلى أي مدى يهتم بمساعدته؟ هل يمكنه مساعدته حقاً؟ يا إلهي.

بينما ينحني بشروءٍ في الماء الضحل صدمته موجةٌ في ركبتيه.. رفع "باين" عينيه.. ظن أن قاربٍ سحبٍ يمر بالجوار وهو يجر ثلاث بوارج من روسيا.. ما زال يفكر في طبيبه النفسي.. كم من الذكاء الفعلي والتعاطف الإنساني خلف سلوكه المهني؟ في تلك اللحظة ارتطمت موجةٌ ضخمة برأس "باين" وأوقعته على مؤخرته وسط الوحل.

- ما الذي...؟

امتلاً فمه بالماء حين فتحه ليتكلم.

لم يدرك "باين" مصدر هذا الصوت المكتوم المحيط به، وكأن الكون بأكمله يردد نغمةً مهددةً: "تا دوم، تا دوم، تا دوم!".

زمجر "باين" قائلاً "تباً"، وهو يبصق الماء الموحل.

انشق نهر الـ"دانوب" فجأة أمامه مصدراً هسهسة صاخبة.. وظهر حوتٌ فاتحٌ فمه ليلتلع "باين".. كان حوتاً شاهق البياض، إنه أضخم حوتٍ في العالم.. أدرك "باين" أنه الحوت الخرافي "موبي ديك"، الوحش

الذي يسكن كل الأنهار والمحيطات في كل البلاد.. ربما كان في أستراليا أو أفريقيا الأسبوع الماضي، لكنه اليوم انقض على "باين" في نهر الـ"دانوب".. أدرك أن الصوت المكتوم "تا-دوم، تا-دوم، تا-دوم" هو صوت دقات قلب الحوت تحت الماء.. تبدو فتحة التنفس لدى هذا الوحش أشبه بكهفٍ تحت الماء، وتفوح برائحة اليود والطحالب.. شفت الحوت الهواء، وابتلع "باين" يانوفيتش".

غاص الحوت، وسمع الشاب الذي في معدته الماء يندفع بقوةٍ مثل شلالات "فيكتوريا".. يئس "باين" لأنه أدرك أن الحوت كان يسبح إلى البحر الميت ثم إلى المحيط الأطلنطي.. انتحب "باين" وسط الأحشاء كريهة الرائحة داخل الحوت الذي حمله من مسقط رأسه إلى مناطق باردة ومجهولة.. كان "باين" يشبه النبي "يونس" الذي بكى في بطن الحوت.. أحاطت الطحالب بوجهه وغمر الفيضان روحه وهو في أعماق البحر.. تذكر "باين" ربه فناجاه: "يا إلهي، إن لم تصل أسمعك إلى هذه الأعماق، فألى من سألجأ؟ إلى من أتوسل؟ يا إلهي! هل ستسحقني أمواجك إلى الأبد؟".

كانت حاسة الرائحة لدى "باين" أسرع من البصر الذي عجز عن اختراق ظلمة معدة الحوت.. اشتم رائحة المسك تفوح من الحوت وسط رائحة الطحالب العفنة.. أصبح سمع "باين" حادًا وسط الظلام.. أولًا، سمع صوتًا يشبه حركة القط داخل بطن الحوت.. ثم سمع زمجرة مكتومة.. بعد ذلك احتك جسدًا ضخماً بوركه.. كتم "باين" فمه بيده كي يكتم صرخة.. أخرج ولاعة من جيبه وأشعلها، فانطلق اللهب بصمتٍ، وانعكس على سطح الولاة الأملس.

كتب "باين" لاحقاً لي: "طالما لم يصبني هذا بالإغماء، فلن ينجح شيء في هذا".

كان الكهف الذي احتواه مليئاً باللبؤات والأسود ذات الشعور الجميلة.. لا بد أن الحوت ابتلعهم سابقاً في أفريقيا.. تحركت الأسود مثل الرمال على ضوء اللهب المتراقص، وتزاوجت عشر مرات متواصلة.. أسقط "باين" الولاة وأحرق أصابعه.. كانت تلك إشارة الأسود ليبدأوا بالزئير.. "أيتها العذراء! أيها الرب القدير!".. من لم يسمع زئير الأسود عن قرب لا يمكنه تخيل شعور "باين".. بدا له أن الصوت يتردد في كل الوجود ومن كل مكان حتى من داخل كيانه.. خشي "باين" من ألا يعلو صوت دعائه على زئير الأسود، ومع ذلك بدأ يدعو.

ظل يهمس بكلمات الإنجيل وسط الأسود الهادرة: "لأنك أنت نُصِيءُ سِرَاجِي.. الرَّبُّ إِلَهِي يُنِيرُ ظُلْمَتِي".

كان "باين" مثل "دانيال" الذي ظن أن الأسود ستطحن عظامه في الكهف الصخري الذي حبسه فيه الملك "داريوس".. كان "باين" مثل "يونس" و"دانيال" معاً.. لقد ابتهل في عرين الأسود داخل بطن الحوت.. همس محدثاً نفسه عن شبك الموت التي تطارده، وعن ربه الذي هو منجيه.. ظل يصلي ثلاثة أيام وليالٍ في أعماق البحر بينما تزار الأسود من حوله وتتزاوج خمسين مرة متواصلة.. كان "باين" يدعو بهمسٍ يغطيه زئير الأسود، لكن الرب سمعه في علاه.. انشقت السماء واهتزت الأرض.. أمر الرب الحوت الأبيض فصعد على السطح ولفظ "باين" من بطنه إلى اليابسة وهو محاطٌ بالطحالب ورائحة الأسود الكريهة.. بمجرد أن لفظ

"باين"، استدار الحوت بسرعة وسبح بعيدًا ليلتلع أناسًا من الصين ويأخذهم إلى المكان نفسه حيث أخذ "باين".

عندما حرر الوحش "باين"، استدار "باين" فرأى وحشًا آخر.. رأى عملاقة ترتدي تاجًا مديبًا كالقرون وتمسك شعلَةً حجرية.. أدرك أنه تمثال الحرية وأنه على جزيرة "إيليس".. ها هي مباني مانهاتن الزجاجية تقبع عبر الخليج وتلمع مثل أنهارٍ ثلجية.

إنه عام 1991.



خطابٌ عن الأعداء



تقلُّص عالمي عندما قرأت رسالة "باين" الدرامية التي تصف رحيله إلى أمريكا..
اجتاحني اليأس بشدة.. قلت له في عقلي إنه ربما يكون "يونس" أو "دانيال"، لكنه
هرب.. والآن ماذا سيحدث معي؟

أعمل مهنةً ضئيلة الراتب في مؤسسة "تاريخ البلقان".. يعبرُ جداي من جانب
أمي عن امتنانهما أحياناً بالمال.. دعمتني أمي مالياً كل شهر.. ما زلت لا أملك مالاً
كافياً.. قابلت مزارعين طبيين وغير طبيين في سوق "بابلوني".. حملت أكياساً مليئة
بطماطم حصاد الخريف وصعدت بها التل.. صنعت صلصة طماطم بمساعدة جدي
"تيوفيل" ثم عبأتها في زجاجاتٍ من أجل الشتاء.. ركبت أتوبيسات بلجراد المزدحمة
وحشرت نفسي مع مسنات ذوات شوارب.. زرت الأماكن ذات الشعبية في المدينة،

مثل جزيرة "ميجيتسا" وحي "كوسانتشيتشيف".. واستمتعت بالمنظر الخلاب من جرف "كاليميجدان".. سارت الحياة في بلجراد كالمعتاد مثلما يجري الدم في عروقي.. يزعم الحكماء أن الحياة التي هي مصدر المعرفة، هي أتفه الأمور.. استمعت إلى أصوات المدينة التي أحببتها.. جلس شابان وفتاة حول مائدة في مطعم "فريسكو"، ودخلوا في نقاشٍ فلسفي حول السبب الذي يجعل دخان السجائر يطير نحو غير المدخنين دائماً.. سارت نساء بلجراد بلا صدریات، وحدقنا بنهمٍ في نهودهن.. اشتكى طالب ثانوية لزميله قائلاً: "هناك الكثير من الجميلات، لكن كلهن مغرورات".. صاح سائق تاكسي في سائق شاحنة قائلاً: "تحرك أيها البطيء القذر اللعين، هيأً تحرك!".. وقع بائعٌ في سوق "بايلوني" ورفع مطرقة على سمكة شبوط وسأل زبونه: "هل أدقها لك قليلاً؟".. رفع سكيرٌ إصبعه أمام بار "واشنطن تافيرن" وصاح: "هذه بلجراد، وحتى الراهب يمكنه الزواج فيها".

بما أن البوسنة لم تشتعل حرباً بعد كرواتيا مباشرةً، أملنا ألا يحدث الأمر أبداً.. ما زال الجيش يستطيع استدعائي للخدمة العسكرية.. ما زلت أفكر في التاريخ.. يؤمن الأديب "ميشا سليموفيتش" أن الشعر هو وسيلة للهروب من التاريخ.. لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا.. لا يهم كم قرأت من الشعر، فما زال السياسيون والصحفيون والدبلوماسيون يقررون خط سير حياتي.

يميل المرسلون الذين يكتبون عن السفاري في يوغوسلافيا إلى تصعيد الأحداث بدلاً من فهمها.. يبدو أن أغلبية المرسلين يعتبرون أن فهم موقفي

هو امرٌ شخصي بشكلٍ غير لائق.. يبدو لي أن أحدًا منهم لم يسأل السؤال الأساسي؛ ماذا سيفعلون لو كانوا مكاني؟ عالم النفس "فرويد" كان مخطأً.. إن الغريزة الجسدية للسيطرة على الآخر أقوى من الغريزة الجنسية.. وفرت يوغوسلافيا المواد الخام، وهي محتنتها.. فقام المراسلون الأجانب بتحويلها إلى شعورٍ بالتفوق لأنفسهم ولقرائهم.

تحكي قصةً بوزية شهيرة عن مجموعةٍ من العميان يحاولون وصف فيل.. أمسك أحدهم بنابه، وأمسك آخر بخرطومه، وتحسس الثالث قدمه، فيما أمسك الرابع بذيله.. ربما يشعر أحدهم بالبرودة الهادئة للعاج في يده، بينما أمسك أنا الذيل أو أي جزءٍ آخر غير لائقٍ من الجسم.. ومع ذلك سأحاول وصف ما أشعر به بمرور الوقت بكل أمانة.

من منظور أهل بلجراد، فإن حل يوغوسلافيا يعني خسارة دعمٍ مستمرٍ لهم.. وكأن أحدهم غير بطاقات الأسماء من على الزجاجات في الصيدلية فصعّب علينا التمييز بين السم والدواء.. ما من فائدة لكل ما نعرفه بعد الآن.. لا يهم على أي ركيزة من ركائز الحياة الخاصة أو العامة نستند عليها، فقد بدأت تهتز أو تنهار وسط ظلام الكون.. الحياة في عالمٍ دون ركائز أو دعائم، ومع عددٍ متناقص من الأصدقاء، كل هذا جعلني أفكر في نظريةٍ غريبة؛ "على المرء الاعتماد على العدو!".

ليست المرة الأولى التي يفنى فيها شيءٌ نحبه.. هكذا شعر القديس "أوجستين" ذو الأصل الروماني الأفريقي عندما علم أن الفناء مصير روما.. لم يشك "أوجستين" أن الوجود الروحي للإمبراطورية، أي المسيحية، سينجو بعدما ينهار الوجود المادي.. ما شعرت به مشابهٌ لما شعر به الناس حتمًا أثناء

حل الوحدة بين النمسا والمجر.. تُوفي أربعة فنانيين أحبهم أثناء وحدة النمسا والمجر، وهم "جوستاف كليميت"، و"إيجون شيل"، و"أوتو فاجنر"، و"كولومان موسر".. لطالما شعرت أنني من نسلهم على الرغم من أن بلادي صربيا اشتركت في سقوط اتحاد النمسا والمجر.. أتمنى أن يأتي كاتبُ ألباني يوماً ما ويكمل عملي.. ما زلت أؤمن بطبيعتنا الطيبة وسط المعاناة اللعينة في البلد الذي أعيش به.. مثل المفكر الإيطالي "بيكو ديلا ميراندولا"، ما زلت أؤمن أن الإنسان قادرٌ على التحكم بطبيعته.. أؤمن أنه وسط الصراعات الشريرة يولد الأمل والطيبة.. آمنت بنظرية يائسة في عالمٍ بلا دعائم، وهي أن على المرء الاعتماد على العدو!



بورتريه حزين لشخص من المحافظين



قلت لـ"زورا" و"بوريس" و"إيرينا":

- أكد "نوفاليس" أن كل شيء يجب أن يعود إلى حالة هلامية بين حين وآخر، وذلك لكي يتجمع مجدداً حول مركز صلب ويتجمد ثانية.. لكن ما هذه المراكز الصلبة؟ هل تظنون أن المراكز الصلبة تكمن في التقاليد؟

قالت "زورا":

- هل تعرفون "ميلان أوتسوكوليتش"؟

أجاب "بوريس" بسرعة:

- بالطبع.. إنه أحمق.

- أحمق أم لا، إن أهم شيءٍ في حياته هو...

قاطعها "إيرينا":

- التحدث دائماً عن والده الثري.

جارها "بوريس":

- دائماً يقول: "والدي فعل"، "والدي كان".

تجاهلت "إيرينا" المقاطعة وواصلت كلامها:

- أهم شيءٍ في حياته هو التحدث دائماً عن التقاليد، وعن جذور عائلته الراسخة في بلجراد.. مع أن المسافة هائلة بين بلجراد وقرية جده، لدرجة أنه يصعب قطعها في يومٍ كامل بالحصان.

ابتسمت "زورا" وقالت:

- نعم.. ذهبت مرةً مع "ميلان" إلى "أدا ميدجيك".. جلسنا على شاطئ الجزيرة نراقب البحر وهو يحمل عناقيد الزهور.. بالمناسبة، يسمي الألمان عناقيد الأزهار بـ"ثلوج الأشجار".. شاهدنا البحر وهو يحمل هذه الأزهار.. كان المشهد جميلاً ويبعث على الاسترخاء.. لم أرد التحدث في أي موضوعٍ تافه.

ثم بدأ "ميلان" يتحدث عن التقاليد، التي تساوي عنده الحديث عن أبيه وفرصةً للفتاخر به.

واصلت "زورا" الحكى:

- يا إلهي.. لن تصدقوا النظرة التي رماني بها.. لقد فهمت منها مدى الصراع المثير للشفقة بين الكرامة والحاجة إلى حماية الحالة النفسية.. غالبًا ما تخسر الكرامة في هذه المعركة.. أدركت أن "ميلان" يستخدم الأكاذيب في صراعه لأجل احترام الذات، وأعلم أنه سيكرهني لأنني أخبرته بذلك.. أدركت حينها أن والده حطمه جسديًا وروحًا، ولا يمكننا مساعدته.. إذا نظرتكم في عيني "ميلان أوتسوكوليتش"، ستجدون دوامةً من العجز واليأس.. إنهما عينا رجلٍ محطم.



القديس "جورج" يركب تينياً ويذبح حصاناً

قصة جدي



حثتني قصة "ميلان أوتسوكوليتش" على التفكير في أبي وجدي.. أدركت أنني لا أعلم ماهية التقاليد بالنسبة لنا.. فبعد الحرب العالمية الثانية والثورة، بدا عالم جدي منهاراً بالنسبة لأبي، مثل مدينة "بومبي" الإيطالية التي دفتها الحمم البركانية.. أرى عالم أبي بالطريقة نفسها.. على الأرجح، أصبحت مؤرخاً بسبب رغبتني في إزالة طبقات الحمم المتجمدة التي تفصلنا عن بعضنا، وأيضاً لرغبتني في إيجاد حلقة وصل بين أجيال عائلتي الثلاثة الذين عاشوا في بلجراد.

كان جدي "تيوفيل جورجيفيتش" أحد أقل الأعضاء أهميةً في حركة بلجراد السيربالية.. كتب "تيوفيل" في الثلاثينيات مسرحيةً من فصلٍ واحد، اسمها "قضيْبُ ضعيف وامرأة متعطشة للشهوة"، ولعبت زوجته "يوفانكا" دور البطولة.. لم يفهم المسرحية سوى المخرج.. بالنسبة لمن سخرُوا من كتابته المسرحية، أوضح "تيوفيل" لهم أنه رسامٌ في المقام الأول.. جدران غرفة معيشتنا كانت مزينة بقليلٍ من لوحاته التي تشبه شكل الصابون المتجمد.. هناك لوحتان دينيتان في غرفة النوم؛ الأولى للقديس "جورج" وهو يركب تينياً ويذبح حصاناً، والثانية للمسيح وهو يمسك ثمرة أناناس.. لوحتي المفضلة لجدي هي بعنوان "سناجب تلتهم غزالاً".. إنها لوحة زيتية بالأسلوب الواقعي لـ"بايا يوفانوفيتش"، وهي تمثل غزالاً عاجزاً يتعذب بينما تلتهمه سناجب متعطشة للدماء وهو حي.

قبل الحرب العالمية الثانية وخلال دراسته في باريس، قابل "تيوفيل جورجيفيتش" "أندريه بریتون"، زعيم السيربالية.. استقبل خطابين من "بريتون" خلال حياته.. ومن باب المبالغة، مسخ مؤخرته بالأول، ووضع الثاني في برواز وعلقه على الجدار.

عرف أن السيرباليين الفرنسيين أعطوا أنفسهم ألقاباً أرستقراطية، فبحث "تيوفيل جورجيفيتش" في تاريخ بلجراد واختار لقباً أرستقراطياً تم نسيانه منذ القرن السابع عشر.. إن "كومنين جورجيفيتش"، الحاج ومالك الأراضي من العصر الباروكي، لم يكن على الأرجح جد "تيوفيل"، وإن كان يمكن أن يكون كذلك.. كان "كومنين جورجيفيتش" من أهل بلجراد، وهو حاكم بلدة "إريج"، وسيد قرى "فردنك" و"كوكينياش".

و"ريفيتسا".. جداه هما "خريستوفور" و"لازا".. كانا يتواصلان سرًا مع بلاط مدينة فيينا أيام الملك "فرديناند" الثاني.. قام حرس السلطان العثماني المعروف بـ"قوات الإنكشارية" بإعدام أخيه "أتاناس" فوق نارٍ ضخمة.. تم أخذ "ماريا"، ابنة "كومنين"، إلى سوق العبيد لبيعها، لكنها نجحت في الهروب إلى بلدة "سانتاندري" في المجر.. أثناء الحروب الباروكية، سُلبت أملاك "جورجيفيتش" مع طواحينه ومنزله في بلجراد.. كتب كبير الوزراء "كوبرولو" إلى "كومنين" شخصيًا ليخبره أن كل أملاكه ستعود إليه، لكن بلا أي نتيجة.. وهكذا فقد "تيوفيل جورجيفيتش" اللقب الأرستقراطي الذي ورثه بوسائله الخاصة، في المدينة التي قطعت فيها السيوف أشجار العائلات لكثيرٍ من الناس.

قام ابن "إسيدور جورجيفيتش" المستثمر العقاري الثري بمقابلة "أندريه بریتون".. بعد ذلك أصبح شيوعيًا لفترة.. بينما خادmatesه يلحقن كؤوس الشامبانيا الفارغة في شقته الواسعة، كان سائقه يوصله إلى اجتماعات الحزب اليوغوسلافي الشيوعي.. كان جدي يرفع إصبعه في تلك الاجتماعات ويصيح: "يجب أن نغيّر العالم!". في طريق عودته إلى المنزل، كان يقف في بهو الحزب أمام صورة رجلٍ يلبس قبعةً خاصةً بالفلاحين الصرب وبجانبه امرأة ترتدي وشاحًا.. فيعقد ذراعيه أمام الصورة المكتوب عليها كلمة "الشعب"، ويكرر كلمات "بيتر بيتروفيتش نيجوس": "حمدًا لله لأنه جعلني أرقى من هؤلاء الهمج".

أثناء الاحتلال الألماني لبلجراد، اقترح كابتن "يوهان فون نوبتشا" أن يرسم "تيوفيل جورجيفيتش" بورتريهات "أدولف هتلر" الرسمية..

طلب "تيوفيل" طعامًا يساوي ما يأكله الضباط، وفرشًا وألوانًا ومساعدًا.. بعد ذلك أخبرته زوجته "يوفانكا" أنها ستهجره وستأخذ معها والدي "أندريه".

تثاءب "تيوفيل" وقال لها: "حسنًا، لكن لا تعودي لتطالبيني بأي شيء".

بين عامي 1941 و1945، كان والدي "أندريه" يعاني الجوع مثل كل أهل بلجراد، بينما جدي "تيوفيل" يزداد بدانةً وهو يرسم لوحات "هتلر".. قبل رسم تلك اللوحات، كان الجنود الألمان يحتلون كل شبرٍ من هامبورج حتى الصحراء الكبرى.. هاجر "تيوفيل" بعد الحرب إلى لندن حيث عمل موظفًا في شركة الشحن الخاصة بالسيد "إيفانوفيتش".. استغرق أصدقاؤه السرياليين خمسة عشر عامًا لإقناع السلطات الشيوعية بأن "تيوفيل" كان مغفلًا وليس مؤيدًا حقيقيًا للألمان.. أخيرًا تلقى "تيوفيل" جورجيفيتش رسالةً من أصدقاؤه تقول: "تستطيع العودة.. تم العفو عنك".

أعدت السلطات في بلجراد إلى "تيوفيل" شقة العائلة المجاورة للكاتدرائية.

حلم جدي حلمًا غريبًا عندما نام أول ليلةٍ في الشقة.. حلم بمكتباتٍ ومقاهٍ يقضي فيها أي رجلٍ حياته إلى أن يشيخ بكل راحة.. حلم بمحلات الخمر التي تشبه المكتبات.. حلم ببلدةٍ يتمتع فيها الإنسان بمرور الزمن.. حلم بمكانٍ يغريه بتفاصيله حتى يسحره بكيانه.. حلم بمدينةٍ تظل في أحلام مواطنيها، لكنها ليست في أرض الواقع.

انتقل "أندريه" ابن "تيوفيل" إلى شقة بلجراد.. كان "أندريه" رسامًا أيضًا.. كان الرسامان - الأب وابنه - في صراعٍ دائمٍ.. ذات مرةٍ تعاركا بعنفٍ ثم قاطعا بعضهما ولم تعد المياح إلى مجاريها.. عندما رحل "أندريه" إلى باريس، ذهبت أمي إلى "تيوفيل" حاملَةً طفل.. لا أعرف كيف أقنعت "ميلينا" الفنان السيريايلى عدو الإنسانية بأني حفيده.. أعتقد أن ما قطع الشك باليقين هو أن والدي كان يرسل لي الهدايا، وأني أشبه جدي كثيرًا.

عندما كنت في الثامنة عشر، انتقلت من شقة أمي إلى شقة جدي بجانب الكاتدرائية، وذلك لكي أرثها ذات يوم.. لم يهذب العمر من طباع العجوز السيريايلى.. على الرغم من تقاعده، عمل جدي بدوامٍ جزئي في القطاع الفرنسي براديو يوغوسلافيا، وظل يحتك عمدًا بالفتيات في المواصلات العامة.. عندما وصل لسن الخامسة والسبعين، عبّث ثلاثة قساوسة لتقديم التعازي الأخيرة لعضوه الذكري الذي أسماه "ديك رايزر".. اشتكى لاحقًا أن شبح المرحوم "ديك رايزر" ما زال يطارده في شكل مصاص دماء.

أحبني "تيوفيل" إلى حدٍ ما بطريقته الخاصة.. أحيانًا كان يربت على رأسي، ويقول ضاحكًا: "يا لك من طفلٍ قبيحٍ!".

عندما حان الوقت الذي أصبحت فيه مهووسًا بـ"أمور البالغين"، سألت "تيوفيل" الذي أعتبره خيرًا بهذه المسائل:

- أخبرني يا جدي، هل ستوقف هذه الرغبة يومًا ما؟

لانت ابتسامه "تيوفيل" المتعجرفة قليلًا وقال وهو يمسح على شعري:

- أبدًا.

عن أبي



في أثناء الحرب العالمية الثانية، كان أبي "أندريه جورجيفيتش" يتضور جوعاً، بينما جدي "تيوفيل" يعيش في نعيمٍ بفضل رسمه للوحات "هتلر".. "يوفانكا" هي والدة "أندريه" التي مثلت في المسرحية التي لم يفهمها سوى المخرج، جابت القرى المجاورة وحصلت على الطعام في مقابل مجوهراتها أو قطعٍ من أثاث البيت.. ذهبت إلى رجلٍ يدعى "دوبايا" من ضاحية "سورتشين" واشترت شريحةً من لحم الخنزير مقابل ساعة ذهبية كانت في الواقع مطليّةً بقشرةٍ من الذهب فقط.. بعد فترةٍ أجبرها الجوع على الذهاب إلى "دوبايا" مجدداً.. أخبرها بأسفٍ أنه فقد الساعة في الماء أثناء الصيد.. لم يدرك المزارع الخدعة، وهكذا استطاع "أندريه" و"يوفانكا" الحصول على بعض الطعام والنجاة ليومٍ آخر.. لكن الحظ لم يحالف الأم والابن طويلاً..

اضطر "أندريه" إلى السرقة من مخزون البضائع الخاص بالألمان.. وتوفيت "يوفانكا" في بلجراد بسبب حمى التيفود في سبتمبر 1944.

عاش "أندريه" كالأيتام على الرغم من وجود "تيوفيل" على قيد الحياة.. كان يعيش نصف العام على ضفاف نهر "سافا"، ويتحول ليصبح همجياً تماماً.. كان يسبح في النهر حيث تطفو جثث الصرب الذين تم قتلهم في معسكر "ياسينوفاتس" للإبادة الجماعية.. بنى "أندريه" بيت شجرة في جزيرة "أدا ميدجيتسا" النهرية.. بعد سنوات عديدة في باريس، قال إن تلك الجزيرة تذكره دوماً بلوحة "جزيرة الموتى" للفنان "لوكلين".

عندما عاد "تيوفيل" إلى بلجراد، أعادت له السلطات الشيوعية شقته المجاورة للكاتدرائية.. مثل "تيوفيل" دور التائب ودعا ابنه "أندريه" للعيش معه.. ولأن "أندريه" أصبح همجياً خلال الحرب، لم يستطع "تيوفيل" جورجيفيتش" تغيير عادة ابنه في التبول في الحوض.. كان العجوز حذراً للغاية بخصوص السياسة.. اغتاظ "تيوفيل" لأن المشط عجز عن اختراق لحية ابنه الكثيفة المشعثة.. كان "تيوفيل" مذهولاً من الكائن الذي أصبح عليه ابنه، واشتكى لأصدقائه بخصوص "أندريه" قائلاً: "إنه متوحش حقيقي".

بدأ أبي "أندريه" الرسم خلال سنوات الفقر.. لم يكن يملك فرشاة ولا قماشاً.. كان يذهب إلى مركز الفنون في شارع "سوماتوفاتشكا" ليمارس الرسم.. هناك تعلم أن ورق البردي الجيد المشدود على لوح من الكرتون أو الخشب يمكنه استبدال القماش الذي يعجز عن الحصول عليه.. صنع فرشاته من الشعر المنتوف من آذان البقر.. لم يستطع مسامحة والده

لتخليه عنه في سنوات الحرب الصعبة، حتى بعدما انتقل إلى شقته، أمّا الأب فلم يستطع مسامحة "أندريه" لأنه يرسم أفضل منه.

قل ناقدٌ عجوز لجدي: "ما يفعله ابنك هو نفس ما تفعلونه أنتم السيراليون في إحدى مراحل حياتكم".

لكنه تجاهل ما سمعه.. وُلِدَ "تيوفيل" و"أندريه" في المدينة الملعونة بالأبناء غير القادرين على مواصلة مسيرة آبائهم.. ما بين جيل الأب والابن، انفجرت ثورةً بركانيةً أشبه بتلك التي دمرت "بومبي".. دفنت الحمم عالم "تيوفيل".. كان مستحيلًا على "تيوفيل" و"أندريه" أن يدركا التشابه.. من أجل بناء جسورٍ بين الأجيال، نحتاج إلى مؤرخ.. ودعوني أذكركم بأنها مهنتي.

قال أحد معارف "بريتون" السابقين ردًا على كلام الناقد: "هذا يماثل أعمالي! أبدًا!".

جدي النرجسي الأناني وأبي الهمجي المتوحش ظلا يتشاجران طوال الفترة القصيرة التي عاشاها معًا.. ظل "تيوفيل" يتنمر على ابنه البالغ بالإساءة اللفظية المعتادة من الآباء: "إلى متى سأظل أدمعك مادياً؟" أو "طالما تعيش في بيتي عليك طاعتي".. قام الوالد بطرد ابنه مراتٍ كثيرةً قائلاً: "اخرج من بيتي".

لم يكن "أندريه" رجلاً متحضرًا.. كان يركز على أسنانه غيظًا.. لم يرغب في رفع يده على أبيه، فركله في بطنه وترك الشقة.. لجأ إلى صديقه الكفيفة "أنيا".. كان ينام عندها أو في بيت الشجرة الخاص به في الجزيرة الصغيرة أو

في المخابئ الألمانية المهجورة في حصن "كالميجدان".. أخبرتني "أولجا" أنه كان ينام أحياناً في عربات الترام.. في ذلك الوقت كانت هناك ملاجئ على هيئة عربات ترام تجوب شوارع بلجراد ليلاً.. كانت تلك العربات تحتوي على بارٍ حتى يشرب الناس أثناء الطريق.

في أواخر الخمسينيات كانت هناك ندرهٌ في الألوان، وأصبحت بلجراد مطليّةً بالأبيض والأسود.. لاحظ أبي مجموعةً من المباني الجميلة ذات صفةٍ مشتركة، كلها لم تكن بالأبيض والأسود.. استبد الجوع بأبي وأضعفه، فأصبح في حالةٍ من اليأس المتهور وهاجمته صورٌ من الذكريات المنسية.. تجول بين المباني الجرانيت باحثاً عن ملجأٍ يختبئ فيه، مثلما تفعل الحيوانات في أثناء البيات الشتوي.

ذات يومٍ أعطته "أنيا" بعض المال، فاشترى لنفسه الخبز.. سار ذات مرةٍ في شوارع "ستراخينيتش بان" واصطدم بمشردين عجوزين.. كان لهما لحيّةٌ طويلةٌ وكثيفةٌ.. إنهما الرب والقديس "بطرس" اللذان يجوبان الأرض متكرين في هيئة شحاذين.

سأل الشحاذان الغامضان "أندريه": "هل يمكننا الحصول على قطعةٍ من هذا الخبز؟".. صمت في البداية ثم أعطاهما نصف قطعتيه.. مرت بجانبهم قطعاً بأقدامٍ بيضاء.. فلمس الرب "أندريه" وغرّ لونه عينيه.. تلك اللمسة الربانية هي ما جعلت أبي فناناً لاحقاً.

بعد تلك المواجهة، ابتسمت الحياة لـ"أندريه جورجيفيتش".. عاش أولاً مع "أولجا" لفترةٍ قصيرة، ثم عاش مع أمي لفترةٍ قصيرةٍ أيضاً.. آخر ليلةٍ قضاها في بلجراد، حلم "أندريه" بأنه أسس مدينةً ليغادرها بعد ذلك.. في

اليوم التالي اقترض ثمن التذكرة ليسافر إلى فرنسا.. بعد عشر سنواتٍ من البؤس، أصبح "أندريه جورجيفيتش" رسامنا العظيم في باريس.

تواصلت قليلاً مع أبي المشهور.. هجري "أندريه" مثلما هجره "تيوفيل".. ما بين زمن "أندريه" وزمني ثار بركان التاريخ مجدداً.. بالنسبة إليّ، كانت بلجراد التابعة لزمن أبي مدفوناً تحت الحمم البركانية مثل "بومبي".. ولم أكن لأعرف شيئاً عن هذا لولا "أولجا".

في باريس تظاهر أبي باليأس لأن لوحاته تباع جيداً! عندما سأله أهل بلده إن كان عضواً في حركة بلجراد الفنية المعروفة باسم "ميديالا"، رد قائلاً إن "ميديالا" تعتبر شيئاً هامشياً بالنسبة إليه.. عندما حاورته الصحافة الفرنسية، حك لحيته وقال: "أحب الناس العاديين كثيراً.. أنا لست عادياً، لكنني أحب الناس العاديين".



علاقة ثلاثية



حان الوقت لأخبركم عن أول تجربةٍ جنسيةٍ لي.. كان الفيلسوف اليوناني "أفلوطين" خجلاً من جسده البشري.. إنه أحمق.. أنا لست خجلاً من أي شيء.. يعود الفضل في تجربتي الجنسية الأولى إلى "باين" المقيم في أمريكا الآن.. عندما كان الصبية الآخرون يكذبون بشأن نزواتهم الغرامية، كان هو يقول الحقيقة.. "باين" هو أول من خاض التجربة، لذلك هو من فسر لنا غموضها.. فمثلاً، هو من كشف لي سرّاً صغيراً يتعلق بمذاق الأعضاء الأثوية الحساسة.. مذاقها مالِحٌ قليلاً، مع لمسةٍ من طعمٍ أشبه بالحديد، ثم يصبح عذباً بلا أي طعم.. في قمة شهرة "فرانز كافكا"، اندفع "باين" إلى شقتي ذات ظهيرةٍ وألح عليّ في الخروج معه.. سألته:

- إلى أين ستأخذني؟

- ستري!

وجدت سيارة "باين" تنتظر عند الرصيف، كانت طراز "أوبل أوليمبيا" موديل 1937.. كانت إطاراتها ذات لونين مثل الأحذية التي ارتداها كل زير نساءٍ في تلك الفترة.. أغطية المقاعد المخططة باللون البنفسجي كانت بالية.. كتب أحدهم بإصبعه على الغطاء الأمامي المترب: "اغسلني!".. أقصى سرعةً للسيارة هي 120 كيلو مترًا في الساعة.. لو وضع أحدهم قدمه على الرفرف ليربط حذاءه فسينهار.. هناك أيضًا حاجزٌ ملتصق بجانب السيارة يصلح لاختباء المجرمين خلفه لإطلاق النار.

قلت لـ"باين":

- هذه السيارة هي أفضل مميزاتك.

كان "باين" سائقًا فطيمًا.. أولًا سب سائق سيارةٍ من طراز "جولف" كان يقود أمامه.. ثم قام بحركةٍ بذيئةٍ بإصبعه نحو امرأةٍ تسير على الرصيف، وقال:

- سأدهسها.

- لا تفعل، فهي تبدو لطيفة.

- لطيفة؟!!

استنكر وكأنه شعر بالإهانة.

ركن السيارة أمام مبنى نصف دائري عند الناصية في شارع "فرنش"، بناية رقم "E 36".. هناك ثلاثة أبوابٍ حديدية عند البوابة.. الباب الأيمن

يخص محلًا لصناعة الساعات، والأيسر يقود إلى القبو، أمَّا الأوسط المغلق فيؤدي إلى داخل المبنى مباشرةً.. كان المدخل يفوح برائحة الحياة والشوق إلى الرغبات البشرية وفقر المدينة.. هناك مصباحٌ يتدلى من السقف مثل الجرس، وموتوسيكل قديم الطراز بجوار عمودٍ رخامي وردي اللون.

علق "باين" ضاحكًا:

- يبدو هذا العمود وكأنه مصنوعٌ من جن المرتاديل الوردي.

فتحت باب الأسانسير بترددٍ خوفًا من أن يكون واحدًا من صناعات شركة "ديفيد باييك كورب" المريعة.. شعرت بالراحة عندما دخلنا أسانسير لطيفًا قديم الطراز، فيه زجاجٌ كريستالي ومرآةٌ نقية.. تحرك الأسانسير بصمتٍ إلى الطابق الثالث.

وصلنا إلى طابقٍ مهيب.. انفتح الباب فلمحنا عينًا جميلة لكن غريبة، أمَّا العين الأخرى فكانت تغطيها خصلة شعرٍ مجمدة ومصبوغة.. إنه وجهٌ أنثوي يصعب نسيانه، وصاحبته تبتسم إلينا.. إنها "أولجا".. قادتنا إلى غرفة المعيشة وضغطت زرًا، فأضاءت أباجورة تشبه المشروم.. رأينا أثاثًا متينًا تنتهي أرجله بشكلٍ يشبه مخالب الأسد.. أعطتني الشقة انطباعًا بالعمق والتعقيد الشديدين.. شعرت أنني إذا دخلت الدولاب سأنتقل سحرًا إلى غرفة السفارة.. وإذا دخلت دولابًا آخر سأنتقل منه إلى السطح.. هكذا بدت الشقة لي.. مسحت الغرفة التي جلسنا فيها بنظري.. وأخيرًا، نظرت إلى "أولجا" بتردد.

كانت نبرة صوت "أولجا" تتغير.. كانت تضحك على نكاتنا وحتى أفكارها.. وضعت مكعبات ثلج في ثلاث كؤوس ثم قادتنا إلى غرفة نوم لا تحتوي شيئاً سوى مراتب مزدوجة.. تسللت أضواء اللافئات من بين الشيش وسقطت على أجسادنا بينما نخلع ثيابنا.. انبعثت رائحة غريبة عندما خلعت ملابسها، بينما انبعثت رائحة مسكية عندما خلعنا نحن ملابسنا الداخلية.

لمست "أولجا" صدر "باين" برقة ثم سحبت يدها وقالت:

- رائع.

ثم تحسست ميدالية الشجاعة المثبتة في جلده مباشرةً وقالت:

- مقزز.

سحبت الدبوس بحذرٍ من حلمة "باين" ورمت الميدالية على الأرض.. سال خيطٌ من الدم من صدر الفتى إلى صدر المرأة.. فركت "أولجا" صدرها في صدر "باين"، وفركت صدري بكتفيها من الخلف.. حركت الرياح الشيش فدخل شعاعٌ من الضوء وانزلق على أكتافنا.. داعب أذننا بلسانه وداعب الآخر فمها بلسانه.. تشبثنا أنا و"باين" بأكتاف بعضنا و"أولجا" بيننا في المنتصف تشهق طلباً للهواء.. ثلاثة أعناقٍ متشابكةً معاً.. تحركنا سوياً ببطءٍ شديد.

بعد ذلك استلقى "باين" على جانبه ونام.

لم أشعر بمرور الوقت أثناء قبلات "أولجا" المسكرة.. قبلت عنقي ثم ذقني.

همست لها حتى لا يسمع "باين":

- هل تحبينني؟

سألت بهمس:

- هل تريدني أن أقول إنني أحبك؟

أجبتها بتوقٍ شديد:

- نعم.

- أنا أحبك.

هل الحرارة التي أشعر بها سببها الإرهاق؟ أم عدم اليقين؟ لا أعلم متى تمت، لكنني أعلم أنني حلمت برجالٍ وسيدات كبار السن يسرون في المتنزهات متأنقين ونشيطين.. حلمت بعشاقٍ غارقين في قبلاتٍ حارة.. حلمت بتماثيل في الميادين وأمام واجهات البنايات.. حلمت بألف فندق يقدم طعامًا من ألف بلد.. حلمت بمحلات الخمور التي تشبه المكتبات.. حلمت بمدينةٍ بها نهران يزيلان همومها ويريحانها.. ثم شعرت بقبلةٍ على عيني، ثم جبهتي وأخيرًا شفتي، وكأنها كانت ترسم عليّ صليباً بالقبلات.

أول ما رأيته ذلك الصباح كان عينًا جميلةً وغريبةً وأخرى مغطاةً بخصلةٍ مجمعة ومصبوغة.

قلت لـ"أولجا":

- ابتسامتك أيقظتني.. شعرت بها عبر جفوني المغمضة.. عيناكِ غريبتان جدًّا، ولامعتان.

ابتسمت "أولجا" وقالت:

- ليكن الحظ حليفك في هذا الصباح الجميل!

تسلل "باين" خارجًا وتركنا وحدنا في الشقة.. شربت كوبًا من القهوة قدمته إليّ، ثم نهضت ونظرت حولي.. رأيت أذنًا منحوتة على الجدار.

علقت:

- إنها متقنة.

قالت "أولجا":

- وكأن الجدار يتنصت علينا.

خرجت إلى البلكون الصغير عاريًا تمامًا ونظرت إلى حديقة المبنى الداخلية المليئة بنبات اللبلاب.. رأيتي الطيبة العجوز في البلكون المقابل فقالت بصوتٍ أجش:

- عديم الحياء!

خرجت من البلكون وجذبت "أولجا" ذراعي وسألتنني:

- اسمع، لنعتبر أنه لم يحدث شيء بالأمس.

خسارة، لقد أعجبت بها حقًا.. سألتها:

- لو لم يحدث شيء، فكيف تقابلنا إذًا؟

كررت بإصرار:

- لنعتبر أنه لم يحدث شيء بالأمس.

وافقت:

- حسنًا.

ابتسمت وكررت:

- لم يحدث شيء.

تجولت في الشقة وما زلت عارياً.. تمشيت في الصالون المطل على منظر الكنيسة اللطيف.. وجدت إطاراً ذا منحنيات فضية وفيه صورةً فوتوغرافية لفتت انتباهي.. كانت الصورة المهمة تضم حبيبين يتعانقان.

تجسد الصورة "أولجا" وهي شابة، شعرها يزين جبهتها وعيناها رماديتان ولامعتان.. يقف بجانبها شابٌ سعيدٌ جداً، وله لحيَةٌ كثيفة.

صحت:

- "أولجا"! والدي في هذه الصورة.

قالت "أولجا" ببساطة:

- كان حب حياتي.



لوحاتٌ جدارية



قبل أن تغرم بأبي، كانت "أولجا" تعيش حياةً زوجيةً تعيشه مع زوجها "تشيدومير بويوفيتش".. لم تعد تحب زوجها بعدما حملت مرتين وتوفي الجنين في كل مرة.. بدأت تخرج وحدها، وبدأت أصواتٌ ذكورية تطلبها في التليفون.. وبما أنه من المقدر لـ"تشيدومير" أن يصبح والد "إيرينا"، قرر إنهاء ذلك الموقف غير المحتمل.. وافق على الطلاق وترك شقته لـ"أولجا".. لم يغسل "تشيدومير" جواربه قبل الزواج قط، بل كان يرميها ويشترى غيرها.. حتى بعدما أصبحت ضيفاً دائماً في بيتهم المحاط بنبات اللبلاب في "نيمار"، لم أخبرهم قط بأنني أعرف بشأن زواج "تشيدومير" الأول.. معرفتي بذلك السر الغرامي أشعرتني ببعض القوة.. تسليت كثيراً بالتفكير في الاحتمالات البديلة.. لو أن "أولجا" لم تهجر

"تشيدومير" لأجل والدي، لما ولدت "إيرينا".. ولو لم يهجر أبي "أولجا" لأجل صدر أمني الجميل، لما وُلدت أنا.. تداير القدر غريبةً بحق.

ظهر أبي في حياة "أولجا" من عالم التشرد والفقر.. قبل معرفة "أولجا"، كان أبي يستعمل معطفه كبطانية وينام على سريرٍ دون مرتبة في عليةٍ باردة في شارع "ستراخينيتش بان".. أسلوب الحياة هذا يسبب ألمًا في الفقرات القطنية، ويضر بالكلية ويؤدي إلى اعوجاج العمود الفقري مدى الحياة.. غيّرت "أولجا" ذات العينين اللامعتين حياة ذلك الفنان المتشرد "أندريه جورجيفيتش"، وسمحت له بالعيش في شقتها.

- أراد أن يرد لي الدين بأي شكل.

هكذا أخبرتني عندما جذبتني من ذراعي في الصباح الذي استيقظت فيه في شقتها الموجودة في شارع "فرانتسوسكا".. أغلقت الباب خلفنا وأضافت:

- لقد أعطاني هذه الغرفة كهدية.

- هذه ليست غرفةً بل قصرًا.

وقفت في الشقة الموجودة في "E 36" بشارع "فرانتسكوسكا"، وشعرت بالصدمة، بينما أنظر إلى جدران كنيسةٍ رسمها الفنان الفرنسي العظيم ذو الأصل الصربي، والدي.. بدلًا من رسم القديسين الأرثوذكس، رسم "أندريه جورجيفيتش" رمزًا مقدسًا لديه.. نظرت إلى لوحات أبي الجدارية الجريئة بينما أشعر بالتقرز.. الأبناء ليسوا أفضل الحكام على أعمال آبائهم.. سأروي لكم عن الانطباعات التي انتقلت إليّ من تلك اللوحات الجدارية.

(1)

بالنسبة إليّ، كانت اللوحة على الجدار الأول تمثل تمهيدًا لفهم كل الأشياء في هذا العالم.. من الواضح أن الفنان كان يريد هذه الأشياء بشدة.. هناك معاطف، وأرقام، ومكسرات، ومناقل، ومجسماتٌ للكرة الأرضية، ومفاتيحٌ، ونسيجٌ، وأجهزة تقطيرٍ، وحنفيات، إلخ.. هناك أشياءٌ جاءت من مقلب النفايات، وأشياءٌ من عصرٍ سابقٍ للثورة الصناعية.. رسم أبي هذه الأشياء طافيةً في فضاء اللوحة، وكأنها تخلت عن وظائفها وأصبحت مستقلة.. شعرت أن الأشياء تصرخ: "انظروا إلينا!".. هذه الأغراض المرسومة تسعى للحصول على معانٍ جديدة، كأسراب الطيور المهاجرة إلى أماكن جديدة.. تمتمت لنفسي بينما أنظر إلى لوحة أبي: "كل شيءٍ بلا اسم.. فالتسمية هي نوعٌ من الاعتداء على العالم".

أمسكت "أولجا" بيدي وأكدت لي أن "أندريه" لمس ولعق كل ما رسمه.. كان يتحسس الأشياء بأصابعه عالمًا بأنه سيفقدها في النهاية.. دائمًا ما كان يضع سيجارةً في فمه أثناء الرسم.. كانت "أولجا" تعتبر حبيبها "أندريه جورجيفيتش" رمزًا للقوة المقاومة للحضارة.. بالنسبة إليها، كان والدي جامحًا كالوحوش.. كانت "أولجا" تلقبه بـ"حبيبي الهندي الأحمر"، لأنه كان يرسم وهو عارٍ ويمسح الفرشاة على جلده.. كان يقول لها: "أنا أرسّم بحرصٍ لكي يظل رسمي ممتعًا حتى بعد مائة سنة".

(2)

على الجدار الثاني هناك لوحة تفور فيها المياه وتندفع عاليًا.. تتبّع الفنّان النقط التي وصل إليها ارتفاع الماء فوق السطح.. ورسم عندها هياكل تتكون وهياكل تتفتت.. رسم في الأطراف عيونًا تطير بأجنحةٍ شفافة تشبه أجنحة حشرة اليعسوب.. رسم في المنتصف إطارًا قديمًا مبهرجًا بداخله "أولجا" بشكلٍ لطيفٍ ومتقن.. كان هذا بورترية لـ"أولجا" وسط عالمٍ ينهار.

تذكرت "أولجا" أنه حتى في الأيام الباردة لم يرتدِ "أندريه" شيئًا سوى بطانية يلفها حول جسده بينما يرسم.. غالبًا ما كانت تجده واقفًا عند النافذة يستمع إلى أجراس الترام.. في أثناء النهار كان يتأمل قبة كنيسة "أليكساندر نيفسكي" المقابلة للمبنى.. خلال الليل كان يستمع إلى حفيف شجر الجميز.. أحيانًا كان يطلب من "أولجا" عدم الدخول عليه طالما يرسم.. وعندما تدخل عليه أخيرًا يقول لها:

- عندما أكون وحدي أرى أشياء لا يراها غيري في بلجراد أو العالم.. أراها لأنني... وحش.

تسأله "أولجا":

- حسنًا إذًا.. ماذا ترى حين تكون وحدك؟

يجيب "أندريه":

- أرى يومًا منسيًا من الماضي، لكنه يبدو غريبًا وكأنه من المستقبل.. أرى على السطح المقابل قطعًا ينتفض ثم ينفجر ويتحول إلى دخانٍ أسود.. انبعث النور من نوافذ البيوت الساهرة لينير مباني حي "دوركول".. في ذلك الوقت اختبأت الفراشات في شرانقها.. وفتح الجنين عينيه في الرحم بانتظار لحظة ولادته.. افترس عنكبوتٌ ضخماً كلبًا في الشارع.. ظهر الرب والقديس "بطرس" المتنكران في شكل شحاذين يجوبان العالم، وطردا العنكبوت.. ثم جاء الكناسون ونظّفوا الشارع.. فاح الشارع المبتل برائحة زكية.

علقت "أولجا":

- لم أعلم أنك شاعر.

- نعم، أنا شاعر.

هكذا رد "أندريه" ثم عاد إلى الرسم.

(3)

رسم "أندريه" على زجاج النافذة مدينةً مكونة من أطلال.. هناك حمامٌ عام ضخماً تفوح منه رائحة البول بقوة.. استخدم "أندريه" فضلات الطيور ليرسم سماء بلجراد التي تعلو مبانيها الإسمنتية.. تبدو سماءً ميتة أو مخدرة.. مجرد النظر إليها يشعرك بالنعاس.. وأسفل تلك السماء، هناك المدينة ذات اللون الرمادي بكل درجاته.. الحمّام والمباني باللون نفسه.. كل ما في اللوحة يبدو وكأنه مصنوعٌ من الخامة نفسها.

علّقت "أولجا" حين انتهى "أندريه" من رسمته:

- هكذا يكون حي "دوركول" ظهر الأحد.. الشيء الوحيد الناقص هو سماع أغاني من النوافذ.

رد "أندريه":

- أنتِ لا تفهمين الأمر جيداً.. تؤمنين بحقيقة الأشياء حسب تسميتنا لها وليس حسب رائحتها أو ما ستصبح عليه... في هذه اللوحة، تجتمع وحوش العصور الوسطى مع الخصائص الفنية لعصر النهضة.

تبدو المدينة التي رسمها "أندريه" وكأنها تعرضت لانفجارٍ نووي.. إنها مدينة بلجراد في نظر متشردٍ تربَّى في الشوارع أثناء الاحتلال وسرق الفحم من مخازن الألمان.. في عالمٍ غارقٍ في اللون الرمادي، الظلام يولد ظلامًا، وكل العيوب تزداد وضوحًا.. هناك شرٌ خفي في لوحة "أندريه جورجيفيتش" التي تصور ظهر الأحد في المدينة.. يبدو لي أن أعمال أبي كلها هي تعبيرٌ عن الحالات المرصية التي احتلت كيانه.

لأن...

(4)

لوحة الجدار الرابع ستصدم المشاهد بسبب افتقارها الشديد لأي لمسةٍ من البراءة.. بالتأكيد من رسم هذه اللوحة كان يتنفس ببطءٍ شديد لكي يتحكم في أعصابه.. على الجدار الرابع من هذه الغرفة السحرية، زحف على اللوحة كل ما نخافه ونكرهه.. خرجت من ذاكرة الفنان الجثث التي حملها نهر "سافا" من معسكر "ياسينوفيتش" للإبادة الجماعية.

كاد الفنان يفقد أعصابه بسبب الأشياء المقززة التي رسمتها فرشاته.. رسم أشكالاً سميكةً وضبابية، سيسميها نقاد الفن لاحقاً بـ"استعارات الخطر والشر".. غضب من تلك الأفعال المرعبة، فرسمها خطرًا وشريرة.. سر تميّز "أندريه" هو أنه لم يحتفظ بتلك الذكريات بداخله.. كان في جانب الشيطان ويتصرف كتابعٍ بسيط له، لذلك ظن أن الشيطان سيحميه.. ظن أن فعل الرسم سيفصله عمّا يرسمه، وأن لوحاته ستخيف المشاهد فقط.

سألته "أولجا":

- لماذا ترسم هذه اللوحات البشعة؟

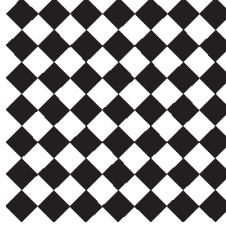
- زوجك السابق، "تشيدومير بويوفيتش"، كان شيعويًا وله مثاليات.. كان يُجَمِّل العالم.. وماذا صنع في النهاية؟ العالم الذي أقوم أنا برسمه!

نظرت إلى لوحة والدي على الجدار الرابع وتساءلت.. ما تلك الكائنات ذات الأذرع الرفيعة والأجساد الطيفية؟ ما تلك الكائنات السماوية مزدوجة الجنس ذات الرؤوس الشبيهة بالمشروم؟ تلك الهياكل تشبه جثثًا متحللة غطتها فقاقيع الصابون وتحولت إلى مادة هلامية.. هناك أشكال حياةٍ عضوية مقززة تحيط بها وتختلط معها.. كان المنظر أشبه بأمعاءٍ مختلطة مع رغوة صابون.. هناك أيضًا كائناتٌ سماوية لونها رمادي مزرق ووردي، وجوهها غريبة ولها مخالبٌ في أقدامها.. وجوهها المنتفخة لم تظهر اهتمامًا بأشكال الحياة الأخرى.

بمجرد أن انتهى "أندريه" دعا "أولجا" لترى لوحته:

- انظري إلى هذه البراءة!

تاريخ المغول السري



سألت "أولجا" عن أصدقاء أبي.

أخبرتني أن له صديقاً شاباً يلبس نظاراتٍ ضخمة ويصفونه بأنه "نسخةٌ من "دافنشي"، لكنه قليل الشأن في عالمنا البسيط وسط العصر الحديث المتهدم".. صديقي آخر كان يرسم على المظلات، ويستخدم أغشية البلاعات لطباعة أشكال، وذلك ليخلق طابعاً فريداً لبلجراد.. وهناك صديقي كان يعاني النحافة مثل كلبٍ هزيل، ويقول: "نحن ملزمون أخلاقياً باكتشاف تركيبة الأمور الأساسية التي يعتمد عليها هذا العالم".

من ضفاف نهر "سافا" الموحلة، جمع أصدقاء أبي الأخشاب التي لفظتها المياه على الشاطئ.. يقولون إنها منحوتاتٌ طبيعية صنعها النهر..

صوروا أنفسهم وهم يرتدون أزياء غريبة ويكشرون.. كانوا يصرون على أن بلجراد هي مركز العالم السري، وأن "بيت لحم" مجرد نقطة صغيرة على الخريطة.. استخدموا جرامافون رخيصةً وشغّلوا موسيقى تحمل شوقاً إلى الغابات مع القليل من أصوات الطيور الاستوائية.. استعانت "أوما سوماتس" أحياناً بصوتها الرنّان لتقليد أصوات الطيور، وتسجيلها على الأسطوانة، وأحياناً كانت تزمجر وكأنها ممسوسة.

لو صدقنا قصص "أولجا"؛ فأبي وأصدقائه كان لهم مقعدٌ خاص في حديقة "كالميجدان"، حيث كانوا يجتمعون بعد منتصف الليل.. في الصيف، كانوا يتسلقون بوابات الحصن نزولاً ويسبحون إلى "جزيرة الحرب" ذهاباً وإياباً.. وفي الخريف يركبون قوارب مسروقة ويجدّفون في الضباب.. أمّا عندما يتجمدون برداً في الشتاء، كانوا يدفنون أنفسهم في المكتبة الفرنسية أو فندق "الإمبراطور الروسي" أو بار "بريشين سيلار".. ذهبوا إلى سينما للأفلام القديمة لكي ينسوا العالم لمدة ساعتين.. جلسوا يشاهدون أفلام الأبيض والأسود.. أنّت مقاعد السينما الخشبية؛ بسبب انفعالهم المكتوم وهم يشاهدون فيلماً من إخراج "فيرمير" من مدينة "ديلفت".. في سينما الأفلام القديمة، شاهدوا فيلماً من إخراج "أيزنشتاين".. كان بطله يرتدي نظاراتٍ مشروخة بسبب احتكاك رصاصةٍ بها، أمّا الممثلات فكن من زمن العشرينيات حيث الأفلام الصامتة، ولا صوت فيها غير صوت البيانو في الخلفية.. هناك أيضاً ملصقٌ ضخم فيه "تشارلي تشابلن" يغمز بعينه.. بعد ذلك خرجوا إلى الشارع وسط ظلال الليل.. وقف "إنجريد بيرجمان" و"همفري بزجارت" يتبادلان القبل بجانب بوابة

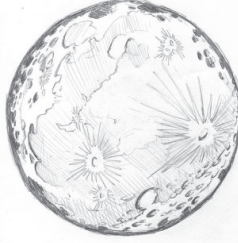
السينما.. "جيرارد فيليب" و"ميشيل مورجان" كانا يفعلان المثل بجانب البوابة الثانية.
عاش والدي وأصدقاؤه في الأقبية كالفئران أو المسيحيين الأوائل الذين اضطروا للاختباء.. كما عاشوا في أسقف المباني كالحمام أو الكائنات السماوية.. في الوقت الذي تم انتقاد بائعي الصحف في بلجراد لنشر التشاؤم في حوار بلجراد الشيوعية، كان والدي وأصدقاؤه يقرؤون الكتب النادرة مثل "تاريخ المغول السري".. لقد كتبوا تاريخهم الخيالي أيضًا.. أشعرهم تزوير التاريخ بالقوة.. أنشأوا متحفهم الخاص وفردوا نسيجًا أزرق ناعمًا ليعرضوا عليه مجموعة من الحنفيات والمانيكانات التي وجدوها في القمامة.. كان متحفهم بمثابة ملجأٍ للأشياء.. فالحنفية المستخرجة من القمامة كانت تُعتبر فراشة جميلة معروضةً في كتالوج.. كل الأشياء التي لم تعد نافعة أصبحت نجوم المتحف.. تلك الأغراض تم انتشارها من القذارة وإضفاء قيمة لها.. قاطع النقاد هؤلاء الفنانين واتهمهم بأنهم "نبأشو العالم البرجوازي"؛ لأنهم نبشوا القمامة وانتشلوا هذه الأغراض.

يعشق أصدقاء أبي المحاورات العميقة.. آمنوا بأن الرجل العصري حائرٌ وعاجزٌ عن اتخاذ قرار، إنه مترددٌ بين رمزين في زمنه.. هذا ملخص نظرية "Buridan's ass".. على يساره قلعةٌ ماسية يشبه بلاطها رقعة الشطرنج، وفيها مرايا كريستالية، وتتردد فيها الموسيقى، أمّا على اليمين، فهناك جبلٌ من القمامة والعظام البشرية.. القلعة والقمامة مرتبطنان عبر الإنسان، وكأنه صلة الدم بينهما.. آمن أصدقاء والدي مع القديس "ديونيسيوس

الأريوباغي" أن الرب قادرٌ على إضفاء أهميةٍ على أقل الأشياء قيمةً.. الأشياء المنتشلة من القمامة يمكنها أن تُستخدم لتزيين القلعة التي ترمز للحضارة.. قال أصدقاء أبي: "على الإنسان أن يحب الأشياء المحطمة أيضًا.. يجب أن يحب شيئًا معيويًا لكي يكتشف الحقيقة".

أعترف أن انطباعي عن أبي وأصدقائه مبني على قصص "أولجا".. على حسب ظني، احتوى عالم أبي دائمًا على شيءٍ مصاحبٍ للفن، شيءٌ محزن وكثير وآثم وطموح.. أشعر أن تاريخ جدي السريالي يعيد نفسه، هناك محاولة لتجنب مشكلات الحياة العادية عن طريق الابتكارات المجنونة.. لكن تلك المشكلات تحاصر الإنسان حتمًا إن رفض مواجهتها.. ربما أكون سيئًا لأنني لم أتقرب قط من أبي.. الفجوة نفسها كانت بين "أندريه" وجدي "تيوفيل".. غلّف النسيان مدينة بلجراد التي عاش فيها أبي في الخمسينيات والستينيات، مثل الحمم التي غلّفت مدينة "بومبي".. نحتاج إلى عالم آثارٍ لكي يعيد بناء وتعزيز الماضي حتى نللم أشلاء الحياة في بلجراد.. أنتقد أبي بقسوةٍ شديدةٍ لأنه رفضني.. لكن أيًا ما يكون، أعتقد أنه في زمن أبي كان هناك شيءٌ خفي في جوهر الفن، شيءٌ غير طبيعي وزائف.. إن الغموض يأسرنا.. هذا الشيء عرضةٌ للهلاك، إنه يخيفنا ويحزننا ويسيطر علينا حتى نعجز عن الكلام وكل ما يمكننا فعله هو مسح دموعنا... إنه شيءٌ يغزو عقولنا، لكنه ضعيف ويشعر بالخيانة والعجز والضياع واليأس..

لكن بالطبع هناك شيءٌ عظيم في عالم أبي.



"ليلة أمس غمزت للقمر عبر التليسكوب.. إنه ليس مجرد جماد.. لقد ظل يبهرني وهو يسبح بدرامية وسط الفضاء السرمدي". - "ليونيد شايكا"، القمر.

ألقي باللوم على القمر لأن "أولجا" أحببت أبي.

تقع بلجراد في مكانٍ معزولٍ من أوروبا التي تشارك القمر في الحدود، لذلك يحكم القمر بلجراد وشعبها بسطوةٍ شديدة.
إنه ذنب القمر.

ما كانت "إيرينا" الفاتنة ستولد لو لم تحب "أولجا" والدي "أندريه".. يقول مثلُ إيطالي إن القمر هو من يقود المرأة للرجل.. إنه ذنب القمر.. تقابل "أولجا" و"أندريه" في إحدى ليالي يوليو 1960 وهما يتمشيان في حديقة "كاليميجدان".. في تلك الليلة كان يمكن لمن يقف على أسوار حصن بلجراد أن يرى حتى مدينة "بانتشيفو".. غطى ضوء القمر قمم الأشجار والأسقف.. كان قويًا لدرجة أن المروج والشوارع بدت وكأنها

مغطاةً بالثلج.. تسلقت القطط فوق الأسقف حتى تقترب من القمر.. إنهم يطئنون مصابيح الشارع في بلجراد لأنه يمكن القراءة تحت ضوء القمر.. جلس شخصٌ متقاعد في حديقة "كالميجدان" ومعه جريدة "بوليتيكا".. ابتسم وهو يقرأ نعي أحد الأشخاص مات قبله.

بدأت حشرات الليل تغني لأن ضوء القمر أربكها.. كانت "أولجا" و"أندريه" يجلسان على مقعدهما الخاص في حديقة "كالميجدان".. ساعدت الأجواء على تقريبيهما وانجذابهما لبعضهما.. في تلك الليلة، كانت الانجذاب بينهما أقوى من الجاذبية الأرضية.. ظلت الرياح ترفع جيبة "أولجا".. ارتفع البدر في سماء الحديقة التي أنعشتها ونسقتها رياح أمس.. تشبث "أولجا" و"أندريه" ببعضهما لكي لا تسحبهما جاذبية القمر.. ظلا يتبادلان القبلات مرارًا وتكرارًا.

سار "أندريه" و"أولجا" حتى الصباح في الشوارع المضاءة بنور القمر.. كانا وحدهما في المدينة الصامتة.. حتى "آدم" و"حواء" لم يشعرا بهذه العزلة بعد طردهما من الجنة.. كانت الحشرات تغني بعد منتصف الليل بسبب ضوء النهار الزائف.. صفر "أندريه" بخفوتٍ وارتجفت "أولجا".. فجأة حدثت معجزة.. جاءهما كلبٌ شارد وتبعهما.. بدوا كعائلة تنزه كلبها.. سارت "أولجا" و"أندريه" بجانب بعضهما بتعجبٍ شديد تلك الليلة.. ظل القمر ناشراً سجاداً من الحرير الأبيض في شوارع بلجراد.. لم تتوقف "أولجا" و"أندريه" عن تقبيل بعضهما.. ومن الملام؟

إنه القمر.

خطابٌ حزينٌ جدًّا إلى "إيرينا"



عدت من ماضي أبي العجيب إلى زمني الحاضر بكل ألم.. بينما كنت أفكر في علاقة حب "أندريه" و"أولجا"، فكرت في قصة حبي أنا.

أوه، هل تذكرين يا "إيرينا"؟

لا أستطيع القول إننا اجتمعنا كثيرًا قبل أن أقابلكِ صدفةً في متنزه "زيمون" ثم أخذكِ إلى برج "سيبينيانين يانكو".. مرت أربع سنواتٍ طوال منذ 14 إبريل 1988، حين تمسينا في ضفة نهر الـ"دانوب" بجوار القوارب المسط على أشعة الشمس.. شيءٌ ما حثنا على أن نلتصق ببعضنا أثناء السير.. بينما كنا نزيل بعض الغبار الذي علق بأنفينا، رأيتكِ بشكلٍ لم أره من قبل.. وكأنكِ أزلتِ قناعكِ من أجلي فقط.. وكأنكِ خرجتِ

من الشرنقة لتصبحين فراشة.. أسميتكِ يومها "إيرينا المدهشة".. لم تتوقفي عن إدهاشي منذ ذلك الوقت.

في عيد ميلادي الثامن عشر، قمتي بتقبيلي لتثيري غيرة "بوريس".. في حفل التخرج، ارتديت فستانًا بلون النبيذ الأحمر.. بدوت مغرية وفاتنة مثل تماثيل النساء في المعابد الهندية.. أذكركِ في الثانوية بأنكِ كنتِ الفتاة ذات العينين الأمريتين والتي يصعب إضحاكها.. أمّا "إيرينا" الأخرى فتضحك وكأنها تحرر نفسها من شيء ما.. عرفت فيكِ المرأة التي تُعد أفضل صوص بيتزا في العالم، والتي تقود مثل سائقي التاكسي، وترتدي ستراتي وأحذيتي وقمصاني.. "إيرينا" الضاحكة هي الفتاة التي عشقتها.

في محادثاتنا الأخيرة شعرت كأننا لم نعد متفقين على شيء.. وكأنه لم يعد لدينا ما نتكلم عنه.. وكان الفراشة التي تحولت إليها من أجلي عادت إلى شرنقتها.. لا أستطيع إنكار التغيير بعد الآن.. كان أسهل عليّ الاستمرار في التصديق بأن العصر الذي عشناه مجنون، لكننا لم نكن كذلك.. لم نكن كذلك يا "إيرينا".. صرخت بهذا التساؤل.. لكن لم أستقبل منك سوى الصمت.. لا أظنني أوضحت كلامي، لأن الأفكار مشوشة في عقلي.

ما أقوله يجرحني.. من المؤلم أن أصف تحولكِ إلى فراشة ثم العودة إلى شرنقة.. أنت تكونين... بل أنتِ كنتِ... لا، أنتِ تكونين... حب حياتي.

هل تذكرين حين تحدثنا عن أفضل أوقات حياتنا في منزل "زورا"؟ قلت إن أفضل وقتٍ في حياتي هو عندما تمشيت ساعتين في جزيرة "كارتشولا".. كذبت.. أفضل وقتٍ في حياتي هو عندما تمشيننا معًا في حي "أوشتشبي".. أجمل لحظةٍ هي عندما خرجنا من متحف الفن المعاصر،

وبدت بلجراد وقت الغروب كمنحوتةٍ سابحة في سائلٍ برونزي.. نظرت إلى عينيكِ،
ووقعت في غرامكِ كأنني أغرق في قلب البحر.

"لكن القدر ليس له رغبات".

أستطيع سماع الصوت الأَجَش لأحد المغنين في الراديو.. إن أغاني الحب تخنقني.

"إيرينا"، ما من شيءٍ على ما يرامٍ بيني وبينكِ.



عن سقوط إحدى ركائز العالم



هذه ليست مذكرات، بل هي روايةٌ عن الأشخاص الذين مثّلوا بلجراد بالنسبة إليّ.. هذه روايةٌ عن التغيير الذي خشيته لأنني لم أستوعبه.. التغيير الذي أقصده لم يؤثر فقط في العالم الكبير بل أيضًا في العوالم الأصغر، مثل حياتنا الخاصة.. أولًا، لم يعد "باين" معنا.. ثانيًا، بدأت أتساءل إن كانت "إيرينا" ما زالت تحبني.. ثالثًا، لاحظت بضيق التناقض الذي حل بعلاقة "بوريس" و"زورا".

سابقًا، كان "بوريس" يقول إنه يحب "زورا" أكثر ممّا يحبنا جميعًا.. عندما سافر إلى إسطنبول في مهمة تهريب، عاد حاملًا قطًا أبيض ليرافق "ميمي"، الكلب الـ"كوكر سبانيل" الخاص بـ"زورا".. أطلقت "زورا" على القط اسم "صن".. كان القط التركي يملك عينين بلونين مختلفين، إحداهما زرقاء كالمحيط والأخرى خضراء كالمزرد.. كان القط "صن"

يحك نفسه بكل ما حوله حتى الهواء.. ذات مرة مضغ قلم رصاص قديم ثم جحظت عيناه الجميلتان وكأنه سمع شيئاً مذهباً فجأة.. بعد ذلك أخذ يطارد ذيله واختبأ من مطاردٍ وهمي.

فسرت "زورا":

- القطط تندمج كثيراً في عالمٍ خيالي.

تشابه "زورا" مع قطها في هذه النقطة.. كانت تصر على "بوريس" و"إيرينا" وأنا بأن هناك ملائكة في بلجراد.. شرحت لنا بأن تلك الملائكة كانت مثل النوارس على نهر الـ"سافا".. فتلك النوارس كان يمكنها الاستمتاع بالرياح الدافئة في البحر المتوسط، لكنها اختارت رياح بلجراد لأنها مميزة.. ظهر المسيح لـ"ماري المجدلية" لأول مرة لأنها احتاجته بشدة.. الملائكة التي في بلجراد تعرف أننا بحاجة إليها أكثر من أي شخص في العالم.. لو صدقنا "زورا"، فهذه الملائكة تجعل أهل بلجراد يشاهدون أحلاماً كل ليلة، وكأما تشغل آلة عرض "بروجيكتور".

بينما يعرض الملائكة أحلاماً لأهل بلجراد النيام، يواصل ضباط الجيش لعب البلياردو كما في نبوءات "ريبيكا ويست".. آلاف الناس في مدينتنا يقفون في طوابير أمام السفارات بانتظار مصيرهم.

قالت "زورا":

- تخيلوا مدى الروعة لو كان هناك سفاراتٍ لأراضي العمالقة والأقزام في بلجراد.. عندها نستطيع الهجرة إلى أرض الأقزام، حيث الجان يعزفون الموسيقى بآلاتٍ مصنوعة من النباتات.

قال المؤلف الروسي "أكسكوف" عن نفسه إنه كان... خيالاً.

تستطيع "زورا" قول الكلام ذاته عن نفسها.. إنها تعيش دوماً في أماكن لم تعيش فيها من قبل، في الكتب والأحلام.. سافر "بوريس" كثيراً، لكن أسفاره لم تغيّره مطلقاً.. وعلى العكس، كانت "زورا" دائماً عاشقةً للسفر على الرغم من أنها لم تسافر مطلقاً.. أحببت التحدث عن الفيلسوف الإيطالي "بيكو ديلا ميراندولا".. في الواقع، عاشت "زورا" في شقةٍ عاديةٍ في بلجراد، ووضعت كتباً عن تاريخ الفن في مكتبة احتلت نصف غرفة المعيشة.. تقع الشقة في الدور العلوي لمبنى عالٍ أمام النافورة القديمة.. يسمّى القصر الإمبراطوري الياباني بـ"مكان تحت الغيوم".. هذا هو الاسم الذي اختارته "زورا" لشقتها.

في الأيام الغائمة تكون عينا "زورا" رماديتين مثل "أثينا" ربة الحكمة.. وفي الجو المشمس أو أثناء غضبها، تكون عيناها خضراء.. امتازت عيناها بملاحظة الأمور البسيطة الطريفة.. لاحظت "زورا" ذات مرة شاحنةً محملة بالقمح المغطى بأسراب الحمام.. ولاحظت أن الأشجار المزهرة بالكامل تشبه الأشباح في الليل.

كان ربيع 1992، وما زال العد التنازلي للألفية الجديدة مستمرًا.. بعد حروب سلوفينيا وكرواتيا، جاءت حرب البوسنة لتزيد "الطين بلة".. لم أستطع التزام الصمت أكثر، لذلك بدأت بنشر مقالاتٍ مناهضة للحرب في جرائد مستقلة.. تأملت "زورا" أكثر مني بسبب الحصار الموجه وقتل سكان "سراييفو".. كانت تشعر بالعار من كل تلك الأحداث المشينة.. بدأت تشعر وكأنها مشاركة في الجريمة لمجرد إنها تشتري خبزاً وزبادي

كل يومٍ في المدينة التي ولِدَت فيها.. أمّا "بوريس"، فقد تحول إلى قوميٍّ وبدأ يتشاجر مع "زورا".. لم يخطر ببالنا قط أن يحدث هذا.

لامها قائلاً:

- لقد تغيّرتِ.

ردت عليه "زورا" بغضب:

- وكذلك أنت.. القوميون أمثالك يجعلونني أريد الهروب إلى أي مكان.. ليس لديهم الحق في مضايقة "الحالمين" الذين يؤمنون بوحدة العالم، وانتماؤهم للأرض كلها.

ابتسم "بوريس" وقال:

- بالنسبة إلى الكروايتين والمسلمين والألبان الذين ينتمون لقومياتهم، أنتِ لست "عالمية" بل حمقاء.

- عندما أفكر فيما يحدث في مدينة "سرايفو"، أشعر بالعار لكوني على قيد الحياة.. هل تريدنا أن نتظاهر بأن لا شيء يحدث، مثلما حدث عندما ذبحتنا منظمة الـ"أوستاشي" في الحرب العالمية الثانية؟

هز "بوريس" كتفيه وقال:

- من الأفضل لنا أن نتظاهر.

هزت "زورا" رأسها وقالت:

- هذا خطأ.. خطأ.. خطأ فادح.. لا يمكننا أن نتجاهل من ورطونا في هذا الرعب يا "بوريس".

قال "بوريس" بهدوء:

- اسمعي، أنا من هنا.. أنتمي إلى هنا.. هذه بلادي وستظل بلادي سواء كانت على خطأ أم صواب.. لم يؤلف الصرب هذه المقولة، بل فعل الإنجليز.. كان "ثيودور روزفلت" يشك في الناس الذين يحبون بلادًا أخرى وكأنها بلادهم.

ثم ابتسم وأضاف ساخرًا:

- مشكلتك أكبر من كونك تنتمي إلى البلد الخطأ.. أنتِ كشجرة تفاحٍ تفضل أن تثمر برتقالًا.. هذا هو تعريف "العالمية" التي تؤمنين بها.

قالت "زورا" بجديّة:

- "بوريس"، حاول أن تفهم موقعي.

- احترسي من موضوعيتك يا "زورا".. إن قومك لن يحبونك إن لم تمدحهم.. والآخرون لن يقبلونك مهما فعلت، فهم منحازون ضدك من الأساس.. هناك مثلٌ أمريكي يقول: "لو لم تكن جسرًا، فلن يدوس الناس عليك".

كررت "زورا" طلبها:

- "بوريس"، حاول أن تفهم موقعي.

- أنا أفهمك، لكن لا أفهم من تدافعين عنهم.. الأحق هو من يفهم موقف عدوه لأي سببٍ آخر غير هزيمته.

وهكذا في شقة "زورا" بالدور العلوي، خَلَّت الحرب توترًا لم يكن بيننا من قبل.. استمعت إلى "بوريس"، وتساءلت للمرة المليون إن كنا حقًا نعرف الأشخاص الذين نظن أننا نعرفهم جيدًا.. إن الفيلسوف الإيطالي "بيكو ديلا ميراندولا" محقٌ حين قال إن الإنسان معجزة.. أردت معرفة إن كان "بوريس" يؤمن حقًا بما قاله عن حرب البوسنة، أم أن له أفكارًا أخرى خفية.. لكن من الواضح أن "بوريس" لا يسمع رأيًا سوى رأيه.

توسلت إليه "زورا" للمرة الثالثة:

- أرجوك افهمني.

هز "بوريس" وقال:

- لن أحاول فهمك حتى.. فلتفهميني أنتِ إن أردتِ.

شعرت "زورا" بالصدمة وقالت:

- أنت فاشي إدًا.. لم أقابل فاشيًا من قبل.

لم يستطع "بوريس" تمالك نفسه وقال:

- أنا لست فاشيًا، بل انتهازيًا.

نظرت "زورا" إليه بعينيها الرماديتين وسألته:

- وما الفارق؟!

غضب "بوريس" من هذا التعليق فاندفع قائلاً:

- ماذا تفعلين هنا إن كان هذا رأيك؟ لماذا لا تغادرين؟

ظهر الغضب في عيني "زورا"، وقالت:

- هل تريد إبعادي؟

قال "بوريس" بخفوت:

- لو احتفظتِ برأيكِ هذا فأنتِ من ستبعدين نفسكِ.

ارتجفت "زورا" من الانفعال.. نظرت شذراً لـ"بوريس" بعينين غاضبتين، وأمرته قائلةً:

- اخرج من بيتي!

وقف "بوريس" ببطءٍ وقال:

- حسنًا، لكن تذكري أنكِ من قام بإبعادي.

غادر الشاب البدين الشقة العلوية بهدوءٍ للأبد.. ضاق عالم "زورا" برحيله.. ذكرت سابقاً أن قصتنا تدور عن فقدان الدعم.. لقد سقطت الركيزة الأساسية التي تدعم السماء فوق رؤوسنا.. كما انهارت الركائز التي تدعم حياتنا الخاصة.. كان "بوريس" إحدى الركائز بالنسبة إلى "زورا".. بقت "زورا" في الغرفة معي ومع القط "صن"، وتساءلت ماذا نفعل الآن.. هل نستلقي حول الركيزة المنهاره ونموت مثلما تفعل القبائل في قصة "ميرتشيا إلباده"؟ لم نصمت هكذا طوال حياتنا.. فرّت منا الكلمات كما تفر الكلاب من أطواقها.. سكنت كل الأصوات ماعدا الأصوات الكونية.

نهضت "زورا" وشغلت التليفزيون.. ظهر على الشاشة رجلٌ بلحيةٍ قصيرة يتحدث عن الثروات الموجودة في المعابد.. بعد ذلك جاء "بيكي

بيكيتش" وغنى، ثم ظهرت موهبته الكبيرة في الضحك.. أطفأت "زورا" التلفزيون،
فعدنا إلى صمت القبور.

أخيراً قالت "زورا":

- هناك مجنونٌ في كل حرب.. فلتذهب إلى "بوريس" يا "زيوس"، ولتشفه أيها
المسيح ليفهم تعاليمك.

الطريقة التي عبست بها "زورا" أوضحت لي أنها لا تستطيع التعبير عمّا تريد قوله.
حاولت مجددًا:

- أشعر بالإحباط من البشر.. أفضل لو كنت حيوانًا.

فتحت ذراعِيَّ بعجزٍ وقلت:

- الحيوانات أيضًا تلتهم بعضها.. حتى في النباتات هناك أنواعٌ سامة.

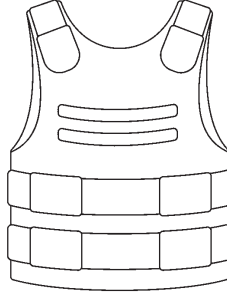
صاحت "زورا":

- والهواء فيه نيتروجين.

نظرت عبر النافذة وهمست:

- هذا كل ما لدينا.

"بوريس" في الحرب



بعدهما بدأ حصار "ساراييفو" بقليل، ارتدى "بوريس" سترة واقية من الرصاص وذهب إلى البوسنة.. سمعت أنه و"دادا" و"دابل هالك" باعوا البنزين والسيارات والكمبيوترات المسروقة.. حاولت الدفاع عنه أمام "إيرينا" فقلت:

- كان يقاتل دفاعاً عني حين كنا صغاراً.

اعترضت "إيرينا" قائلةً:

- بالنسبة إليّ، هو مجرمٌ في عصابة.. قتاله من أجلك لا يغيّر الواقع.. التورط مع العصابات ليس شيئاً رومانسياً بل هو كارثي؛ فالناس يُقتلون.

عندما عاد من البوسنة المغطاة بالدماء والدخان اللذين ساهم "بوريس" في انتشارهما، لم يرغب في رؤية أحد حتى أنا.. لكنه أرسل لي خطاباً طويلاً كتبه في أثناء الحرب.. "بوريس" كان متعلماً.. لا أعرف لماذا يفاجئني هذا، أذكر أنه حصل على جائزة من الدولة وهو في المرحلة الابتدائية على مقاله "الحدود الموصلة".. أذكر عندما كان ذلك الفتى أحمر الشعر يقرأ مائتي صفحة في اليوم.

كتب "بوريس" في أثناء الحرب:

"من المهم أن تدرك أنه لا وجود للعدالة ولا للآلهة، عندها يمكنك أن تعيش حياة الرفاهية.. هل تتساءل لماذا جئت إلى هنا؟ المال في كل مكان، وكل ما عليك فعله هو الانحناء والتقاطه.. لا أريد أن أعاني مثل جماعتي.. سأحصل على أول مليون لي عندما أصبح في الثلاثين من عمري".

تركت الخطاب وقلت بصوتٍ يشبه صوت الممثل والمخرج البوسني "بورا ستيفانوفيتش" "Borislav "Boro" Stjepanović":

- يا له من شابٍ فريد.

أمسكت الخطاب مجدداً.

كتب "بوريس" إنه يعمل مع الأخوين "تودور أوديتش" و"بانيو أوديتش". إن وجه "تودور أوديتش" النحيل ذو ملامح حزينة، أمّا "بانيو" البدين يصدر صوتاً بأسنانه وشفتيه دائماً.. يصفه "بوريس" بأنه "شخصٌ لا يُحتمل، لكنه عبقرى في التعامل مع السيارات المسروقة

والمستوردة، وهو صديقي"، أي صديق "بوريس".. أحب "بوريس" والأخوان "أوديتش"
القيام بأعمالهم في بار "بيكنيك".. هناك دميةٌ لحيوان الغرير وهو يقف على فرعٍ
معلقٍ على الجدار.. ومثبٌ فوقه بروازان فيهما بطاقتان بريديتان لمدينتي ليننجراد
وسيدني.. كانت الموسيقى صاخبة، والمغنية تمرر يديها على فخذها وهي تغني:

"ألوم الآخرين على بكائي،

وعلى سكرك في الليالي.

ألوم الآخرين...".

اقتربت جرسونة من الطاولة التي يجلس عليها أربعة شبانٍ مسلحين وسألت:

- ماذا تريدون يا فتيان؟

رفعوا أيديهم وصاحوا بصوتٍ واحد:

- معاشره النساء!

بدت الصدمة على وجه الفتاة الجميلة المغطى بالمكياج، وقالت:

- تحدثوا بجديّة يا أولاد.

تركت الخطاب وضحكت.

كتب "بوريس" أن الأخوين "أوديتش" كانا بمثابة الأب الروحي لمجرمٍ عتيّد من

مقاطعة "بالي".

على عكس سياسي بلجراد الذين يقبلون الرشاوى حتى ولو من سفّاح مجنون، كان "بوريس" مضطراً لكسب عيشه في بار "بيكنيك" مع الأخوين "أوديتش".. الدليل الوحيد على وجود عالمٍ كامل خارج هذا البار المعبّأ بالدخان هو البطاقتان البريديتان لمدينتي ليننجراد وسيدني.. أمام أعين دمية الغرير المعلقة، يتناقش "بوريس" مع "بانيو" و"تودور" بخصوص بيع سيارة.. أحب الأخوان "أوديتش" الغناء الكرواتي التقليدي.. كان "بوريس" يقول لنفسه: "ومن يهتم! فليذهبا ليغنيا بينما أحصل على بعض النقود".

حتى "تودور أوديتش" لـ "بوريس" عن مقتل أخوين له.. أخبره أنه قبل الحرب كان سكرتيراً في مدرسةٍ لتعليم تصميم الجرافيك في مدينة "ساراييفو".. قال "تودور" لـ "بوريس":

- في ذلك الوقت كنت سأقتل كل من يتحدث بالسوء عن الرئيس "تيتو".. أمّا الآن فيمكنني قتل نفسي لأنني كنت مغفلاً.. لم أعرف حتى بأنني صربي إلا عندما أخبرني هؤلاء الناس..

ثم أشار إلى المدينة وأضاف:

- الآن أصبحت أعرف.. هناك أشخاص مثلي في هذه التلال، أشخاص يعرفون من هم.

مسح شاربه وأضاف:

- هل تعرف متى سأصدق أن الدول الغربية في صفنا؟ عندما أرى طفلاً صربياً يبكي على التلفزيون الأمريكي.

هو لا يقرأ نهائياً للكاتب الأمريكي "جويس سترونج"، لكن لكليهما الآراء نفسها.. وهي أن أول مدينة في العالم أسسها أول قاتل في التاريخ، وأن المدن هي أساس الشر.. كان لـ"تودور أوديتش" شغفان في الحرب؛ الأول كره شديد لمدينة "ساراييفو"، والثاني حب شديد للدين.. على الرغم من حزنه الدائم ودعائه لربه، لم يكن "تودور" غيباً.. ذات مرة حاول أحد حثالة بلجراد خداعه، وبعدها سأله "بانيو" بقلق: "ماذا ستفعل الآن؟".. فأجابه بوجه عابس: "إنها مشيئة الرب!".. في الأسبوع التالي انتشلوا رأس ذلك الحثالة من نهر "درينا".

كان "نوفاك"، ابن تودور، صبيًا وسيماً جداً في السادسة عشر من العمر.. وبينما اتسم وجه والده بالكآبة، كان "نوفاك" مبتسماً دائماً.. اعترف "بوريس" في خطابه بأنه يخشى من أن الروح المرححة ليست السبب الوحيد خلف ابتسامة الفتى.. ربما كان هذا سبب حزن والده المزمّن.. كان "نودور" يعانق الفتى فيحتك شاربه بخديه، ويقول له:

- أنت بطلٌ في نظر جدتك! سوف تهزم جماعة الـ"باليا Balijas".

عندها كان "نوفاك" يجلس بفخرٍ واعتزاز.

قبل الحرب، كان "بانيو" عم الفتى يملك مقلب سياراتٍ قديمة في منطقة "فوجوشتشا".. كانت يدها ضخمتين لدرجة أنه حين يريد فتح علبة السجائر كان يعطيها لـ"نوفاك" ويقول: "افتحها أنت.. فهي صغيرةٌ جداً عليّ".

امتلك "بانيو" سيارة جيب، أعتقد أنها مسروقةً من قوات حفظ السلام وقد أعيد دهانها.. ذات مرة طلب "نوفاك" من عمه أن يقودها، فرد عليه:

- لا تمزح معي.

اختلفت ابتسامة "نوفاك" للحظةٍ ثم أشرق وجهه مجددًا، وطلب من "بوريس" أن يقود سيارته الـ"شيكوي".. استدار "بوريس" إلى "تودور" القلق دائمًا وسأله:

- هل أسمح له؟

- نعم.

قال "بانيو":

- أنا أيضًا سأركب معه.. أريد تجربة سرعتها.

قال "بوريس" في خطابه إن "نوفاك" كان يقود وكأنه يطير.

قال له "بانيو" الجالس في المقعد الأمامي:

- على مهلك قليلًا يا فتى.

أمَّا "بوريس" فكان يجلس في المقعد الخلفي شبه سكران.

ضحك الفتى ورد على عمه:

- حسنًا يا عمي.

خرج عن الطريق الأسفلتي وقاد على جانب الطريق غير الممهّد، فتناثر التراب على الحواجز القريبة.. مروا بقطيع حيواناتٍ أبيض اللون، وعبروا عدة مطبات.

صاح "بانيو" بإعجاب:

- سيارته مزودة بمضادات صدماتٍ ممتازة.

ضحك "نوفاك" وزاد من سرعة السيارة، فانتشرت سحابةً من الغبار الأبيض خلف السيارة التي أصدرت صوتًا صاحبًا ثم انطلقت مسرعة.

صاح "بانيو" بحماس:

- إنها لي!

تشبث "بوريس" بمقعده بينما تتدحرج السيارة الجيب.. في تلك اللحظة أقسم "بوريس" إنه سيغير حياته إن نجا.. هكذا تمتم لنفسه بينما يتدلى رأسًا على عقب.. سحبوه من السيارة وفمه مليءٌ بالزجاج.. فقد "بانيو" ساقه وتوفي "نوفاك".

جلس "تودور" طوال الليل خلف مدفعٍ وهو سكران، وظل يقصف "ساراييفو".

أُصيب "بوريس" بارتجاجٍ في المخ وتم تربيضه في غرفة "نوفاك".. كتب لي بأنه ظل ينظر إلى صورة القديس "سافا" الموضوع على الكومودينو.. إنه الأمير الذي أصبح راهبًا، وهو أول من وصف المنطقة التي عاش فيها بأنها "الشرق في الغرب، والغرب في الشرق".. قبل قرنين

من ظهور فلاسفة العلوم الإنسانية في مدينة فلورنسا الإيطالية، كان ذلك الراهب من عصر التنوير عاكفًا على قراءة محاورات "أفلاطون" .. العينان الزرقاوان في الصورة تظهران رجلًا طيبًا.. مع ذلك كان "سافا نيمانييتش" دبلوماسيًا بارعًا لدرجة أن الجميع وصفه بالمتواضع.. إن كانت هناك كلمة واحدة لوصف هذا القديس الصربي من القرن الثالث عشر، فهي كلمة "دبلوماسي" .. زفر "بوريس" وهو يفكر كيف أن الصرب خسروا تمامًا قدرتهم على التعامل بدبلوماسية.. كان القديس "سافا" يكرر عادةً الجزء الفلسفي من نظرية "فيثاغورث"، ألا وهو أن الآلهة تعيش في بعدٍ يقع بين العوالم.. وادي "ساراييفو" هو الوادي الذي ظل "تودور" يطلق عليه القذائف طوال الليل وهو يبكي، وهو أيضًا إحدى الفجوات الموجودة بين العوالم.

كتب "بوريس":

"نظرت إلى عيني القديس "سافا" الباكيين في الصورة، وفكرت في الوعد الذي قطعته ذلك اليوم الذي كدت أموت فيه.. ثم قلت للقديس: "سامحني" .. لم أستطع إزعاج نفسي بهذا، كنا في حالة حرب.. المال في كل مكان، وكل ما عليّ فعله هو الانحناء والتقاطه.. كيف سيساعدني القديس "سافا" أصلًا؟ ففي هذه الغرفة، كان يبدو سجينًا أكثر من كونه مضيئًا".

عندما استيقظ "بوريس" في اليوم التالي، كان "تودور" ما زال خلف المدفع.. عرض عليه أن يأخذ مكانه خلف المدفع.. رأى "بوريس" في الوادي مكتب بريدٍ أصفر اللون، ومكتبةً مسروقة، وأبراجًا ومآذن.. ثم أطلق النار.. كتب لي أنه في تلك اللحظة، حيث اختلط الدخان بالضباب

فوق الوادي، شعر بوجودٍ قويٍ لإلهٍ ما.. ارتجفت من البساطة الشديدة لهذه الجملة..
وارتجفت أكثر عندما شعرت أن "بوريس" كان على الأرجح في غاية الصدق حين كتبها..
الإله الهندي "شيفا" خلق كونًا يدور في رقصةٍ أبدية، ثم ملأه بطاقةٍ هائلةٍ بإحدى
يديه.. بعد ذلك دمره باليد الأخرى، فانطلقت طاقةٌ رهيبية.. شعر "بوريس" بوجود
طاقةٍ رهيبيةٍ في الدمار الذي سببه.. فأسمى ذلك الدمار إلهًا.

تركت الخطاب وتمتت:

- إلهك هذا لم يكن موجودًا مع الأم التي أربعها الانفجار أثناء جلوسها في أحد
مخابئ "ساراييفو".

في ذلك الصباح وبجوار المدفع، قال "تودور أوديتش" لـ "بوريس" إن أعمالهما ما
زالت قائمة.. فرك "بوريس" يديه بحماس.. لم يتراجع حتى عندما كاد يموت.. فهناك
مئتا ألف يورو من صفقةٍ واحدة، وهذه هي البداية فقط.

وعد "تودور" بأن يدفع لـ "بوريس" ثمن الجيب، ثم وضعه في شاحنةٍ متجهةٍ إلى
بلجراد مع قريبه المعاق.. مرت الشاحنة بغاباتٍ وبيوت.. هناك عكازاتٌ ملقاة على
المقعد.. ظل المعاق يلعن بصوتٍ منخفضٍ أقرباءه الأثرياء "بانيو" و"تودور".. كان يلعن
البوسنيين المسلمين والكرواتيين والصرب بالتساوي.

قال القريب المعاق وهو ينقر بأصابعه على العكازات:

- الكثيرون تعرضوا للقتل أو أصيبوا بإعاقات مختلفة.. ينصحي طبيبي بتناول مسكن الـ"ميثادون".. أتناول منه جرعة كل صباح مع خمر الـ"براندي".. ما المستقبل الذي يمكن بناؤه ببعض المعاقين؟ بنا؟ لا يوجد عكاز من أجل الروح "المعاقاة".

"مذكرات"

في المرأة

أصبحت مواطناً لمدينة "ساراييفو"

بعد قراءة خطاب "بوريس"، حلمت أنه تحول إلى مذؤوب.. وكان يدور حول نفسه ويمشط مؤخرته بمشطٍ أحمر.

وخلفه توجد ساحة بها آلاف القلوب التي رماها الناس لعدم حاجتهم إليها.. لست واثقة إن كانت نعمة أم نقمة أن يستطيع الإنسان رؤية الأمور من أكثر من منظور.. يقولون إن الحمقى مرتاحون في الحياة، لكنني لا أستطيع العيش بهذه الطريقة.. في الحلم كان ظهري لـ"بوريس"، وكنت أضيّع وقتي في النظر في المرأة كما هي عادي في الواقع.. نظرت إلى انعكاس عيني، وفجأة وجدت نفسي أسقط في العالم الموجود على الجانب الآخر من المرأة.

ما زلت أنا، لكن لم أعد في بلجراد، بل في "ساراييفو" المحاصرة.

كنت أكل الثلج بملعقة وحوالي عائلتي.. في البداية كان الثلج أبيض، ثم أصبح قذرًا، وأخيرًا صار دمويًا.. جلسنا تحت ضوء مصباح زجاجه مكسور، وتناولنا الثلج الدامي في أطباقنا بالملاعق.

الناس الذين لم يكونوا في حلمي أو محاصرين في "سارايفو" لم يعرفوا كيف يكون الشعور حين ينطلق مائة مدفعٍ في الوقت ذاته.. كان الرعد يدوي في حلمي، والسماء تهتج.. أمّا أنا وأمي وأختي ف شعرنا بالخدر ومنا ونحن نضع أيدينا على ركبنا ونختبئ في الحمّام بينما تنفجر القنابل من حولنا.

صرخت:

- هذا غير معقول.. إنهم مجانيين.

ارتجف قلبي عندما تهشّم زجاج غرفة المعيشة.. بدا لي أن هذا كان آخر لوح زجاج سليم في المدينة.. نظرت عبر النافذة المحطمة فلاحظت أن البناية العالية المقابلة لنا ينقصها طابقٌ بأكمله.

ظلت أكرر:

- إنهم مجانيين.

أنا أتعرض للقصف من جنرالٍ ابتسامته مخيفة وكل من يتبعون أوامره بطاعة عمياء.

- ألا يهتم أحد؟ وماذا عن الرب؟ لا بدّ وأن يضع شخصٌ ما حدًا لما يحدث.. لا بدّ أن يعترض أحد.

ظللْتُ أكرر هذا حتى فقدت كلماتي معناها.

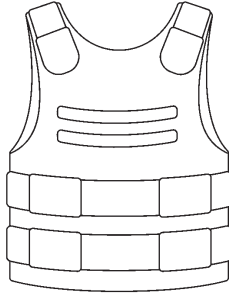
في حلمي، كان الظلام يغطي الكوكب كله ما عدا بقعةً واحدةً مضيئةً.. إنها مدينتي "ساراييفو".. كانت مشتعلةً.. وكأنها مصنوعةٌ من القطن أو الريش.. ضحَى "بروميثيوس" بنفسه حتى يعطي للإنسان سر النار، ثم وقعت هذه النار في يد "نيرون".. تحدث إليّ الرب من خلف عمودٍ مشتعل، لكن كيف سأفهمه؟ ظننت أن الرب لا يهتم بحياة البشر.

أردت الاستيقاظ، لكن لا يمكن الاستيقاظ من هذا.. أولاً، ماتت الحيوانات في وادي "بيونير" ممّا أُنذر بوفاة الناس لاحقاً.. تم قُطع صف الأشجار - والتي اعتدت تقبيل حبيبتني أسفلها - من أجل الحطب.. تحولت الملاعب والمنتزهات إلى مدافن.. تحولت مدينتي في هذا الخريف إلى جحيمٍ متجمد.. كانت شفاه أطفال "ساراييفو" ترتجف برداً.. ارتجفت شفاه الكبار أيضاً، لكن لم يتفوهوا بكلمة.. اعتادوا أن يقولوا لي إن الرجال لا ييكونون، لكنني رأيتهم ينتحبون.. كانت السجائر أغلى من الطعام في السوق السوداء.. هذه السجائر التي تشبه المصاصات المشتعلة هي كل ما تبقي للأطفال الذين كبروا قبل أوانهم عندما هجرهم العالم.

كنت أرفع يديّ بالدعاء.

لكن الجواب الذي أحصل عليه دائماً هو الصمت الذي يوجد بين كل انفجارٍ وآخر. قمت بشد شعري.. ألقيت باللوم على الرب، وعلى العالم، وعلى كل ما يحدث.. لا فائدة.. الحزن لا يفارق روحي، وهذا الألم ساحق لا يرحم..

مدينتي تشتعل.. لماذا يحدث هذا؟ ظل شعوري يتأرجح بين الغضب والخوف.. حياتي كانت تنطفئ مثل لهب مصباحٍ ينطفئ.. شعرت برجفة الموت تزحف على جسدي، لكن نبضات قلبي الحي أبعدها.. دعوت الرب ألا ينتهي بي الأمر في أحد القبور التي حلّت محل الملاعب والمنتزهات.. دعوت لأني أصبحت مؤمناً خلال الحرب.. هؤلاء الناس الذين يطلقون عليّ الرصاص من خلف التلال، أي إله يعبدون؟ تساءلت كثيراً.. لن أسامحهم أبداً على فعلتهم بي.. لن أسامحهم لأنهم علموني الكراهية.. لكن صدقوني، كنت سأتجمد منذ زمن لولا تلك الكراهية التي تشعل جسدي.. سكبت لنفسي كأساً من الـ"براندي" المُعد منزلياً وشربت نخب الرب الذي يعلو سماء "ساراييفو" وهمست داعياً: "أنقذنا! أعلم أن المستقبل سيعود في النهاية للأشخاص الصالحين.... لكن هل سأكون منهم؟".



عن حرق النقود وذرف الدموع



ما زال العد التنازلي للألفية مستمرًا.. إنه العام 1993.. التضخم المالي الذي حدث في بلجراد ووصل إلى 306 ملايين تعدى التضخم المالي الألماني الرهيب في عشرينيات القرن العشرين.. كان الفيلسوف اليوناني "هرقليطس" يؤمن بأن النار هي أساس كل شيء، ويبدو أن ناره الخفية تلك أحرقت النقود التي جمعناها.. كانت قيمة الدينار تقل يوميًا بنسبة كبيرة.. عرفت أشخاصًا لم يهتموا حتى بقبض مرتباتهم.. بمجرد أن تقبض "زورا"، كانت تسرع إلى ساحة "سلافيا"، حيث يقف أشخاص غير حليقين يرتدون ستراتٍ قصيرة وينادون: "عملاتٍ أجنبية، عملاتٍ أجنبية".. كانت "ميميكا" والدة "زورا" تتمكن بالكاد من شراء ثلاث عملاتٍ من المارك الألماني، بينما تشتري صديقتها الحاصلة على دبلوم جامعي من شراء سبعة.. أحيانًا كانت تقرض صديقتها بعض المال حتى تشتري خمسة مارك ألماني.

أخبرتني "زورا" أن مرتب "ميميكا" قد تأخر ذات يوم.. كان هناك زحمة مرورية ولم تصل "ميميكا" للأشخاص غير الحليقيين في ساحة "سلافيا" في الموعد المحدد لتشتري العملة الصعبة بمرتبها.. وفي الوقت الذي كان "دابل هالك"، صديق "بوريس"، يترك محرك سيارته الـ"مرسيدس" دائراً أمام أحد المطاعم لساعات، كان الناس العاديون يعجزون عن شراء البنزين ليذهبوا إلى المستشفى.. كانت والدة "زورا" تتوقف عن استعمال سيارتها الـ"يوجو" القديمة لشهور.. بعد الانتظار في محطة الأتوبيس في "نيو بلجراد" لساعةٍ شعرت باليأس.. فاستدارت وبدأت تسير نحو المنزل.. مرت شاحنة نقلٍ بجانبها فتناثر ماء الشارع القذر عليها.. لم تتوقف "ميميكا"، بل تابعت السير وهي مبتلةٌ وترتجف.. النقود التي لم تستطع تبديلها تخفض قيمتها في جيبتها.. عندما وصلت المنزل جلست تبكي على الأرض.. عندما تحدث الأديب "بورخيس" عن المصادفات التي تحدث في الأسماء وألقاب العائلات - والتي أصبحت أزمةً حرجة في يوغوسلافيا بالفعل - تذكرت "ميميكا" أنها كرواوية.. لقد قضت حياتها كلها في بلجراد اللعينة والعريضة في الوقت نفسه، ماذا تفعل الآن؟ أين تذهب؟ بكت على مدينتها وحياتها، وعلى أنها لم تدخل الجامعة، وعلى كل ما يحدث لنا، وعلى زوجها المتوفى وحببيها الذي تركها.

ذهبت "زورا" إلى "ميميكا" ووضعت يدها على كتفها وتمتمت بلطف:

- لا تخافي يا أمي.. لن نموت جوعاً.

أشارت لها أمها لتنصرف، ثم مدت ساقها على الأرض وهي ما زالت ترتدي معطفها، وظلت تبكي طوال الظهر.

في المرأة

ما زال العد التنازلي مستمرًا نحو الألفية



(1)

كل ما في هذا الكتاب ليس مهمًا حقًا.

هل تعرفون ما المهم بالفعل؟

الألفية المقبلة هي المهمة.

في موسكو، انطلقت قذيفة من مدفع القيصر إلى جرس القيصر.. والسبب؟

الألفية!

الأشخاص المتعلمون يهزون رؤوسهم وينهقون كالحمير.. والسبب؟

الألفية!

خرتيتُ غاضبٌ يندفع بلا سبب، إنه مثالٌ حي على الطاقة المهدورة.. المبدأ نفسه ينطبق على الناس الذين يقررون تعلم اللغة السنسكريتية لقراءة نبوءةٍ قديمةٍ تخبرهم بالمستقبل.

إنها الألفية!

أشخاصٌ يقفون على "جسر بروكلين" ويمسكون شريطاً من الألعاب النارية بأفواههم ويغمضون أعينهم لكي لا تعميهم الشرارات.

- إنها الألفية!

الأقزام يتسلقون الأشجار الاستوائية الطويلة، وعندما تمر سحابةٌ يدعون أن يكون المستقبل في صالحهم.

إنها الألفية!

"تيتانيك" تطفو على السطح بكامل تألقها، ويبدأ أشباح الأوركسترا في عزف الموسيقى فوراً.

الألفية!

ماذا تفعل وسط هذه الأمواج المتلاطمة؟ هل هذه أبراج أطلانتس؟ ظهر على سطح الماء أشخاصٌ يحملون كتباً ذهبية تحتوي على كل معارف العالم.. كما ظهرت طيور أطلانتس التي تحولت إلى أسماك.

الألفية!

المدن الذهبية في مملكتي "سيولا" و"نورومبيجا" الأسطورتين تلمع ببريقٍ شديد..
النمور خضراء العيون مسترخية تحت أشعة الشمس.

الألفية!

"موزارت" يؤلف سيمفونية للترحيب بالمريخين.. ظهر الراهب "جورديوس" من
قلب الظلام.. هذه هي آخر كلماته قبل أن يقطع على نفسه عهدًا بالصمت سيدوم
ألف سنة.. همس قائلاً: "الألفية...".

(2)

البعض يتخيل الألفية جاسوسًا يتربص في الخفاء.. ويومًا ما سيتسلل إلى حياتهم
حتى يجدونه نائمًا معهم في الفراش.. عندها ستصرخ الفتاة وتجري إلى والديها وهي
تقول:

- أحدهم في سريري.

سيبعد الأب ابنه عن جسدها العاري ويسألها:

- من الذي في سريرك؟

تجيب الفتاة وهي تبكي:

- الألفية!

لكن عندها سيكون الأوان قد فات؛ لأن "شيخ الألفية" سيصبح زوجها الشرعي.
وليس زوجها فحسب، بل زوج الجميع.. سيلاحظ الرجال والنساء أنهم أصبحوا
متزوجين من الألفية.



يتحدث عن انفصالي عن "إيرينا"



في السنوات الست التي أمضيتها مع "إيرينا" كنت أجلس في بلكون منزلها في "نيمار" وأشرب الـ"ويسكي" مع "تشيدومير".. كنت أنظر إلى صور والدة "إيرينا" في غرفة المعيشة، كانت حاملاً في الشهر السابع وترتدي الـ"بيكيني".. أحببت "إيرينا" أن تضع سبابتها على بطن أمها في الصورة وتقول: "هذه أنا".. أحببت والدة "إيرينا" بسبب هذه الصورة.. إنها امرأة ذات ابتسامة ساحرة وتمدح السياسة الحكيمة للإمبراطور الروماني "تاركوينيوس الفخور".. بما أنني كنت مغفلاً في القيادة ولم أستطع استخراج رخصة، كانت "إيرينا" تقودني إلى كل مكان بسيارتها الـ"أودي".. أحببت قيادتها.. حبيبتني هي أكثر السائقين تكبراً وفضافةً في بلجراد.. أحببت حين كنا نطبخ معاً ونختار نوع الخمر الذي سنشتريه..

حتى أنني أحببت العلامة التي يتركها أحمر شفاهها على السجائر والأكواب.. اعتادت "إيرينا" ارتداء ستراي التي تتشبع برائحتها بعد ذلك.

في الربيع كنت أتأمل مع "إيرينا" الأشجار المزهرة التي تشبه الأشباح في الليل وفقًا لوصف "زورا".. وفي الصيف نفقد شهيتنا بسبب الحرارة.. أمًا في أكتوبر اعتدنا أن نركل الأوراق المتساقطة في حديقة "كاليميجدان" ونقول: "وصل الخريف".. في الشتاء كنا نلعب معارك بكرات الثلج، بينما تتلأأ رقائق الثلج الفضية تحت أنوار منزلها في "نيمار".

إنه العام 1994.

في ذلك العام قام "ميخايلو يتشمينيتسا" ذو المائتي كيلو جرام الملقب بـ"تنين بلدة أوب" بتحقيق فوزٍ ساحق.. اشترك في مسابقة لتناول لحم العجل المشوي، وهزم دستة من المشتركين من مدينة "شاباتس"، أقلهم وزنًا كان خمسةً وثمانين كيلوجرامًا والأثقل كان مائةً وخمسةً وعشرين كيلو جرامًا.. في صربيا، عُقدت الطقوس الدينية في الكنيسة بلغة العجر لأول مرة.. في ذلك العام أيضًا تمت السيطرة على التضخم المالي المتزايد.. لكن في بلجراد، كان العلاج الأكثر استخدامًا هو مهدئ "ديازيبام" لعلاج التوتر، و"رانيديدين" لعلاج الحموضة.

في ذلك الوقت شعرت بأن المسافة بيني وبين "إيرينا" تزداد، لكنني أخبرت نفسي بأنها أوهام وأنا سنتجاوز المحنة فتحسنت الأمور.. لكن في عام 1994 تغيّرت "إيرينا" فعلاً.. قال شخصٌ ما إن الناس تحتل فقط الأشياء التي لا تهابها.. وقال شخصٌ آخر إن التفكير المجرد يحتاج إلى

الشعور ولو بأقل قدرٍ من الأمان.. كنت أشعر أن "إيرينا" لا تشعر بالأمان في علاقتنا.. لكن ما زلت لا أعرف سبب التغيير القاسي المفاجئ.

عندما كنت أسألها عن شيءٍ ما، كانت تصمت ويظهر التركيز على وجهها مثل شخصٍ يتبول أثناء سباحته في الماء.. بدا وكأنها تفضل قضاء الأمسيات مع أصحابها بدلاً مني.. صبغت شعرها باللون البني الذي يميل إلى اللون الأحمر، وبدأت تشعر بالحنين إلى الماضي حين كانت تواعد "بوريس".. إذا دخلنا في جدالٍ حاد، تحدثت عن مدى شعورها بالكمال مع "بوريس" وشعورها بالنقص معي.. ظلت أمارس الحب مع جسد "إيرينا" لكن بدون روحها.. من الذي استولى على جسدي يا "إيرينا"؟ من يتلبسه الآن؟ هل قام الشيطان الذي يشتري أرواح المجرمين في حي "بالك" بشراء روح "بوريس" أولاً ثم روحك؟ والشيطان هنا هو التليفزيون الذي يغسل عقول الناس.. دعوت الله ألا تسقط ركيذةً أخرى من ركائز عالمي.

بعد انفصالي عن "إيرينا"، شعرت بأنني ميت.. واجهت المجهول وليس معي سوى شجاعتي.. عشت محتاراً بين رغبتين متناقضتين؛ إمّا أن أتصل بها فوراً أو لا أراها مجدداً.. لم أعرف ماذا أفعل.. تعذبت كثيراً.. كنت أتدحرج على الأرض مثل طائرٍ يتمرغ في التراب.. لم أعرف ماذا أفعل.. لم أعرف.. لم أعرف ماذا أفعل بدونها.

شُفيت من إدماني لـ "إيرينا" مثلما شُفيت هي من إدمان الهيروين.. كررتُ لنفسي: "لو احتملت سبعة أيامٍ بدونها، ستكون الأمور على ما يرام.. لكن أولاً، عليّ أن أحتمل يوماً واحداً إضافياً".. دعوت الله: "أرجوك لا تدعني أفكر في طريقةٍ للاتصال بها".. لأنني لو فعلت سأعاني عذاب

الجحيم.. ستثور عاصفةٌ هوجاءٌ بداخلي.. عندها سأفقد كياني وكبريائي ومعتقداتي.. أرجوك لا تدعني أفكر في طريقةٍ للاتصال بها، لأن...

لأن "إيرينا" وأنا انفصلنا على طريقة بلجراد، وهي تبادل الإمانات مثل "تَبًّا لك أيها القدر!"... "تَبًّا لك أيها الحقيرة!".. كان شجارنا أسوأ كثيراً من شجار "زورا" و"بوريس" حين انفصلا.. لم نفصل بكرامة.. في طريق عودتنا من محطة القطار إلى فندق "موسكو"، سرنا في شارع "بلقانسكا"، وهو أكبر مركز لبيع القبعات في العالم.. ظللنا نتجادل طوال الطريق.. لو لم يكن شارعاً منحدراً وعلينا السير بحذر لكان شجارنا أشد عنفاً، وإن كان من العسير تخيُّل ما هو أعنف.. ربما عليّ أن أحكي للقراء ما يمكنهم تصديقه بسهولة، لكن الكذب ممل.. تجادلنا بشأن كوني أنانيًا وكونها لا تستمع إليّ نهائيًا، ثم فجأة تحوّل شجارنا إلى إقليم "كوسوفو" وحال الاثنين مليون ألباني الذين يعيشون هناك.

قالت "إيرينا":

- يجب إبادتهم جميعًا.. يجب رشهم بالمبيدات كالحشرات الطفيلية.

- ماذا؟

- رشهم هكذا، فسسسسس!

أرجعت كتفيّ للوراء ورفعت رأسي أمام محل "يانيتش يونسكي" للقبعات، ثم استدرت إلى حبيتي وقلت:

- اذهبي للجحيم أيّتها الفاشية الحقيرة!

نظرت إليّ في غضبٍ وقالت:

- لا، اسمعني! أنت مجرد فيلسوف جبان وثرثار ومتردد.

لم أصدق ما أسمع.. انتظرت حبيبتي لكي تبدأ في التشنج وإطلاق غضبها عليّ..
لكنني شعرت بالرعب عندما لم تفعل.. ظلت تنظر إليّ بتحدٍ شديد، فصحت فيها:

- لا، بل اسمعيني أنت! أنتِ فاشية.. واضح؟

- من أنت لتحكم عليّ أيها الحثالة البائس!

صرخت وصفعتني بأطراف أصابعها، لم تكن صفعهً قويةً، لكنها كانت مدوية.
فصفتها. نزلت خصلةً من شعرها على عينها الدامية فقالت:

- أيها الحقير، أُعرب عن وجهي.. لقد انتهت علاقتنا.. هل هذا واضح؟ لا تريني
وجهك مجددًا وإلا سأستأجر مجرمًا ليكسر ساقيك!

عندها صفعتني بقوةٍ كادت تفقدني السمع.. طارت نظارتي عبر الشارع وفقدت قدرتي
على الرؤية.. شعرت برغبةٍ في قطع رأسها لكن لم أفعل.. تمالكت نفسي.. استدرت شاعرًا
بالإهانة وعدت إلى محطة القطار.. كياني يشتعل غضبًا، وساقاي ترتجفان غيظًا.. سرت في
شارع "بلقانسكا" وحيدًا بعدما تحررت من ارتباطي بكل أسف.. لا أحد سيجري خلفي
ويصرخ بالكلمة التي أتوق لسماعها: "توقّف!".. كنت أبتعد بينما أرتدي القميص
الذي أعطته لي "إيرينا" والحذاء الذي اخترته لي.. لكن حتى لو صرخت "إيلينا" لأتوقف
بعدما حدث، لن أستطيع.. إنها مستعدة لتسميم هؤلاء الناس؟! بالإضافة إلى تأجير مجرمٍ
ليكسر ساقِي؟! الأشخاص المحترمون لا يقولون ذلك.. الإنسان لا يمكنه أن يكون وغدًا

وشخصاً طبيعياً وشخصاً يتمنى أن يكون طبيعياً في الوقت نفسه، مثل والد "باين" .. لا يمكن للإنسان أن يتحدث هكذا بكل بساطة.. لا أستطيع تحمل الفاشية.. أم أستطيع؟ ما هي الفاشية أصلاً؟ إنها شيء لا يغتفر! لكن ما تعريف الأشياء التي لا تُغتفر؟

أشعر بجسدي يغلي.. إن لهفة الشوق ومرارة الإهانة تهاجماني بلا رحمة، مثل هجوم الطيور في فيلم "Hitchcock" .. ما أهمية هؤلاء الألبان بالنسبة إليّ أصلاً؟ هل سيتخلون عن أفضل علاقة جنسية في حياتهم من أجلي كما فعلت أنا؟ أعرف أن الانفصال عن حبيبتي ليس عملاً بطولياً، لكن خسارة "إيرينا" هي تضحية كبيرة في حياتي الوحيدة.. قضيت ستة أعوامٍ معها.. أوّمن بأن "إيرينا" عدلت قليلاً من طبيعتي المنطوية المملة.. أتعذب حين أتذكر جلوسنا ونحن متعانقان ونستمع إلى الأغاني القديمة.. استمعنا إلى المغني الأمريكي "توني بينيت" وهو يغني: "دعيني أرى كيف هو الربيع على كوكب المشتري والمريخ" .. كل أغاني الحب أصبحت تؤلمني، حتى التافهة منها، لأنني فقدت مفهومي عن التافهة.. وكلما كانت الأغنية تافهة، ألمتني أكثر.. أستمع إليها قليلاً ثم أشعر فجأةً بغصةٍ في قلبي.. يا إلهي! لماذا؟ لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ شعرت بالإهانة... الإهانة من الحياة ذاتها.. كنت أصرخ وأزمر من الرعب والغيرة في الوقت ذاته، مثل ديناصور يحتضر.

تذكرت ما قاله "بوريس" ذات مرة: "إيرينا"، لن أراهن على نجاح زواجك في المستقبل ولو بخمسة مارك".

اتضح أنه كان محقاً.

لكنه لم يتوقع قط أن يكون هو الزوج.

الزفاف



بعد انفصالي عن "إيرينا" بوقتٍ قصير، عرفت أنني و"بوريس" تبادلنا الأدوار مجدداً.. "بوريس" كان يأخذها في جولاتٍ يومية في نهر "سافا" بقاربه السريع الكبير.. ذهباً إلى "كورسيكا" معاً لقضاء إجازة الصيف.. عندما عادا إلى بلجراد لم يزعجا نفسيهما بالطبخ، بل تناولوا العشاء في مطاعم عائمة.. ذات مرة في مطعم "أمستردام" العائم، جلسا في صمتٍ بانتظار الطعام.. كانت "إيرينا" تنظر إلى أشعة الشمس المنعكسة على شعر "بوريس" الأحمر.. أمّا هو فكان يراقب نورساً يطير فوق المطعم.. شرب "ويسكي" ليستجمع شجاعته ثم أمسك يد "إيرينا" وقال:

- هل تقبلين الزواج بي؟

بدلاً من أن تجيبه، ابتسمت بسعادةٍ وتأثر.. بعد ذلك أرسلنا دعوات الزفاف إلى أصدقائهما مباشرةً.. كانت "إيرينا" تحلم بالزواج فجراً على شاطئٍ في بلدة "بيتشيتشي" وحولها الضيوف حفاة الأقدام.. لكنها تزوجت الساعة الثانية ظهراً في كنيسة "الخلاص المقدس" في بلدة "زيمون".. تساءل الضيوف عن سر ابتسام العروس بغموضٍ بينما تسير في الكنيسة وهي ترتدي تاج الزفاف.. السبب هو أنها لم تكن ترتدي ملابس داخلية، فهي و"بوريس" مارسا الحب قبل دخول الكنيسة وتبادل العهود بخمس دقائق.. لطالما كانت هذه التفاصيل الصغيرة تثير "إيرينا".. وأثناء مغادرة الكنيسة، قام "دابل هالك" - إشبين "بوريس" - بإلقاء النقود إلى مجموعةٍ من أطفال الغجر.. التقط المعازيم صوراً على كورنيش نهر الـ"دانوب" مع العروسين.. نثروا قصاصاتٍ ملونة في الهواء فحملتها الرياح إلى النهر.. حاول صبيٌ غجري أن يمرح فأسرع إلى العروسين ليتصور معهما.. زمجر "دابل هالك"، وقال له:

- سأقطع رأسك!

لكن "بوريس" أوقفه، وقال:

- لا.. دعه يأتي.

في الصورة، طارت قصاصات الورق الفضية حول "بوريس" و"إيرينا" وهما يقبلان بعضهما.. وقف الصبي الغجري بجانب العروسين وهو يتسم بخبث.. وقف "دابل هالك" وأخوه "دادا" الذي اعتاد ارتداء سترٍ واقية من الرصاص والذهاب إلى "زيوريخ" لـ"يضرب أعداء الدولة" على حد قوله.. أصبح الآن يعمل مع "بوريس" و"دابل هالك" في التجارة..

لطالما انزعجت من وجوده وخفت من النظر إلى عينيه مباشرةً.. لكنني كنت معجبًا إلى حدٍ ما بأخيه "دابل هالك".. عند كورنيس "زيمون" وضع "دابل هالك" نقودًا من فئة مائة مارك ألماني لتكون بمثابة جسر الرخاء الذي تعبر عليه "إيرينا" حتى تركب سيارة الـ"ليموزين".. بعد ذلك، قاد الضيوف سياراتهم وأطلقوا الأبواق حتى وصلوا إلى مطعم "زلاتنيك" في "زيمون".. هناك استقبل "تشيدومير" والد "إيرينا" العروسين وأعطاهما مفتاح سيارة "بي إم دبليو" كهدية زفاف.. تعتقد "زورا" أن كل النساء ذوات النهود الضخمة سوقيات، ما عدا "إيرينا".. إنها محقة.. لقد بدت "إيرينا" في ثوب زفافها رقيقة جدًا.. تأمل الجرسون العروس الأكثر جمالًا وأناقَةً بين كل من دخلن مطعمه من قبل.

صافح "تشيدومير" "دادا" المخيف، وهو يقول:

- مرحبًا يا صديقي.

غمز "بوريس" لـ"تشيدومير"، وقال جملته المفضلة:

- عندما يصبح الشخص شرطياً، يظل هكذا دومًا.

الأصدقاء الذين حكوا لي تفاصيل الزفاف لاحقًا لم يكونوا على علمٍ بأن هذين الاثني يعرفان بعضهما من قبل.. أنا من سألت على التفاصيل لكي أعدّب نفسي.

قال "تشيدومير" وهو يربت على ظهر "دادا":

- أنت أسطورة.

رد "دادا" مجاملاً:

- لا، بل أنت الأسطورة.

جلس "تشيدومير" و"دادا" معاً طوال الزفاف وتبادلا أحاديث خاصة.. كانت عينا "تشيدومير" حمراوين ودامعتين، أمّا وجه "دادا" فكان جامداً.. مع ذلك ظن الكثيرون أنهما متشابهان كأب وابنه.. هذا صحيح.. هناك شعورٌ بتعاقب الأجيال بين "تشيدومير" و"دادا" لم يكن موجوداً بيني وبين أبي أو بين أبي وجدتي.. وبين حينٍ وآخر ينهض أحدهما ويعطي مألّاً لعازف الهارمونيكَا الججري، فقام المغني ذو الابتسامة الجذابة بغناء الأغنية التي طلبوها خمس مراتٍ متتالية.

كان هناك شبابٌ حليقي الشعر يشبهون براميل ترتدي بذلات، ويرقصون في الزفاف.. بالإضافة إلى فتياتٍ ترتدين فساتين حمراء.. كما حضر مستوردون كبار السن وسياسيون بدينون.. كان زفافاً جميلاً توافر فيه كل أنواع الخمور.. بعض الضيوف سكرُوا جدّاً لدرجة أنهم نسوا من العروسين وما تلك المدينة وعلى أي كوكب.

لم يعرف أحد - لا أنا ولا "إيرينا" ولا "بوريس" - أن هذا لم يكن زفافاً بل انتقاماً.

عن عيد "بوريس بيتروفيتش"



على الرغم من أنني حاولت إقناع نفسي بأنني نسيت حبي لـ "إيرينا"، عليّ الاعتراف بأنني بالكاد تمكنتُ من تخطي ذكرى يوم زفافها.. ظلت أكرر لنفسني قبل النوم: "من الجيد أن "بوريس" قد تزوجها.. نعم، من الجيد أنه قد فعل هذا".. قال القديس "بولس" إنه "من الأفضل أن تتزوج بدلاً من أن تحترق".. المزاح لا يساعد.. دارت أغنيةٌ في عقلي: "والآن يا حبيبتي الخائنة، لن تكوني زوجتي أبداً.. حكمتِ عليّ بالوحدة ما بقى لي من عمري".. أنا وأنت نعلم أن اللاوعي لا يرحم أبداً.. السخرية لا تساعد.. إنها لا تساعد أبداً.. استيقظت باكياً وقلت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوله أي إنسان في هذا الموقف: "وداعاً يا حبي".

السؤال الذي عذبنى هو؛ "ماذا ترى "إيرينا" في "بوريس"؟"، لكن الإجابة لم تكن صعبة.. كانت أحوال "بوريس" و"دابل هالك" متيسرة، فهما عملا في بيع السيارات ثم البنزين في الوقت الذي كانت فيه البلاد تحت عقوباتٍ دولية.. لقد باعا العملة الصعبة في السوق السوداء وأقرضوا أموالاً بالربا.. عقدا بعض الصفقات في "براج".." بنا "بوريس" لنفسه بيتاً في حي "سينياك" في بلجراد.. إنه منزلٌ أكبر من الذي حلم به والداه طوال حياتهما.. عاش "بوريس" و"إيرينا" عامًا واحدًا في هذا البيت المذهل في "سينياك".." عليّ القول إن زواجهما لم يكن الحدث الأهم في السنة.

من الناحية التاريخية، تم عقد اتفاقية سلام.. لم تجلب اتفاقية "دايتون" السلام إلى البوسنة، لكنها وضعت حدًا لسفك الدماء على الأقل.. في أغسطس 1995، وصل مئات الآلاف من الصرب المنفيين من كرواتيا إلى صربيا في شاحنات نقل.. تعلّم الكثير من سكان بلجراد تجاهل الوافدين الجدد.. فمثلاً، يقل بيع الصحف إذا نشرت صورةً لأحد اللاجئين.. مرة أخرى تواجه "زورا" مشكلة في إدراك البلد الذي تعيش فيه.. ومجددًا تشعر بالعار لأنها تعيش وسط بشرٍ وقحين.. الشعور بالعار واليأس يقتلها.. حاولت تحليل العمى النفسي لدى الناس المحيطون بنا بكل حيادية.

شرحت لها قائلاً:

- الأمامي تعطي الكلمات معاني أو تأخذها.. لا يمكنك إخبار الناس ما لا يريدون سماعه.. هل تذكرين حين سب "بوريس" أمه وهي تقف بجانبه؟ لم تسمعه لأن فعلاً كهذا لا يجب أن يحدث أصلاً.

في العام نفسه والمدينة نفسها، عاش "بوريس" و"إيرينا" بسعادة.. أم هل كان هذا ظاهرياً وحسب؟ أنجبت "إيرينا" مولوداً.. أسمياه "بويان".. سمعت أن "بويان" بدأ يتسم أولاً في نومه، ثم بدأ يتسم وهو مستيقظ.. لم أره هو أو والديه طوال تلك الفترة، لكنني عرفت أن "بوريس" يشك في عودة "إيرينا" إلى إدمان الهيروين.. بدأ يتفحص ذراعيها كل يوم لكن بلا جدوى، لأنها كانت تحقن المخدر تحت لسانها.. أخبرني أصدقائي أنهم رأوها وهي مغطاة بالكدمات عدة مرات.. من الذي أخبرني بالضبط؟ احتدم الجدل بينهما، وصحّت نبوءة "بوريس" بخصوص زواج "إيرينا" الذي سيدوم عامًا واحدًا.. حصل على الطلاق بعد أقل من عامٍ بقليل.. أظن أن "بوريس" تزوج من "إيرينا" بدافع الانتقام لا الحب.. أراد أن ينتقم منها لأجل الأيام التي قضاها، وهو يحترق بالغيرة، ويتشاجر مع الناس بلا سبب في ميدان "تيرازييه".. أراد أن يظهر بأنه يستطيع العيش بها أو بدونها.. تساءلت إن كان "بوريس" قد شعر بآلامي نفسها بعد انفصالهما الأخير.. هل همس لها في سره: "وداعًا يا حبي"؟ هل رضي بانتقامه؟ هل شعر بالوحدة مثلي؟

(1)

بعد ذلك عاش "بوريس" وحيدًا في البيت في "سينياك".. اتصل بي فذهبت لرؤيته بعد ثلاث سنوات من عدم اللقاء.. في البلد الذي يقوم فيه المعلمون المتقاعدون بالبحث عن الخبز في القمامة، كان بيت "بوريس" على مستوى آخر.. الأرضية مكونة من خمسة أنواعٍ من الخشب.. اشترى

"بوريس" صناديق خشبية مزخرفة من العصر الباروكي.. كان يحلم بأن يجمع أول مليون له قبل ميلاده الثلاثين.. بالتأكيد لديه الآن أكثر من هذا بكثير.. عندما دخلت وجدت "بوريس" يشاهد فيلم "The Godfather II" على الفيديو.

وصلت عند جملة: "منظمتنا أقوى من شركة "يو إس ستيل" الأمريكية للحديد والصلب".

أوقف صديقي ذو الشعر الأحمر الفيلم، وأوماً لي ثم نهض وعانقني.. كان "بوريس" وحيداً وليس معه سوى شابٍ نحيل يبدو أشبه بجرسون بدلاً من حارسٍ شخصي.. هنأته بمولد ابنه.. لم نتحدث عن "إيرينا" و"زورا".. قدم لي "بوريس" بعض الكحول وحكا لي ما حدث لوالديه.. هز كتفيه وقال إن والده كان دومًا رجلًا شريفًا.. أخبرني - دون تفاصيل - أن العمه "ماكا" أصيبت بجلطة وظلت تعاني من حالة شيخوخة مبكرة.. ذهب هو و"دادا" المخيف لزيارتها منذ بضعة أيام.. جلس "دادا" على سرير المستشفى ونظر إليها بعينيه الجامدتين.. كان وجهه عاجزًا عن إظهار الانفعالات.. أمسك "بوريس" يد أمه، لكنها لم تتعرفه وظلت تقول له:

- أنت رجلٌ طيب.

كان بيت القرية فارغًا، إنه البيت الذي قضى والدا "بوريس" حياتهما في بنائه، وكان جزاؤهما هو غيرة جيرانهما.. قلت له إن هذا مؤسف.. لَوَّح "بوريس" بيده في عدم اكتراث.. ابتسم وحكا لي مجددًا عن ازدهار عمله.

قال "بوريس" بابتسامةٍ عنيدة:

- كل شخصٍ يحصل على كم الفرص الذي يستطيع التعامل معه.. كنت أستطيع الجلوس وانتظار الأمور لكي تتحسن، لكنني أعرف الآن أن هذا لن يحدث.

شاهدته يبتسم وتساءلت عن سبب اتصاله بي.. على الأرجح يريدني أن أشعر بالغيرة من بيته في "سينياك"، كما أراد والداه أن يشعر جيرانهما في "توتونوفيتش بودروم" بالغيرة منهما.

تفاجأت لرؤية "بوريس" يشبه المربع إلى حدٍ ما.. لماذا كل رجال الأعمال في بلجراد يشبهون المربع بمجرد أن ينجحوا؟ لم أعد أفهم هذا الرجل الذي يقدم لي الكحول.. الشيء الوحيد الذي ما زلت أفهمه هو حس الدعابة لديه.. ما زال يملكه، لكنه فقد انطباعه السابق الذي يسخر من كل الأيديولوجيات.. تذكرت كيف كنا محتارين بشأن "تشيدومير"، والد "إيرينا"، لأنه لا يعرف نفسه حين يكذب وحين يكون صادقاً، ولأن المثل العليا والمكسب الشخصي واحدٌ بالنسبة إليه.

اعتدت أن أقول لـ"بوريس":

- كيف لا يعرف "تشيدومير" إن كان يكذب أم يقول الحقيقة؟ أنا أعرف دومًا إن كنت أكذب أم لا.

فكان يمدحني "بوريس" قائلاً:

- هذا جيد.

سألته:

- لو لم أعرف سأكون مجنونًا.

- لو لم تعرف ستكون كاذبًا.

أمَّا الآن، حتى "بوريس" لا يعرف حين يكذب.. الفارق الوحيد بينه وبين "تشيدومير" هو أن الأيديولوجية التي يبحث عنها "بوريس" ليست الشيوعية بل القومية.. أراني "بوريس" لوحدة قبرصية من القرن الثامن عشر اشتراها مؤخرًا.. بعد ذلك أراني سبيكة ذهبية أرسلها له رجلٌ يدعى "يوفاتشيف" من منجم ذهبٍ ضخم في طاجيكستان.

سألته:

- لماذا لا تضع قناصًا على السطح؟ أعني لحراسة لوحتك وذهبك.

اهتز جسد "بوريس" من الضحك، وقال:

- لا! سأشتري غوريلا بيضاء، وأضعها في البيت كحيوان أليف.

سكب لنا "بوريس" بعض الكحول وغير شريط الفيديو.. ظل يملأ الكؤوس، بينما نشاهد فيلمًا قديمًا عن الصراع بين اليهود و"جيمس بوند".

صحت:

- انتهى الأمر.. "جيمس بوند" هالكٌ لا محالة.. سيققلونه الآن.

رد "بوريس":

يا إلهي.. أنت ساذج.. إنهم يعبتون معه وحسب، وكأنهم يلعبون مع دجاجة.

بحلول الثالثة عصرًا أصبحنا سكرانين تمامًا.. قرر "بوريس" أن يأخذني إلى نهر "سافا".. ركبنا سيارة "بي إم دبليو" زرقاء ومررنا بمحطة أتوبيس مزدحمة بالناس الذاهبين للعمل.

قال "بوريس" ساخرًا:

- انظر إلى تلك المرأة التي تتدافع لركوب الأتوبيس.

ثم فتح زجاج نافذته وصرخ في الناس الذين ينتظرون الأتوبيس:

- تَبَّ لكم!

نزلنا من الـ"بي إم دبليو" وركبنا قاربه السريع.. هبت رياحٌ دافئة عندما غادرنا نهر "سافا" ودخلنا الـ"دانوب".. يا إلهي، المنظر في غاية الجمال.. هناك شواطئ صغيرة في الجو تطير فوق النهر.. والمدينة تشع بضوءٍ أبيض من حولنا.. الحياة كانت جميلة.. مكعبات الثلج تتصادم في كأس "بوريس" بينما نبجر.

صاح "بوريس":

- هذه هي الحياة.

لم أكن متأكدًا من أن ما عشناها في بلجراد طوال العشر سنوات الماضية يمكن تسميته "حياة".. لكنني حاليًا أستمتع بالرياح التي تداعبني على القارب السريع.. من الواضح أنني كنت أحاول خداع نفسي بشعورٍ زائف بأن الأمور طبيعية عن طريق الدخول في حالة من الإنكار الشديد.. استمتعت بالعيش في النسيان مثل باقي سكان المدينة.. تحررت

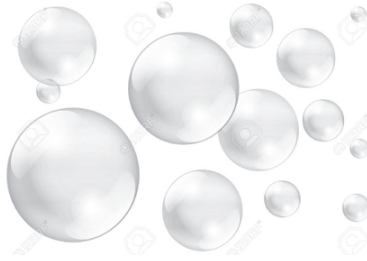
تمامًا من الأفكار التي تحثني على تحمل مسؤولية مصري.. في أثناء الإبحار نسيت أن الإمبراطور الروماني "تاركوينيوس سوبربوس" كان يحكم بلادي بأسلوب القضاء على جريمة بجرمة أكبر.. نسيت أننا قضينا عشر سنواتٍ من عمرنا وسط المذابح والذل.. تدمرت البلاد وانهار المستقبل، بينما أنا و"بوريس" كنا نظير على الماء تحت سماء المدينة البيضاء.. نعم، كنا نظير.

بينما نظير على الماء، كان "بوريس" ينظر إليّ بثقةٍ مألوفة.. كان صديقي القديم يبتسم إليّ فبادلته الابتسام، لكن هذا لا يعني شيئًا.



"جون كريسستوم":

"الناس مجرد ظلالٍ طافية لفقاعات صابون تنفجر"



(1)

أشارت "زورا" إلى سحابةٍ على شكل وجه امرأة وقالت:

- انظروا، هذه السحابة تشبهني.

شاهدنا بصمتٍ السحابة التي تشبه "زورا"، وهي تتشكل من جديد ويتغيّر شكلها..

نظرت إليّ بخبثٍ وقالت:

لأن الحب أقوى من النار".

غمزت "زورا" وعلقت قائلة:

- ممتع، صحيح؟

سألتها مصدومًا:

- هل تسمعين ما يغنون؟

"موتي يا حبيبي جانا!!!!

وسأموت معك،

وسنمارس الحب من جديد في الحياة الأخرى".

تلك الأغنية الجميلة عن "جانا" كانت واحدة من أكثر الأغاني التي سمعتها وقاحةً، وكذلك السبيل إلى الحب الحقيقي.. إنها المرة الأولى التي أسمعها فيها.. في حي "سكادارليا" مع "زورا ستيفانوفيتش" التي أشير إليها دائماً بأنها حبي الأفلاطوني، حتى أمام "إيرينا".. ما زالت أزهار اليزفون الجافة تتساقط علينا.. ظللت أتذكر لاحقًا ما كان يغنيه المطربون.. إن هذا أكثر غرابةً من السحابة التي حملت أولاً وجه "زورا" ثم غيّرت شكلها.

لكن ما زال الوقت باكرًا على الخوف.

(2)

والآن بعد كل ما حدث، أستطيع القول إنه لا فكرة لديّ عما يحدث.. لم أشك مطلقاً.. كان مرض "زورا" يشتد لدرجة أننا لم نستطيع رؤيتها في أحيانٍ كثيرة، لكننا ظننا الأمر مجرد وساوس مرضية.. كنا نتصل بها ونقول:

- هياً، كفي عن ذلك.. توقفي عن التمارض!

فتبتسم "زورا" بتعبٍ ثم تعاني من الأنفلونزا والإرهاق وتأخذها أمها إلى أطباءٍ عدة.. أكرر أنه لم تكن لدينا أدنى فكرة عمّا يحدث.. وفجأة قالت تلك المشعوذة "إيرينا":

- هل يمكن أن تكون "زورا" مصابةً بالسرطان؟

غضبت كثيراً لدرجة أنني ضربتها وأوقفتها قائلاً:

- تَبَّ لكِ أيتها الغبية! كيف تقولين شيئاً كهذا؟

بدأت أذهب لرؤية "زورا" أكثر.. أضع يدي على رأسها، وأداعب شعرها.. لم أحب ما كانت تقوله:

- من بين كل عشر شتلات تذبل واحدة وتموت.. كذلك الحال بالنسبة للبشر.. هذا ما سيحدث لي.

خفت ورجوتها:

- كفى بكاءً.. لا يجب أن تفكري هكذا، أرجوكِ.

النظرة التي أعطتني إياها "زورا" كانت أكثر إيلاّمًا من النظرة التي أعطتها إياها "ميلان أوكوكوليتش".. كانت نظرة شخصٍ يائس داس في قالب إسمنت فعجز عن الحركة بعدما جف.. يختلف شعورنا بالحياة على حسب شعورنا بالألم أو عدمه.. الشخص الراقد في سرير المستشفى لا يعيش في العالم نفسه الذي يعيش فيه الشخص الجالس بجانبه، على الرغم من أنهما يمسكان بيد بعضهما.. أعرف ذلك لكنني حاولت الترفيه عنها بقراءة مقالاتٍ تافهة.

قرأت لها عن مزارعٍ دخل غرفة نومه ورأى شيئاً يتحرك تحت الغطاء.. فنزل وعاد حاملاً عصاً خشبية وبدأ يضرب الأغصية بكل قوته.. سمع صرخات رجلٍ وامرأة ثم حل الصمت.. شعر بالفخر بعد انتقامه، فخرج المزارع من المنزل وقابل... زوجته! قالت له: "خمن ماذا؟ جاء أخوك من ألمانيا مع زوجته.. إنهما في الأعلى يرتاحان في غرفة نومنا".. آخر جملةٍ في المقالة تقول: "تخاصم الأخوان بعد ذلك".

كأفأنتي "زورا" بابتسامة.. معظم الوقت لم تُظهر لنا إدراكها لخطورة مرضها.. لكنها قالت لي ذات مرة:

- بعد رحيلي سيظل الأولاذ يغازلون البنات في الجامعات، وسيحاولون ممارسة الحب معهن.. لن يحزن العالم لموتي، بل لن يهتم أبداً.

قد يقول حكيمٌ صيني إن الحياة تمر كسحابة دخان.. بعد ذلك سيعقبها العدم.. لا يجب علينا الارتباط بأي شيء.. ومع ذلك نحن نرتبط بالأشياء غير المثالية، مثل مدينتنا.. ما زالت أوضاع بلجراد الملوثة ساطعة.. رائحة المطر تشبه رائحة أشجار الصنوبر في حي "بوليفارد".. بلجراد

مدينةً حضريةً بطابعها.. ليس لديها الوقت لتهتم بنا.. المدينة لا تبالي بالناس الذين يزحفون فوقها كالحشرات.. بلجراد لا تهتم بـ"زورا ستيفانوفيتش" التي توجهها بنظراتها.

لا أعلم كم ظلت العمّة "ميميكا" تغَيّر الورق الملتصق على الأدوية لكي لا تعرف "زورا" ما الدواء الذي تتناوله.. اعتادت أن تأخذها إلى غرفةٍ في الطابق السفلي للمركز العسكري الطبي، بهدف العلاج الإشعاعي على ما أظن.. كانوا يضعون "زورا" في أنبوبٍ مظلم له غطاء.. أشعر بغصةٍ في حلقي كلما تخيلت ما عانتها تلك الإنسانة الطيبة.. تمسك "زورا" بيد والدتها وتقول:

- لا يا أمي، لا تدعيهم يضعونني في هذا الشيء.

فترد أمها:

- يجب ذلك يا ابنتي!

شجعت العمّة "ميميكا" ابنتها طوال الوقت، لكنها ظلت تبكي ليلاً في الحمّام.. لم يزرها "بوريس" ولا مرةً واحدةً طوال فترة مرضها.. "إيرينا" فعلت.. كان "باين" في أمريكا.. حاولت زيارتها كلما استطعت.. أدركت فجأةً ما كان يحدث.. وعندما فعلت، كبحت رغبتني في الصراخ وتصرفت بطريقةٍ عادية.. كنت أذهب أحياناً لأقرأ لـ"زورا"، والعمّة "ميميكا" تنظر إليّ بامتنان.. حاولت الدفاع عن "حبي الأفلاطوني" عن طريق الثرثرة.. ظننت أنني لو توقفت عن الكلام سيقتحم الموت الغرفة

ويأخذها.. قرأت لـ"زورا" عن أن الموقف في البوسنة قد هُدم، فأشارت إلى بطنها وقالت:

- ما يحدث بداخلي يشبه معارك البوسنة، لكنها لم تهدأ.

من بداية حصار "ساراييفو"، شعرت "زورا" وكأنها ترتكب جريمةً فقط لأنها تشتري الخبز والزبادي من المدينة التي ولدت فيها.. أحببت الوعي الأخلاقي لـ"زورا".. لكنني كرهت نظريتها التي تقول بأن المصابين بالهيموفيليا - أي نرف الدم الوراثي - والمثليات، والأطفال المصابين بالحول، والرجال الأتقيين، والمجرمين، والعلماء، كل هؤلاء متساوون طالما أنهم يعيشون في مدينةٍ واحدة.. كلهم مذنبون حتى تثبت براءتهم.. فكرت أن حياة كل من تجاوز الثلاثين تدمرت تمامًا، أما الباقي فسنزى بشأنهم.. زعمت أن النساء أكثر شجاعةً من الرجال.. كانت تشعل شموعًا من أجل "ساراييفو" أمام قاعة الاجتماعات الوطنية في بلجراد، ولم تتردد في قول "ما لا يجب قوله".

اعتادت القول:

- لا أهتم أبدًا بالمحظورات التي وضعوها.. الجبن الفكري يقود إلى الغباء.. القوة وحدها لا تفيد.. سئمت ممن لديه الشجاعة على القتل لكنه أكثر جبنًا من أن يفكر.. سئمت من الجبناء الذين يخشون قول ما يفكرون فيه.. وسئمت من الأشخاص الذين لا يفعلون شيئًا سوى السخرية.

فجأة في ديسمبر 1996 ملع الأمل في أهل بلجراد أشد من ذي قبل.. بدأت المظاهرات ضد "تاركوينيوس سوبربوس" واستمرت ثلاثة أشهر..

لوح الطلبة بأعلامٍ من مختلف البلاد في شوارع بلجراد.. الطالبات وقفن بجرأةٍ أمام قوات الأمن المحصنة.. قال الناس إن ما حدث معجزة.. الغرباء كانوا يعاملون بعضهم في الشوارع بلطفٍ وأدب.

أنكر التليفزيون الوطني ما يحدث في بلجراد.. كان الناس يشغلون المكانس الكهربائية بأعلى صوت، ويطرقون على الحلل والمقالي، ويصنعون ضوضاء شديدة لكي لا يسمعون الأكاذيب الرسمية.. كانت تلك أول ثورةٍ بشرية ضد الكذب الإعلامي في العالم.. كتب لنا "باين" من نيويورك وقال إن الصحفيين الأمريكيين لا يحبون احتمالية ثورة الناس على التليفزيون.. بعد ثلاثة أشهرٍ من السير اليومي في البرد القارس، أصبت بالتهابٍ في الجيوب الأنفية وانتهت الأمور نهايةً مأساوية في أواخر الشتاء.. لكن خلال تلك الأشهر الثلاثة، شعرنا بحيويةٍ وحماسٍ لم نشعر بهما منذ انطلاق الموجة الموسيقية الجديدة في بلجراد، حتى إن التماثيل شعرت بالدهشة.

فات الأوان بالنسبة لصديقتنا "زورا".. الاستياء المتراكم في قلبها كان يقتلها ببطء.. الشعور بالعار واليأس ظل يخنقها منذ مدةٍ طويلة.. وصف "كافكا" في مذكراته الاتصال بين المخ وباقي أعضاء الجسم.. يقول المخ: "لقد اكتفيت، فليتحمل شخصٌ غيري هذا الحمل الذي يعيقني".. وعندما يتحمل عضوٌ آخر هذا العبء الذي أتعب العقل، يمرض الشخص بشدة.. هذا ما حدث لـ "زورا".. قالت "ميرتشيا إلياده" إن أفراد القبيلة يستلقون على الأرض ويموتون إذا انهار رمز القبيلة، أي عمود "الطوتم Totem" الذي يركز عليه عالمهم.. إن ركائز عالمنا تنهار منذ ستة أعوامٍ الآن.

(3)

ابتمت "زورا ستيفانوفيتش" لآخر مرة في المستشفى، بينما تقرأ أمها "مزمور الراعي":

- "الرَبُّ راعيٌّ، فلا يُعوِزُّني شيءٌ.. في مراعٍ خُصِرٍ يُربِضُني.. إلى مياهِ الراحةِ يُورِدُني...".

أخذت العمّة "ميميكا" نفسًا عميقًا لمنع نفسها من البكاء.. حاولت أن تبتلع الكلمات وهي تتحدث.. سالت الدموع على عنقها، بينما تستمر:

- "أيضًا إذا سرتُ في وادي ظلّ الموت، لا أخافُ شرًّا لأنّك أنتَ معي.. عَصَاكَ وَعُكَّازَكَ هُما يُعزِّيانِي...".

تمت "زورا" أن تُدفن في مدافن العائلة في بلدة "هيرتسيج نوفي" لكي تطل على البحر.. وعدتها أمها بذلك لكن دفنتها في المقابر المركزية لكي تستطيع زيارتها.. بدا وجه "زورا" الحزين - ذو الملامح القوقازية - وهو في النعش أكثر حدةً من قبل.. ذهبت إليها وقلت بصدق:

- كنتِ أحسن شخصٍ في العالم.

بدووا يهيلون التراب على النعش، فدفت قبضة يدي في اليد الأخرى.. أعمتني الدموع.. بدت المقابر وكأنها ممتدة بلا نهاية وتسحب كل الأمل.. لم يحضر الجنازة سوى العمّة "ميميكا" وشقيقة "زورا" و"إيرينا" وأنا.. لم يظهر "بوريس".

قالت العممة "ميميكا":

- ما الذي سأعيش لأجله الآن؟

وقفت عند القبر وتساءلت، هل حصلت "زورا" قط على حبيب؟ هل نالت قبلتها الأولى؟

كانت تعشق العالم، لكنها لم تسافر إلى أي مكان قبل رحلتها الأخيرة إلى العالم الآخر.

أرادت زيارة "جراند كانيون" العظيم.. تخيلته مثل حديقة "جويل" التي صممها

المهندس "جاودي"، مع فارق أنه احتاج إلى ملياري عامٍ لكي تنحته الطبيعة.

كانت مقتنعة بوجود ملائكة في بلجراد، لأننا أكثر من يحتاج إليها.

انهال المزيد من التراب على النعش وتردد صوته في أذنيّ.

في اليوم التالي طلبوا مني الاتصال بـ"باين" في أمريكا لأبلغه بوفاة "زورا".

بدأ "باين" يبكي وهو يقول:

- ماذا تقول يا "ميلان"؟

كررت بحزن:

- قلت إننا دفننا صديقتنا العزيزة "زورا" بالأمس.

يحكي عن "باين يانوفيتش" ورفيقته الخفية
وإعجابهما بالبساطة المبهرة لأخدود "جراند كانيون" العظيم



كتب "باين":

"عزيزي "ميلان"

هل تذكر كم حاولنا تخمين ما إذا كانت "زورا" حصلت على حبيب أم لا؟ الإجابة هي نعم! حان الوقت لأعترف لك بأن "زورا" لم تكن فقط صديقتي، بل حبيبتي. أتمنى من الله ألا تشعر أبدًا بما شعرت به عندما رجعت من الحرب في سلوفينيا.. حاولت بعد الحرب أن أتعافى من شعوري بالاحتقار نحو الحياة،

لكن بلا فائدة.. كلمة "حزن" لا تكفي لوصف ما شعرت به طوال الوقت.. وسط اضطراب بلجراد كنت أذندن أغنية "موريسون": "الناس غرباء حين تكون غريبًا، ووجوههم تبدو قبيحة حين تكون وحيدًا.... الشخص الوحيد الذي كنت أقابله وقتها هي "زورا".. كنا نخرج نتمشى لساعاتٍ كل ليلة.. على الرغم من إننا كنا نسير بجانب بعضنا في الشوارع نفسها، كانت تعيش في عالمٍ طبيعي، بينما أعيش أنا في الجحيم.. عبرت "زورا" الفجوة بين العالمين ولمستني أولًا.. لم تكن لمستها مثل النساء.. لم تكن امرأة بل معجزة، فلمستها عميقهً جدًا.. بعد قبلتنا الأولى شعرت بالمباني تدور من حولي.. كانت سماء بلجراد لامعةً بالنجوم.. تمتمت لها: "لا أعرف في أي شارعٍ نحن".. قالت "زورا": "وأنا لا أعرف في أي مدينةٍ نحن".. ذات مرةٍ كنا نمزح ووعدنا بعضنا أن من يشعر بأنه سيُتوفى أولًا فعليه بأن يتصل بالآخر.. العيش في قارتين مختلفتين لم يبعد بين روحينا.. أنا أؤمن بأنه حتى بعد موتها ما زالت "زورا" معي كما أرادت دومًا.. لهذا قررت أن آخذها إلى "جراند كانيون" الذي أحبته كثيرًا، سأزوره لكي تراه من خلال عيني.. لم تكلفنا الرحلة كثيرًا، فالموتق لا يدفعون ثمن التذاكر.. صحيح أنني لم أستطع رؤية "زورا"، لكن هذا لا يعني أنني لم أشعر بوجودها بجانبني في الطائرة أو الأتوبيس.. أمسكت يد رفيقتي الخفية طوال الرحلة، أشرت إلى كل مكان شيءٍ ممتعٍ في العالم الجديد. "انظري يا زورا!"

لديّ قريبٌ في لاس فيجاس، لذلك أول ما فعلته هو أنني أخذت "زورا" ستيفانوفيتش - رفيقتي الخفية التي تعمل مؤرخةً فنية - لرؤية نماذج الهندسة المعمارية المختلفة في المدينة.. بعد ستة أيامٍ تعبنا من رؤية الأضواء الراقصة

على المباني، والسلام المتحركة، واللعب بمسدسات الليزر.. في فجر اليوم السابع، غادرنا مدينة لاس فيجاس التي تقع بين جبلي " الشروق " و" الغروب"، وذهبنا لزيارة ما أتينا لرؤيته... "جراند كانيون".

أشرقت الشمس وأنارت السماء التي أشعرتني بالحزن.. جبال ولاية نيفادا تشبه أنهاراً جليدية ذهبية.. عندما بدأت الرطوبة ترتفع، ظهرت بحيرة "ليك ميد" تلمع أمامنا.. بعد سد "هوفر دام" ظهرت مباني أريزونا السوداء.. بعد ذلك هناك أرض فضاء شاسعة.. لا يوجد سوى السماء الزرقاء والأراضي الواسعة! إن نظر الإنسان لا يكفي لاحتواء هذا المشهد اللامتناهي! همست لرفيقتي الخفية: "انظري يا زورا!" انظري!"

قدنا كثيراً بالسيارة.. تحول المشهد حولنا تدريجياً إلى براري ذات شجيرات قصيرة.. هنا تستطيع المشاهدة أن ترعى.. بدأت المشاهد الجميلة تقل تدريجياً خارج السيارة.. لم يتبق ما يمكن أن أريه لـ"زورا". أردت النوم.. فجأة حدثت معجزة في ذلك الصيف! أمطرت السماء.. انهالت قطرات المطر على زجاج السيارة الأمامي، فاشتغلت المساحات.. إطارات السيارة التي أمامنا كانت تنثر الوحل علينا.. أغرقت الأمطار الزجاج الأمامي تماماً، ولم تنفع معها المساحات.. صحت في قريبي الذي كان يقود: "سنموت!"

لكننا فجأة خرجنا من منطقة الأمطار كما دخلنا بالضبط.. الأرض تحتنا جافة ولم يمسه المطر.

بدأنا نقود أسرع على الطريق الجاف.. بعد ذلك لاحظنا سيارة شرطةٍ تتبعنا.. أبطأنا قليلاً، ثم أحاطت بنا هالةٌ من الضوء فبدونا مثل الملائكة وسط هذه الأراضي الشاسعة.. تحركنا ببطءٍ شديد حتى مرت سيارة الشرطة بجانبنا وتركتنا.. ما زلنا داخل بقعة الضوء ودخلنا متنزه "جراند كانيون" الوطني.. ظهرت لنا فتاة من الهنود الحمر ترتدي قرطاً تركوازي اللون وقالت: "الدخول مجاني اليوم".

الغابة البسيطة كانت مقدمة ضعيفة للمشهد المذهل الذي توقعناه.. لا يوجد ما يوحي بأننا في "جراند كانيون" سوى لمحاتٍ من نهر "كولورادو" بين أشجار الصنوبر.. شعرت بالقلق تدريجياً.. سأستخدم كلمات من رواية "The Aleph" بقلم "خورخي بورخيس": "وفجأة رأيته!".. أخذت نفساً عميقاً وتأملت المشهد أمامي.. فجأة وجدت نفسي في السماء.. كنت أرى ما حولي وكأنني أنظر من طائرة، على الرغم من أنني ما زلت على الأرض.. شعرت بالمكان يعانقني.. يا إلهي! يا إلهي! ظللت أتأمل وحسب.. لم أنطق بكلمة.. كل ما شعرت به هو الامتنان لوجودي هنا.

وقفت وسط هذا المشهد، وتأثرت روحي وارتجف جسدي.. "هذه معابد".

فكرت في تلك القمم الذهبية التي تملأ الأخدود.. فكرت في الله.. فكرت في "زورا" التي طالما حثتني على زيارة هذا المكان.

ابتسمت وقلت: "انظري إلى حجم هذا المكان! إليك المكان الذي شبهته بحديقة "جاودي" لكن أكثر ضخامة، كما إنه احتاج إلى ملياري سنة ليتكون! انظري إلى مدى جماله.. انظري!".

ضحكت بشدة وأخذت نفساً عميقاً.. شعرت بقلبي ينبض في صدري.. استنشقت الهواء المنعش، وملأت عينيَّ بالسماء الزرقاء والأرض الشاسعة! المكان ضخم! شاهدت و"امتصت" كل ما حولي وكأنني قطعة إسفنج تمتص الجمال.. بحثت عن كلمة مناسبة لوصف ما أراه، لكنني توقفت وظللت أتأمل فقط.. لم أجد كلمة مناسبة.. شعرت بالبساطة والانبهار.. "البساطة المبهرة"، هذه هي الكلمة المناسبة.

قال قريبي ذو الشارب الكبير:

- عرضه ثمانية أميال، وعمقه أطول من جبال الهيمالايا.

شعرت بأنني شاهدت أخدود "جراند كانيون" العظيم من منظور مؤرخٍ فني.. لقد أقرضتُ "زورا" عينيَّ، وفي المقابل أعارتني حسها الفني بالألوان.. الحدود الخارجية للأخدود تخلط بين ألوان الورد والبنفسجي الساخنة وأيضاً الأزرق والرمادي الباردة.. هناك خطوطٌ زرقاء تشبه جسوراً طافية.. أمّا الجانب الآخر من الأخدود فكان يبدو ذهبياً بسبب الغروب.. رأيت تحتي خطاً أبيض، إنهم أشخاصٌ يركبون بغالاً لينزلوا إلى قاع الأخدود.. الصخرة التي على يميني تشبه قطعة ضخمة من جبن "جورجونزولا" الإيطالي الأزرق.. أمّا الصخور التي على يميني فلونها مزيجٌ من لون القرفة ولون السحاب.. وكأن ملاكاً سكب نقطة

حليبٍ على هذه اللوحة فصار من الصعب تحديد لونها.. كل الألوان كان لها بريقٌ لامع، أمّا بريق الأفق فكان الأجمل.

فجأة مر لونٌ جديد وغير المنظر.. بدا وكأن غباراً أبيض قد انتشر في المكان.. كان هذا لون الروح.. لون أسوار بلجراد في أحلامنا. "انظري يا "زورا"! انظري!".

لاحظ قريبي الذكي والوسيم أنني في حالةٍ من الرهبة والتأمل، فحاول بحسن نيةٍ إخراجي منها.. تساءل بصوتٍ عالٍ إن كان قد ركن السيارة في المكان الصحيح أم لا.. لا يهمني حتى لو اختفت السيارة.. أشار قريبي إلى بعض السناجب.. أنا أحبها في العادة، لكنني لست مهتمًا بها الآن.. تحدث قريبي عن نوعٍ من الصنوبر يشبه التوت ورائحته زكية.. لكنني الآن في حالةٍ من التأمل الديني، ولا أريد تشويهاها بأحاديثٍ تافهة.. أريد فقط المشاهدة دون الحاجة إلى التحدث.. ربما روعي تحاول تخمين أبعاد المكان الذي أراه.. ربما كنت أحاول رؤية انعكاس السماء الواسعة في مساحةٍ صغيرةٍ من الماء.

شرح لي قريبي: "ينظر الناس إلى أخدود "جراند كانيون" من هليكوبتر أو طائرة.. لكن الآن تم منع الطيران بجانب الحافة".

حاولت ألا أخرج مشاعر ذلك الرجل الطيب الذي أحضرني إلى هنا.. فأجبت به بأدبٍ بينما الغيظ ينهش جسدي.. كل ما أريده هو الصمت.. لا أريد سوى إمتاع عينيّ بألوان "جراند كانيون".

نظرت إلى طبقات الصخور المتحولة التي تشبه السحاب.

قال قريبي: "انظر إلى الصخور المنفصلة على اليسار.. إنها تشبه الكريمة المخفوقة على الكعك! تبدو وكأنها ستنزلق وتسقط بحلول العام القادم".

الزمن في "جراند كانيون" أبدي، واتساعه لانهائي.. يقول الإعلان: "لا يمكنك ملاحظة الكثير من الحقب الزمنية بنظرة واحدة في أي مكانٍ آخر!". بالفعل شعرت بالذهول من الحقب الزمنية الكثيرة التي مرت بهذا المكان.. في وقتنا هذا لا يشغل بال البشرية سوى نهاية الألفية الثانية للتقويم المسيحي.. إن الوديان والقمم التي أمامي عمرها مليارا سنة.. هذا يعني أن الأخدود العظيم عمره أقدم من الإنسان بألفي مرة.. أعني هؤلاء البشر الذين يتجولون ويلتقطون الصور.

كان السيّاح التافهون يسرون في الأخدود ويدردشون بأحاديثٍ تافهةٍ بمختلف اللغات.. لن يثرثروا هكذا لو كانوا في الكاتدرائية.. أم سيفعلون؟ أريد أن أصرخ فيهم ليصمتوا ثم أجمدهم لثلاث ساعاتٍ حتى أستمتع مع "زورا" برؤية السماء الزرقاء والتلال الذهبية في سلام.. كنت أنظر إلى تلك المعجزة التي تريح الروح، وقلت لنفسي إنه من المستحيل على الإنسان أن يكذب في مكانٍ كهذا.

في تلك اللحظة، أظلمت السماء.. رمت سحابةٌ ظلها على جبل "معبد إيزيس".. ظل جزءٌ من السماء أزرق، وأمطر علينا مطرًا باردًا.. لمحت سنجابًا يحتمي بجدار.. ركضنا لنحتمي من المطر.. هناك! توجد قلعةٌ خشبيةٌ وقريةٌ لطيفة بها إسطبلات للبالغ.. احتمينا في هيكلٍ زجاجي به محل لبيع التذكارات.. عندما نظرنا عبر الزجاج أدركنا مجددًا أنه لا نهاية لهذا الأخدود.. الأشياء الجميلة

تكون صغيرةً في العادة.. لكن على عكس المعتاد، ما نراه أمامنا شيءٌ جميلٌ وضخم.. ضحكت مع رفيقتي الخفية "زورا" أمام البساطة المبهرة لهذا المنظر.

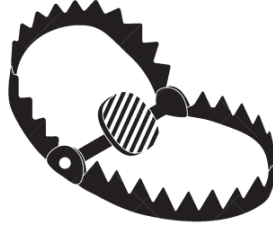
توقف المطر مجدداً ونحن نضحك.. بمجرد أن صفا الجو، ظهر أمامنا جبلٌ بنفسجي فيه مسحةٌ من اللون الرمادي.. هذا الشيء الذي يشبه اللؤلؤة العملاقة هو النقطة البارزة في "جراند كانيون"، إنه معبد "إيزيس".. أدركت أن أخدود "جراند كانيون" العظيم ليس مجرد متنزه، بل معبدٍ للعالم.. إن القمم لها أسماء آلهة.. هذه القمم بمثابة معابد.. في ضريح العالم هذا صليت من أجل الروح الخفية التي رافقتني في هذه الرحلة.. صليت لأجل الفتاة التي آمنت بوجود ملائكة في مدينتها.

كنا محاطين بـ"معبد ديانا"، و"قمة سكوربيون"، وقمة "بوينت سوبليم"، و"معبد كونفوشيوس"، و"برج رع"، و"معبد أوزوريس"، ومعابد "حورس" و"شيفا"، و"برج ست"، ومعابد "إيزيس" و"بوذا".. بالإضافة إلى تلال "هويي" و"موهافي"، و"هرم خوفو"، و"معبد ديفا"، ومعابد "براهما" و"زرادشت"، و"عرش أودين"...

وأخيراً قمة "برايت آنجل"، أي "الملاك المضيء".

امتلأت عيناى بالدموع، بينما أشاهد تلك القمة، وهمست لـ"زورا" الخفية: "هذه هي قمتك".

الكمين



لكان كل شيءٍ بخيرٍ لو أن "فوكوتيتش" الشاب لم يتزوج ابنة ذلك الرجل الغامض.. في الزفاف دعا الرجل الغامض زوج ابنته لتدخين سيجارةٍ معاً.. وقفا في الساحة الخلفية، ووضع يده على كتفه وسأله إن كان بحاجةٍ إلى أي شيء.. لم ينسَ "فوكوتيتش" الشاب قط الرجل الذي سبب إعاقته أخيه برمحٍ للصيد تحت الماء.. ظل يحلم لسنواتٍ بالثأر من الرجل الذي خان أخاه وهرب.. لذلك طلب رأس "دابل هالك".

رد الرجل الغامض بتردد:

- لكن ما تطلبه ليس بسيطاً.

رد "فوكوتيتش" معسول اللسان:

- لذلك أطلب الطلب الخطير من الرجل الخطير.

يعرف "فوكوتيتش" أن ما يطلبه ليس بسيطاً بالفعل.. أولاً، "دابل هالك" يقود سيارة "مرسيدس" ذات زجاجٍ مصفح، لذلك لن يفلح معه فخٌ تقليدي بقتله وهو يركب السيارة.. الأكثر خطورةً هو أن قتل "دابل هالك" يعني الدخول في حربٍ مع "بوريس بيتروفيتش" و"دادا" المرعب.. لكن هذا وقت الكرم.. قال الرجل الغامض لنفسه إن حفلات الزفاف هي أفضل وقتٍ للاسترخاء.. وأوماً ووافق على إعطاء رأس "دابل هالك" إلى "فوكوتيتش" هديةً له.

لم يعلم "بوريس بيتروفيتش" و"دابل هالك" بتلك المحادثة الخطيرة.. ذهب في العشرين من مارس 1997 إلى ضاحية "بورتشا" ليشاهد مصارعة الكلاب.. المكان مليءٌ بالكلاب ورائحتها.. سار أصحاب الكلاب بفخرٍ حول كلابهم الشرسة من أنواع "روتفايلر" و"شناوزر".. أحد الحمقى ضرب كلبًا من نوع "بول تيرير" بقوةٍ على رأسه لدرجة لفتت نظر الجميع.

"بوريس" سأل "دابل هالك" بينما يسيران:

- ما هذه الندبة على أذنك؟

عبس "دابل هالك" وداعب كلبه الراعي الألماني وقال:

- الشهامة ليست سهلة.. هل تذكر "زيتا"؟

رد "بوريس":

- كانت عاهرة خطيرة.

وافقه "دابل هالك":

- هذا صحيح.. إنها مجنونَةٌ كما تعلم.. ذهبت ليلة أمس إلى "تسيجان مالا" خلف منزلي، وقابلت "زيتا" و"نينا" العاهرة ذات البشرة البيضاء.. هناك رجلٌ يدعى "ميكي" يبيع المخدرات، لقد ضاجعهما حتى انتفخت بطناهما.. تخيّل أن ترى امرأتين متفختيّ البطن تهاجمان بعضهما بالسكاكين.. وقفت بينهما فجرحتني "زيتا" بسكينها في أذني ونزفت مثل الذبيحة.

ضحك "بوريس" وقال:

- وتناثر الدم على ملابسك الرياضية.

- صفعت "زيتا" وأخرجت مسدسي وصحت: "ارميا السكاكين! اركعاً!".

قال "بوريس" وهو يبتسم:

- فركعتا.

- ركعت المرأتان منتفختا البطن.. وضعت ماسورة مسدسي في فميهما وقلت: "ماذا ستفعلان الآن أيتها العاهرتان؟ ستلاطفاني؟ هيا انهضاً".

ركلت مؤخرتيهما ثم ألقيت السكاكين في حمامٍ عام وعدت إلى المنزل لأغتسل.

ضحك "بوريس" بشدة.

هز "دابل هالك" كتفيه وقال:

- الشهامة ليست سهلة.

في ذلك الوقت جاء الحكم "بيرا بانايوتيفيتش"، الملقب بـ"رجل الغابة"، إلى "دابل هالك"، وأخبره أنه حان دور كلبه "ريكس".. تم الرهان على هذه المباراة بألف مارك ألماني.. من المفترض أن "ريكس" من نوع الراعي الألماني سيقا تل "أجا" من نوع "بوكسر"، يملكه مزارعٌ من قرية "تشيشلييفا بارا" بالقرب من "جولوباتس".. يقول الناس إن هذا المزارع يضرب كلبه بعنفٍ يومياً ليزيد شراسته.. فرك "دابل هالك" أذني "ريكس" مداعباً وقبّل رأسه ثم تركه يذهب.. كلب الراعي الألماني بعينه البنيتين و كلب الـ"بوكسر" بأنفه المجدع اندفعا نحو بعضهما وبدأ العراك وسط التراب.. في ثوانٍ امتلأ المكان بزوبعة من الزمجرة والدماء التي لو ثت فرو الكلبين.. زمجر المشاهدون بصوتٍ أعلى من الكلاب.. علت صيحة "دابل هالك" على هتافات هؤلاء الهمج.

- اقتله يا "ريكس"!

صاح المزارع من "تشيشلييفا بارا":

- عضه يا "أجا"!

نشب الـ"بوكسر" القبيح أسنانه في ساق الراعي الألماني.. سالت الدماء على الكلبين المتشابكين.. وفجأة اندفع الدم بقوة، وفزع الجميع حين نزع الـ"بوكسر" ساق الراعي الألماني.

صاح "بيرا بانايوتوفيتش":

- كفى!

جرى "دابل هالك" إلى الحلبة ممسكاً مسدسه.. فَبَل الكلب المتألم وأطلق النار على رأسه.. دفع نقوداً لـ"بيرا بانايوتوفيتش" لكي يحضره إلى حديقة منزله لكي يدفنه.. لم يتجرأ مالك الـ"بوكسر" على طلب المال الذي ربحه.. عندما تذكّر "دابل هالك" أن يبحث عن الرجل كان قد رحل.

بينما يركبان القارب السريع في نهر الـ"دانوب" متجهين إلى فندق "يوغوسلافيا"، كانت عينا "دابل هالك" مغرورقتين بالدموع.

قال بصعوبة:

- ليس سهلاً الاعتراف بذلك، لكن الرجل يحب كلبه مع مرور الوقت.

وافقه "بوريس":

- نعم، الرجل يحب كلبه مع مرور الوقت.

كرر "دابل هالك" وواصل بصوتٍ مبحوح:

- ليس سهلاً الاعتراف بذلك أيضاً، لكن ما شعرت به عندما قتلت "ريكس" أسوأ مما شعرت به عند وفاة أبي.

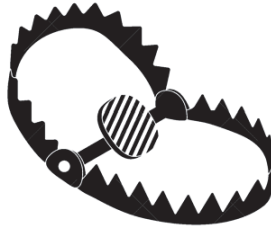
قادا من فندق "يوغوسلافيا" إلى سوق "ميركاتور" القديم بسيارة "دابل هالك" الـ"مرسيدس".. كان عليهما لقاء رجلٍ يسمى "نيكشيتش" وصل لتوه من "براج".. خرج الصديقان من السيارة وفردا جسديهما تحت شمس مايو.. أخرج "دابل هالك" آخر سيجارةٍ معه وكرمش العلبة.. شتم "بوريس" "نيكشيتش" لأنه متأخر.. داس "دابل هالك" على عقب السيجارة التي دخنها وطلب واحدةً أخرى.. أخرج

"بوريس" علبهً من جيبه لكنها سقطت منه.. وبينما ينحني ليلتقطها لمح سيارة "بي إم دبليو" مثل سيارته لكنها لامعة.. بدأ زجاج السيارة ينفتح.. ارتج الشارع كله من صوت الرشاش.. اهتزت الأكشاك، وارتجف المارة والأتوبيسات الخضراء وكل شيء.. حتى أشعة الشمس المنعكسة على المباني المحيطة اهتزت من صوت الرشاش.. أصيب "دابل هالك" في صدره، وأصيب "بوريس" في ساقه.. أخرج "بوريس" مسدسه وأطلق النار.. ابتعدت الـ"بي إم دبليو" بسرعة في مسارٍ متعرج.. أطلق "بوريس" النار مرةً أخرى، وأصاب الزجاج الخلفي.. عندما ابتعدت السيارة عن مرمى البصر، ترك "بوريس" مسدسه، وزحف إلى صديقه الذي أخذ يشهق.. رفع رأسه ونظر إلى الوجه الملتحي الذي يشبه النقوش الأشورية، ثم سأله وهو يهزه برفق:

- هل مت؟

- لا، أنا حي.

مع هذه الكلمات اندفع الدم من فم "دابل هالك".



الجنازة



بعد وفاة "دابل هالك"، تم نشر صفحتين من النعي في جريدة "بوليتيكا" .. في إحداهما صور لـ "دابل هالك"، وتحتها: "ستذكر صورتك وطيبتك إلى الأبد" .. - "نيكي" و"جوز".

جاء إلى الجنازة الكثير من الأشخاص الذين يرتدون سلاسل ذهبية لدرجة تثير فخر "مونتيروما" ملك الآرتك الذين اشتهروا بالذهب.. ذهب الرجال إلى النعش المفتوح لتوديع المرحوم.. همس أحدهم بأن نصف كيلو من الذهب على شكل سلسلة ذهبية قد اختفى أثناء الانتقال من مسرح الجريمة إلى المشرحة ثم الكنيسة.. الرجال الذين رقصوا في زفاف "بوريس" ذات مرة، وقفوا صفًا ليقدموا احترامهم الأخير للمتوفى.

كان "دابل هالك" بلا أبٍ أو أم، لذلك من أخذ عزاه هي عمته التي كانت تحت تأثير المهدئات.. قالوا إن عمته ظلت تتمتم طوال الوقت وتقول: "فليكن ما حدث تحذيراً لك يا "نيشا" يا بني".. رأيت عينيها تبتسمان عندما صافحتها.. نظرت إلى النعش المفتوح برهبة.. الجثة التي بداخله لم تعد تشبه "دابل هالك" قط بعدما زينوها.. لا أطيق صبراً حتى أخرج من هذه الغرفة التي تمتلئ برائحة الموت.. أعماي ضوء الشمس عندما خرجت من الكنيسة.. فركت عينيَّ ورأيت قسّاً وبعض الفتيات الأنيقات يصنعن أكاليل الزهور.

عندما بدأ موكب الجنازة يتحرك، بكت المرأة التي خلفي، عندما بدأ العزف الحزين، بدأت تنوح.

سألها ابنها الذي يمسك إكليل أزهار:

- هل تبكين بسبب وفاة "نيبويشا" أم بسبب الموسيقى الحزينة؟

حملت إكليلاً وسرت بجانب شابٍ تافه قصير الشعر.. زفر الشاب وقال:

- لا أعرف ماذا أقول يا رجل.. لقد قتلوا صديقنا "نيبويشا".

لم أنادِ "دابل هالك" باسمه "نيبويشا" قط.. لو أنني مت بالأمس لما عرفت اسمه الحقيقي أبداً.. نظرت إلى الفتيات الجميلات اللاتي يليق بهن اللون الأسود.. ونظرت إلى أعناق الرجال العريضة.. كان موكب الجنازة يتحرك ببطءٍ شديد.. تذكر عقلي المخجل إعلان حانوتي من مدينة "بوزيجا":

"في توابيت "جورجيفيتش راديشا"،

حتى الأحياء يتوقفون عن التنفس.

إنها محكمة الغلق،

ومصنوعة بيد خبيرٍ بلا استعجال.

فلتهدأ وتحلل بلا قلق".

كتمت ابتسامتي ونظرت حولي إلى الجنازة الكثيبة.. لم أرَ "بوريس" و"دادا".. أمّا الفتى التافه الذي حمل إكليل الزهور معي لاحظ نظراتي.. إنه ابن خالة "بوريس"، وقد رأيته كثيرًا مع "بوريس" منذ كان صغيرًا.. همس إليّ سرًّا أن "دادا" المرعب وضع قبلة في الغرفة التي تعشى فيها "فوكوتيتش" وزوجته الحامل.. لذلك هرب هو و"بوريس" ليلة أمس إلى "سالونيك" حتى تهدأ الأمور.

حملنا الأكاليل وتقدمنا ببطءٍ شديد حتى وصلنا إلى مكان حفر القبر.. مكتوبٌ على شاهد القبر الخشبي: "نيويشا دوكمانوفيتش".. وقفت العمّة الممتلئة بالمهدئات بجانب القبر مع بعض النساء من الجبل الأسود، كانت عيونهن داكنة وعميقة.. لم أظن قط أن "دابل هالك" ينتمي إلى الجبل الأسود.. لا يفكر الشخص أبدًا في أصل الذي ينتمي إليه فتیان المدينة مثله.. بدأ بعض المعزيين في العويل.. تقول الثقافة الشعبية إن العويل الذي يقوم به بعض المعزيين المدفوع لهم للحضور هو تعبيرٌ عن الحزن الحقيقي.. لكنني لم أشعر بالصدق في هذه الطقوس.. لقد أصابتنني القشعريرة وارتجف جسدي.. أردت الهروب بعيدًا عن تلك الأصوات الرنانة التي تجمّد الحياة في النبات والحيوان والإنسان.. حميت نفسي معنويًا بتمتمة إعلان ذلك الحانوتي من "بوزيجا":

"التواييت كلها درجة أولى، جودة مثالية..

لا يمكن أن تهرب الجثة".

ثم وقف العم الذي جاء من الجبل الأسود عند القبر مباشرة.. نظر إلى شاهد القبر بعينين دامعتين، ورفع يده ليُسكت النساء ثم بدأ ينعي الفقيد:

- آه يا "نيشا"، أيها الضخم.. لن أنس فعلتك الظالمة هذه.. كيف ترحل قبلي؟ لم يكن هذا دورك! لقد تركتني محطماً!

استدار العم إلى العمة التي تعاطت المهدنات طوال الأيام الثلاثة الماضية.. نظر إلى عينيها الباسمتين ثم قال بهدوءٍ غير متوقع:

- يا إلهي، كان يمكنك أن تجدي له صورةً أفضل من هذه لنضعها على القبر.

فجأة وبسهولةٍ شديدةٍ غيّر نبرة صوته من الهدوء العادي إلى الدراما المبالغ فيها.. رفع يده وندب:

- لماذا جرحتني هكذا؟

صدمني التحول المفاجئ بين الهدوء والانفعال، وأيضاً السلسلة التي يتحول بها.. قلت لنفسي: "هذا التحول الزائف هو السر خلف كل ما حدث لنا في الثماني سنوات الأخيرة".. كان العم يتحدث إلى "دابل هالك" وكأنه حي لكن أعمى.. كان يخبر الفقيد عمّن جاء لرؤيته بصوتٍ عالٍ وكأننا في مزاد.. قال:

- لقد جاء أصدقاؤك من مؤسسة الجودو الوطنية يا "نيشا".. جاءوا ليودعوك الوداع الأخير!

وقف الشباب ذوو السلاسل الذهبية بوجوه جامدة مثل الجنود.. كانت العمّة المخدّرة التي جاءت من المنطقة الجبلية تندب.. بكى بعض الشباب التابعين لمؤسسة الجودو الوطنية.. قدّم اثنان منهم نعيًّا.. هناك امرأتان تضعان الكثير من الماكياج وتمسكان بأكاليل الزهور وتنظران لبعضهما بعدائية، لكنهما تعانقتا في النهاية.. نزلت أول حفنة ترابٍ على النعش بصوتٍ كثيب.

تنهدت المرأة التي خلفنا وقالت:

- الأمر أصعب على المتوفى.

رمى كلّ منا حفنة ترابٍ على النعش، ثمّ أنهى العمّال الدفن بسرعة.. وضعنا جبلاً من الأكاليل فوق القبر.. تساءلت، هل سيسرق الأطفال الزهور من على قبر "دابل هالك" أيضًا ليبيعوها إلى محل الأزهار كما رويت لكم من قبل؟

تناقشت السيدات في نوع الرخام الذي سيضعونه كشاهد قبر.. لا يوجد من يمكنني التحدث معه هنا.. لوّحت مودعًا إلى الشاب الذي حمل معي إكليل الأزهار ثم سرت مبتعدًا.. ابتعدت عن شواهد القبور في المقابر المركزية.. مررت بتمثال برونزي لشاب، يضع أقاربه الصحف الرياضية على قبره كل يوم.. نظرت إلى شاهد قبرٍ رخامي أسود اللون، فلمحت عليه صورة عائلة تستند بفخرٍ إلى سيارة "مرسيدس" ماتوا داخلها.. مررت بشاهد قبرٍ عليه صورة صبي يجلس داخل سيارة لعبة برونزية اللون.. قلت لنفسي إن الذوق البسيط يخبرنا بتفاصيل كثيرة عن الناس أكثر مما يفعل الذوق الراقى.

سرت في المدافن التي تصبح أكثر هدوءًا مع كل خطوةٍ أخطوها.. وصلت إلى صفٍّ بعيدٍ من الأشجار.. وقفت أمام شاهد قبرٍ من الرخام الرمادي ونظرت إلى صورة "زورا" عليه.. بدأت أبكي.. لم أعبر عن حزني على "زورا" بطقوس العواء، بل بالبكاء بحرقَةٍ وصمت.. فجأة لاحظت شخصًا يقف بجانبني.... "إيرينا" هي آخر شخصٍ في العالم قد أسمح له برؤيتي باكيًا.. مع ذلك لم أراجع، بل تركت دموعي تنهمر.

كانت عينا "إيرينا" تصرخان بالبؤس.. إنها الآن مطلقة ووحيدة، ولم تعد شابة.. ربما عادت لتعاطي الهيروين أيضًا.. تبدو كشخصٍ أخفى همومه فترةً طويلة.. لم تكن تقف على قبر "زورا" بل على كومةٍ مشاكلها.. كانت تنظر إليّ بعينين يشع منهما الجنون.

قالت بلهفةٍ كالغريق الذي وجد طوق نجاة:

- "ميلان"... "ميلان".

ثم دارت حول نفسها وهي تحمل الأزهار، فجالت بنظرها في المقبرة كلها.

صرخت قائلةً:

- هذا الزمن قتل الحب في قلوب الناس.. ونحن نحيا بالحب، إنه كامن في كل ما

نفعل.

شعرت بالرعب منها ومن كلامها.. اختفى إعلان الحانوتي من عقلي وحل محله خطبة البطريك "أرسينييه الرابع شاكايننتا" من القرن الثامن عشر عندما هدد أهل بلجراد قائلاً: "سيلتهم الخنزير أطفالكم".

عن الوحدة الشديدة

وانتظار دورة جديدة من التدهور



ركضت إلى "إيرينا" عند قبر "زورا"، ثم سألت نفسي سؤالاً قد يبدو عاطفياً لكنه أيضاً جوهرياً.. كم شخصاً يهتم لأمرى في هذا العالم؟ شعرت بأنني أريد نسيان السؤال بمجرد أن نطقته، فليس من السهل مواجهة الحقيقة.. أو الموت.. أو الحياة.

ما زال العد التنازلي نحو الألفية مستمراً.. لم يحدث شيء في 1998 ماعدا أن نظرية المثالية المطلقة للفيلسوف الألماني "هيجل" بدأت تنحرف.. لا أمزح.. لا أعرف حقاً ما حدث في تلك السنة، لكن يمكن القول إن الشر بدأ يتضاعف.. اتحد

"تاركوينيوس سوبريوس" مع الفاشيين وحاولوا قمع الجامعة والصحافة الحرة.. أما إقليم "كوسوفو" فلم يضم سوى الحزن الذي حوَّله الألبان في "كوسوفو" إلى مقاومة مسلحة.. هذا بالتأكيد دليلٌ على بدء دورةٍ جديدة من التدهور.. كنت واثقًا من قدوم العام الجديد، لذلك كررت لنفسى دومًا جملة "زورا" الساخرة التي كانت تستخدمها للمواساة: "ستستمر الحياة".

استيقظت في منتصف الليل وفكرت في كل الأبرياء الذين تدمرت حياتهم في هذا البلد، وبدأت أبكي.

ذاب عالمي في بحر الشر كما يذوب السكر في الماء.. أصبحت مثل ذلك الطائر في غينيا الجديدة، إنه يمضي حياته كلها سائرًا على الماء أو الأزهار ولا يستقر أبدًا على أرض صلبة.. كل ما حولي ينهار، لكنني على قيد الحياة والحياة مستمرة.. لم أفهم قط كيف تستمر الشمس بالشروق في هذه الأحوال، وكيف أنهض كل صباح، وكيف أوصل الحياة.

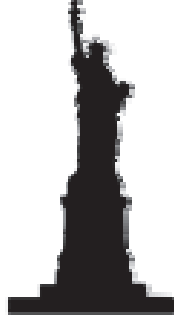
تذكرت في وحدتي "جان لوي بارو" الممثل الصامت الفرنسي الذي أخذ حبلاً ليشنق نفسه في فيلم "The Children of Paradise"، فأخذته منه فتاة صغيرة وبدأت تلعب به لعبة القفز.. ثم جاءت ربة منزلٍ وأخذت الحبل لتنشر الغسيل.. نظر "جان لوي بارو" إلى انعكاسه في المرأة وابتسم.. شعرت بالدهشة حين أدركت أنني نجوت بعد انهيار كل ركائز عالمي، لكنني أصبحت وحيدًا.. آمن "توماس مان" أن الوعي يؤدي إلى الوحدة، لكن هل في هذا عزاءٌ كافٍ؟

كنت مثل الطفل الرضيع، أو العجوز على فراش الموت.

كنت وحيدًا جدًا.

نيويورك تبهر "باين" وتدور حوله مثل إعصارٍ مضيء

"باين" يقابل أبي في نيويورك ويتشاجران



لم يستجد على حياتي الوحيدة سوى جهاز كمبيوتر اشتريته وبدأت أتبادل الإيميلات مع "باين" الذي يعيش في نيويورك.. ذات مرة قال "سردجان شاير" من فرقة "Idols" إن المهاجرين سيأخذون معهم جزءًا من بلجراد، وسنستطيع لاحقًا التواصل مع أجزاء بلجراد البعيدة هذه.. لقد كان محققًا.

تواصلت فقط مع "جزءٍ بعيدٍ واحد من بلجراد"، إنه "باين".. أخبرته إنني حاولت الخروج لتناول العشاء مع بعض النساء، لكنني لم أنجذب إليهن.. كتبت إلى صديقي "باين" وقلت له إن العلاقات الغرامية مجرد

بحرٍ من الملل.. أفضل الذهاب إلى طبيب الأسنان بشرط أن يعطيني مخدرًا موضعيًا، بدلًا من إمضاء أمسيةٍ أخرى من هذا النوع.

في الإيميل التالي، أخبرت "باين" أنني أصبحت صديقًا مقربًا لجدي "تيوفيل" العجوز.. ظن "تيوفيل جورجيفيتش" ذات مرة أن الناس يشيخون لأنهم مهملون أو لأنهم يعاقبون على أفعالهم السيئة.. والآن أصبح شيخًا طاعنًا في السن.. تشقت شفاته وتحتجرت أنفه.. يا صديقي "باين"، هل سأصبح مثله يومًا ما؟ اشترى لنفسه كلب صيد أيرلندي أسماه "جيك". كان يحبه كثيرًا ويأخذه للتنزه بانتظام.. في المساء يعود "تيوفيل" بعد التنزه ويعبث بزجاجات دوائه ويغني: "الطبيب يرتدي ثوبًا أبيض، لذلك يخيفني كمصاصي الدماء".

كان جدي يقول لي: "كلما كبرت في السن، تغيرت طبيعتك وكثرت مشاكلك.. لكن بالتفكير في الأمر، كيف تفرق بين الاثنين؟".

كتبت إلى "باين" لأخبره أن الحال في بلجراد لا يهدأ.. وكأن أبواب الجحيم مفتوحة على المدينة.. ما زالت المدينة في مكانها جغرافيًا، لكنها تبدو وكأنها تبتعد شيئًا فشيئًا.. المباني تنهار، والطبقات الأرضية تنزلق تدريجيًا.. ما زال الحمقى يظهرون على التلفزيون في وطني.. أقضي الكثير من وقتي في مشاهدة الحمقى وهم يمثلون، أشاهد ما فعله هذا الجزار وما قاله ذلك المتوحش.. كنت في حالة من الاضطراب العاطفي.. أحيانًا أظن أن مدينتي تشع بالقوة.. وأحيانًا أخرى أظن أن الشر والحقد هما أساس العلاقات الاجتماعية هنا.. مثل حال قبيلة جزيرة "دوبو" في

شرق غينيا، إنها القبيلة التي وصفتها "روث بنديكت" .. أنهيت خطابي بهذه الكلمات:

"هل تظن أنك تستطيع أن تكون رجلًا صالحًا إذا عشت في أي مكانٍ في العالم؟ خطأ.. إذا عشت هنا ستصبح سكيرًا".

على الرغم من الكلمات القاسية التي وصفت بها بلجراد، إلا أنني شعرت بالإهانة بسبب السعادة التي وصف بها "باين" نيويورك.. أراهن أنه لن يستطيع وصفها بحماسٍ أشد من ذلك مهما حاول.. كتب لي أن هناك دومًا من يعزف الموسيقى بجانب محطات المترو، وأن المدينة لا تهدأ أبدًا.. كان "باين" يستمد طاقته حتى من ضوضاء الشوارع في نيويورك.. لا يسأم أبدًا من هذه المدينة.. في الصباح الباكر يشاهد نور الفجر وهو يلمس وجوه اللاتينيين الذين استيقظوا للتو، وفي العصر يشاهد ركاب المترو الذين يغمضون عيونهم بتعب.

بالنسبة لـ"باين"، نيويورك هي المكان الذي تجتمع فيه كل ثقافات العالم.. في هذا الملتقى الدولي يجتمع المكسيكيون مع البوذيين.. ويضحك الكوبيون بينما يعزفون موسيقى سومرية تم تلحينها في الألفية الثالثة قبل الميلاد في مدينة "أوب" .. في الوقت نفسه، تشبه نيويورك مدينة مارسيليا حين يعمها الصخب والحركة.. كل امرأة في نيويورك لها وجهٌ يمتاز بطابع سگان البحر المتوسط مثل صديقتنا "زورا".

اعترف "باين" لي بأنه تنزه بانتظامٍ مع "زورا" في حديقة "سنترال بارك" .. "زورا" هي الشخص الوحيد التي هاجرت روحها إلى أمريكا بعد

وفاتها! هذا النوع من الهجرة ليس مذكورًا في سجلات جزيرة "إليس".. وصف "باين" كيف تجولا في الطوابق الدائرية في متحف "جوجنهايم"، وكيف أمضيا أوقات الظهيرة في جناح مصر القديمة المحاط بالزجاج في متحف "ميتربوليتان".. "باين" الحي و"زورا" المتوفاة كانا يلصقان وجهيهما بالزجاج الداكن في الطابق الأخير من مركز التجارة العالمي، وينظران إلى المدينة.. كانت الشوارع ذهبية، والأضواء تلمع كالنجوم.. شعر "باين" و"زورا" بالدوار بعد صعود سلام أطول مبنى في المدينة.. شعرا كأن المبنى سينهار في أي ثانية.. استراحا قليلاً ونظرا إلى مدينة "هدسون"، والنهر الشرقي، وولاية نيويوركسي، وحي "كوينز".. ثم تعلق نظرهما بحي "بروكلين" الذي يسكن فيه "باين" في مبنى كان معبدًا يهوديًا في الماضي.. في الشقة المجاورة له يسكن رجلٌ من "بورتو ريكو" ويربي ديوك رومي على سلم الطوارئ.. لم تكن أجمل شقة في العالم، لكن "باين" أحبها.. أحب "باين" بشكلٍ عام كل ما في المدينة التي عاش بها.

كان يقول لمالكة المطعم اليوناني الذي يعمل به:

- مدينةٌ غريبة لكنها جميلة.

فترد "بوليمنيا باباس":

- إنها مدينةٌ عادية، لكن كل المدن الأخرى غريبة.

كان "ديلفي"، المطعم الذي يعمل به، موجودًا في تقاطع الشارع الثامن مع الشارع السادس والأربعين.. المالك هو "سوتيريس باباس"، يوناني من الإسكندرية.. كان "سوتيريس" عجوزًا جدًّا، لذلك ترك إدارة العمل

لابنته السمينة "بوليمنيا".. إن اسم هذه السيدة الطيبة هو تصغيرٌ لاسم "بوليهيمنيا" ربة الإلهام للشعر المقدس عند الإغريق.. في البداية ظن "باين" أن مهنة الجرسون رومانسيةٌ جدًّا.. أحب إشعال الموقد تحت أواني الطبخ الفضية الضخمة لكي يظل الطعام ساخنًا.. عندما يملأ الدلو بالتلج كان يتخيله ماسًّا.. عندما يعمل في المطعم كان يتخيل نفسه "هرمز" مبعوث الأوليمب أو المحتال "فيليكس كرول" من الرواية الألمانية "اعترافات المحتال "فيليكس كرول".

بدا "باين" وسيماً في قميصه الأبيض وربطة العنق.. كان يقترب من الترابيزات بأدبٍ شديد ويأخذ الطلبات.. ثم يعود بسرعةٍ ويضع أمام الزبائن سحج الضأن أو سلطة الأخطبوط.. تعلم كيف يصب الخمر بأن يمسك الزجاجه عن طريق وضع أصابعه في الفجوة الغائرة في أسفلها.. أصبح قادرًا على حساب البقسشيش في ثوانٍ.. وصار يفرد مفارش الترابيزات برشاقة مصارع الثيران.. تعلم أن يخطف ويبتلع الأكل الشهي بسرعةٍ مثل الخدم الشرهين في أوبرات "موزارت".. تغاضت "بوليمنيا باباس" عن جسعه وعن تأخره بين حينٍ وآخر.. لكن الشيء الوحيد المحظور في مطعم "ديلفي" وقد يؤدي إلى طردك هو الجدل مع الزبائن.

وذات مرةٍ تجادل "باين" مع زبون.

الزبون الذي تجادل معه "باين" هو والدي "أندريه جورجيفيتش".. أثناء إقامته في نيويورك، أخذ صاحب المعرض "أندريه" إلى "ديلفي".. كان معه صربي فرنسي واثنان من الروس من حي "برايتون بيتش" في نيويورك.. لقد شربوا كثيرًا، وذهبوا إلى هناك ليأكلوا.. طلب "أندريه"

فطيرة سبانخ ونيذ "ريتسينا" الأبيض.. صب له "باين" النيذ بود زائف، ثم خرج عن شخصية الجرسون وسأله:

- هل أنت "أندريه جورجيفيتش"؟

- نعم.

- أنا صديق ابنك.

- أها.

قالها بصوت عالٍ لدرجة أن الزبائن الآخرين نظروا إليه.. وقف الرسام ونادى المالك.. فجاءت ابنته وقال لها إن الجرسون صديق ابنه، ويجب أن يجلس ليشرب معهم.. وقبل أن ترد هدهدا قائلاً:

- إن لم يجلس هذا الشاب معنا سنغادر كلنا.

ردت "بوليمنيا" السمينة فوراً:

- بالطبع يمكنه الجلوس معكم.

وافقت بدافع الطيبة جزئياً، أمّا السبب الأهم هو أنها لا تريد خسارة الزبائن الذين يطلبون زجاجة نبيذ جديدة كل خمس دقائق.

جلس "باين" معهم بملابس العمل، وعادت المجموعة للشرب.

سأله "أندريه":

- كيف الحال في بلجراد؟

تنحى "باين" وقال:

- أحضر "تاركوينيوس سويربوس" مظاهر من ثقافة العصور الوسطى إلى الحياة الصربية.. تم خصخصة السلطات العامة.. أصبحت الحكايات أكثر أهمية من المبادئ الأساسية، والبلاغة أصبحت أهم من المنطق.. زادت أهمية الدين.. شن المجرمون حربًا اقتصادية.. تم تأكيد مبدأ أن الحصول على طاغية واحد أفضل من عدة.

تمتم "أندريه جورجيفيتش":

- غير معقول.

أكد له "باين":

- أخشى أنه في السنوات العشر الأخيرة مرت دولتنا بتدهور اجتماعي وثقافي أكثر من أي دولة أخرى في القرن العشرين.

رد أبي بعداءٍ واضح:

- لا تقل ذلك.. هذا ليس ما أخبرني به الصرب في باريس.. يقولون إنه يمكنك إيجاد كل ما تريد في بلجراد، وإن الحياة عادية تمامًا.

قاطعته "باين":

- ربما ستهتم أكثر بكلام ابنك.. يقول إن من يسكن في بلجراد يصبح سكيرًا.

كان "أندريه جورجيفيتش" في شبابه غريبًا وجامحًا وفريدًا، وكأنه لا ينتمي لكوكب الأرض بل لكوكب آخر.. ولكن اتضح لـ "باين" الآن إنه ليس أكثر من تابعٍ عادي للقومية، وهو ليس فائق الذكاء، فهو يكرر الجمل من المقالات الصحفية.. بعض آرائه مثيرة للاهتمام، لكن الباقي

آراءً وهمية، وهو ينتقل من رأيٍ إلى آخر فجأة.. لم يصدق "باين" أذنيه حين سمعه يقول إنه يحب "تاركوينوس سوبربوس".. وكما يحدث عادةً بين المهاجرين، بدأ "باين" يصيح في أبي وصديقه.. أثبت الصربي الفرنسي أنه أفضل مثالٍ على المهاجر المجنون.. عناده ذُكر "باين" بعناد كلاب الـ"بول ترير" الشرسة.. تحدث بانفعالٍ عن الألبان الذي يسكنون أرض صربيا المقدسة ليتاجروا في الهيروين ولينجبوا الكثير من الأطفال.

رد "باين" بملل:

- أولاً، لقد ولدتهم أمهاتهم كما ولدتنا أمهاتنا.. ثانيًا، أي نوعٍ من السلام أفضل من لا سلام على الإطلاق.

عارضه "أندرية" بخطرسة:

- أنت لا تعرف عمًا تتحدث.

- لا، بل أنت من لا يعرف.

كان "باين" يشرب بجنونٍ مع الفنانين، بينما تقدم لهم "بوليمنيا" المزيد.. عدت "بوليمنيا" بصدمةٍ زجاجات النبيذ التي قدمتها على الطاولة.

صاح "باين":

- لماذا تشربون هذه القمامة؟

ثم طلب "ديمستيكا" ثم "جاك دانييلز"، وأخيرًا زجاجة غالية الثمن من النبيذ القبرصي.

كلما أسرفوا في الشرب، قل التهذيب في حديثهم.. لم يتجادلوا في السياسة وحسب، بل في كل شيء.. تحولت المناقشة إلى هذيان، مجرد تبادل أحاديث كئيبة بين بعض المهاجرين، بينما يتجادل المهاجرون، كانت نيويورك تدور حولهم مثل إعصارٍ مضيء.. الإعلانات تلمع فوق رؤوسهم.. هناك امرأة سمراء متشردة تقرأ قاموس أسباني - إنجليزي، كانت تجلس فوق حقائقها تحت ضوء إعلان.. التاكسيات الصفراء تطلق أبواقها.. المارة يسرعون في الشوارع.. قال الفنان الروسي إن التنوع في نيويورك يذكره بالقسطنطينية القديمة.. كان "باين" وأصدقاء أبي يتحدثون ويصرخون ويتجادلون.. الغريب أن "باين" ظل محتفظاً بعمله بعد هذا الجدل، والأغرب هو أن "بوليمنيا" والعجوز "سوتيريس باباس" انضما إليهم في نهاية الليلة.. أرت "بوليمنيا" لـ"أندريه" صورةً لابنتها التي تدرس في كلية الطب.

ظل "أندريه جورجيفيتش" يكرر:

- لن تتعرض صربيا للإذلال أبداً.

وعبر عن قلقه بشأن الانتشار العالمي للإسلام.. و"بوليمنيا" والعجوز و"سوتيريس باباس" كانا متفقين معه تماماً.. اشتكى "سوتيريس" بصوتٍ ضعيفٍ وواهن بأن الأتراك الذين يعيشون في أمريكا أكثر تأثيراً من اليونانيين.

سأل "أندريه":

- لماذا؟

بدلاً من الرد، حرك "سوتيريس" عينيه مثل القديس "سيباستيان".. غضب الصربي الفرنسي لأن الأديرة الصربية ليست موجودة في جناح "روائع الدولة البيزنطية" في متحف "ميتربوليتان".. هؤلاء الزبائن ينتمون جميعاً لدول الكومنولث البيزنطي، أي البلاد التي ساد فيها الطابع البيزنطي في الفن والعمارة في العصور الوسطى.. لذلك لوّحوا بأيديهم بغضبٍ ورفعوا حواجبهم بنظراتٍ ذات مغزى وهزوا أكتافهم ببلاغة.. في مطعم "ديلفي"، تنبؤوا بأن الإسلام سينتشر في أنحاء العالم.. يعلم "باين" أن العلوم الزائفة الإيطالية تسمى "Dietrology"، وهي تقضي بأن المظاهر خادعة وأن لا شيء يبدو كما هو في الحقيقة.. "أندريه جورجيفيتش" و"سوتيريس باباس" و"بوليمنيا" وحتى مدير المعرض الخاص بأبي أثبتوا جميعاً أنهم تابعين مخلصين لهذا المذهب.. جميعهم ما عدا "باين" وافقوا على أن هناك متحكمين خفيين للسياسة العالمية، وعلى أن هناك مؤامرةً دولية.. لكن مدير المعرض الألباني فاقهم جميعاً حين قال إن الإنسان لم يصعد إلى المريخ قط، وإن الفيديو الذي يعرض "أرمسترونج" وهو يقفز على القمر هو فيديو زائف تم إنتاجه ليربحوا في الحرب الباردة.

جادل "باين" بجملةٍ مقتبسةٍ من "نابليون":

- "لا شيء في العالم أكثر ندرةً من خطةٍ محكمة".

رد مدير المعرض بجملةٍ مقتبسةٍ من الشاعر "ديلمور شوارتز":

- حتى مرضى البارانونيا لديهم بعض الأعداء الحقيقيين.

بعدها أنهوا زجاجةً أخرى، بدأ أبي يسأل "باين" عني.. سأله عن شخصيتي وحياتي..
لامه "باين" وهو سكران لأنه لا يأتي لرؤيتي.. نظر "أندريه" إليه مباشرةً، وقال:

- أولاً، إن نشأتي لا تؤهلني لكي أكون أبًا صالحًا.

ثم تغيّرت تعبيرات "أندريه" وهو يواصل:

- ثانيًا، لديّ هدف، ولن يوقفني شيءٌ حتى أحققه.

لوح "باين" بيده باعتراض:

- هذا ليس مبررًا.

لم يتفق "أندريه" مع صديقي في أي موضوع، لكن أحب أبي جرأة "باين".. عانقه
أبي في نهاية الأمسية وقال له:

- إن وطننا بلجراد يشبه الجرح.. بمجرد أن تتكون فوقه قشرةً من الجلد، يأتي
شخصٌ ما ليزيلها بأظافره القذرة.. عجز الناس عن العيش في تلك الأرض على مدى
قرون، لكنهم يفرون ثم يعودون.. لقد تركت بلجراد بسبب شرِّ حلِّ بها، وأنتم أيها
الجيل الجديد تركتموها بسبب شرِّ جديد.. لو كنا نجيا في عالمٍ طبيعي، لأصبحت أنا
وأنت صديقين في بلجراد.

ردًا على تلك الكلمات المميّزة، رفع "باين" سبابته وقال وهو سكران:

- المشكلة هي أن المنطق ممنوعٌ في بلدنا حاليًا.. أحيانًا يكون تلبية رغباتك هو
الصواب، لكن أغلب الوقت يكون تطبيق المنطق هو عين الصواب.

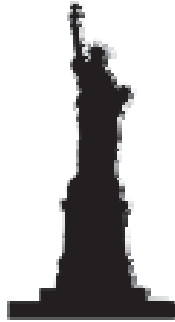
ضحك "أندريه" وعانقه وقبله قبل المغادرة.. فتحوا الباب فخرجت سحابةً من دخان السجائر من المطعم إلى الشارع.. أخذ الجميع وقتهم في توديع بعضهم.. أعطى مدير المعرض المخنث رقمه لـ"باين".

قالت "بوليمنيا" لـ"أندريه جورجيفيتش" وهو يغادر:

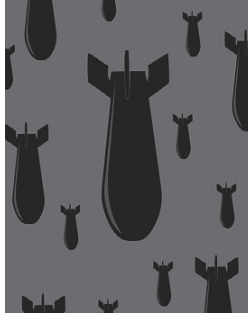
- عندما تزور نيويورك مجددًا تعال لتناول العشاء في مطعم "ديلفي" والحساب علينا.

بينما يسير "باين" في الشارع السادس والأربعين، شعر وكأن المباني تتمايل من حوله من أثر الشرب.. اختلقت الألوان في عينيه، واندمجت الأصوات كلها في أذنيه.. لكن روح "زورا" بالكاد حمته من أن تصدمه سيارة، وكأنها ملاكٌ حارس.. وأخيرًا أشار "باين" السكران إلى تاكسي وأعطى عنوانه في "بروكلين" إلى السائق الهندي.. تمدد على المقعد الخلفي وزفر قائلاً قبل أن ينام:

- الحياة غريبةٌ جدًّا!



"باين" يحذرنى من أن القنابل ستنهال على رأسي



أغسل وجهي في الصباح ثم أسرع لأنظر إلى الأعماق التخيلية المرسومة على خلفية الكمبيوتر.. لا أرتدي ملابس بعد، أذهب لصنع القهوة أولاً وأختلس النظر إلى المرأة.. ما زالت لدي خصلة شعرٍ مجعدة في منتصف جبهتي مثلما رأيت في صوري أيام الطفولة، لكن بدأ شعري يخف من الجانبين.. تجعد الجلد الذي تحت عيني.. أجلس على الكمبيوتر بينما أرتدي "تيشيرت" ثم أنظر بتساؤلٍ إلى بقعة البول التي على ثيابي الداخلية.. بعد ذلك أشرب قهوتي بينما أقرأ إيميلات "باين" وأرد عليها.. تبادلنا الكثير من الرسائل عن كل شيء قد يخطر ببالنا.. أخبرت "باين" أن الأتوبيسات التي تعمل بمصباحٍ واحد أو ينقصها قطعة من الأرضية أصبحت شيئاً معتاداً في بلجراد.. اعترفت لصديقي القديم أنني أحسده..

فريد "باين" بأن المهاجر يكون مثل الشخصية الشريرة في الحكاية الشعبية الصربية "العالم المظلم" .. "من يأخذ الأحجار سيندم! ومن لا يأخذها سيندم أيضًا!".. أحبته بأن الشخصيات الوحيدة التي لديها سببٌ للندم في هذه الحكاية هم من لم يأخذوا الأحجار.

أخبرني "باين" إنه يأخذ دروس كمبيوتر في جامعة "كولومبيا" في وقت فراغه.. زعم أنه مستعدٌ لتطوير خطةٍ تسويقية لإطلاق كمبيوترات "أبل ماكينتوش" في صربيا الشرقية.. سيتم الإعلان عن الكمبيوتر بصفته أداةً مناسبة للتذكير بذكرى الوفاة والتقاليد الجنائزية.. في منطقة "تيموشكا كرايينا"، سُبَّاع كمبيوتر "ماكينتوش" مع إرشادات "كيف تحمي نظام كمبيوترك من العين الشريرة".. تنبأ "باين" إنه ذات يومٍ سيتمكن الناس من رؤية أحلام الشخصيات التاريخية على أجهزة الكمبيوتر بضغطة زر.. تنبأ أنه في المستقبل القريب سنستطيع قراءة عقول الملائكة عبر الكمبيوتر.. ستكشف لنا الملائكة ما هو قادمٌ في الألفية الجديدة.

هذا ما ستخبرنا به الملائكة:

"حين تحل الألفية الجديدة ستصبح الأرض كالجنة، سنصبح وكأننا في مملكة السماء، وستحل الشيوعية (لأجل آبائنا).. سيسير الناس في الشوارع حاملين قطعاً بيضاء.. سيعود الأموات إلى الحياة.. وسنحصل على فرصةٍ للتحدث مع الأشخاص الذين لم يكن لدينا الوقت الكافي للتحدث معهم وهم أحياء.. سنطرح أسئلة لم تتم الإجابة عنها قط.. سنعتذر إلى من أسأنا إليهم، وسيعتذر إلينا من أخطأ في حقنا.. لن يسير الزمن في خطٍ مستقيم، بل ستحدث

كل الأمور بالتزامن مع بعضها.. بهذه الطريقة سنستطيع أن نعيش اللحظات الحلوة في حياتنا أكثر من مرة.. بطريقةٍ ما سيتمكن كل شخصٍ من أن يعيش حياة أشخاصٍ آخرين.. سيتزامن وجود فصول السنة كلها في الوقت نفسه.. سيحل يومٌ من الشتاء ويليه يومٌ من الصيف، ثم يأتي يومٌ خريفي بأوراقه الذهبية التي تجعله يشبه قطعةً من الشَّمَام.. وفي النهاية سيأتي يوم صيفي مريح مثل الحلوى التي تأتي بعد الطعام، فيه تأتي الفراشات مع النسيم وتنتشر في الريف، وتطلق الطبيعة روائحها المميزة.. أتمنى أن أستطيع وقتها تعلُّم بعض اللغات والمهارات.. سأتقن فن الطبخ.. سأمارس فن "تاي تشي" للدفاع عن النفس.. ستكون هذه حياةً أخرى، سيحصل الجميع على حياةٍ أخرى".

هذا ما كتبه "باين".

ثم توقف صديقي المسلمي عن المبالغة واعترف أن نيويورك لم تغيره، وأنه ما زال يقضي أيامه في اختلاس النظر إلى النساء.. كتب "باين" إيميل يلخص فيه ما أبهره في جامعة "كولومبيا" التي درّس فيها "ميخايلو بوبين".. عنوانه:

"وصف مؤخرة"

"لديها فخدان جميلان وخصرٌ رفيع.. تحب وضع يديها على وركيها عندما تتحدث.. أمّا مؤخرتها... فاتنة.. فهي جميلة وممتلئة.. شطرا مؤخرتها جذابان جدًا، خاصّةً حين تسير بالجنب.. وهي في ذلك تشبه النساء السمراوات على الرغم من أنها شقراء وببيضاء.. اليوم ترتدي بنطلونًا بنفسجيًّا.. إنها تكتب على السبورة وخصرها ظاهرٌ بكل إغراء.. مؤخرتها تهتز بينما تكتب، وأنا أشاهدها

بافتتان وكأنني أستمع إلى موسيقى رومانسية لـ"شوبان".. حتى وهي تنظر إلى السبورة، تضع يديها على وركيها وتسير بالجنب فتتشابك ساقاها.. هل تتدرب على هذه الحركة؟ خطوط ملابسها الداخلية بارزة قليلاً تحت البنطلون، لكنها ليست واضحة جداً.. أما الأجزاء الواقعة خارج حدود ملابسها الداخلية فمثيرَةٌ تماماً.. يا إلهي.. ترى ما لون ملابسها الداخلية؟ أيّاً كان لونها، أريد تمزيقها بأسناني.. إنها تشرح لنا "المنطق الضبابي".. إنها أستاذة البرمجة العلمية التي تدرس لي في الجامعة، اسمها جين مارتنسون".

لاحظت أن "باين" يتحدث دومًا عن أمورٍ شخصية بينما أتحدث أنا عن الوقائع التاريخية والسياسة.. أجبته على هذه الرسائل المرحة بإيميلات كثيفة لم أخف فيها قلقي من أن الموقف المتأزم في "كوسوفو" التابعة ليوغوسلافيا المنهارة سيؤثر سلبًا على بلجراد.. تنبأت أن الأمور ستسير في أسوأ اتجاهٍ لها، بل والأغرب أيضًا.. إن المنطق الذي يحكم صربيا يفضل الهزيمة على الاتفاق.. وضحت لـ"باين" أن السبب هو أن هذا النوع من المنطق العنيف يعتبر أن فكرة الاتفاق في حد ذاتها هزيمةٌ قصوى.. اشتكيت أنه على مدى العشر سنوات الأخيرة كان شعبي مخدوعًا مثل "تيتانيا" في مسرحية "حلم ليلة منتصف صيف" لشكسبير.. انتظرت أن يزول تأثير المخدر عن وعيهم.. في الوقت الحالي، تنبأت بحدوث مذبحةٍ في "كوسوفو" وتخيلت سقوط القنابل على بلجراد.

رد "باين" قائلاً إنني أصبحت أكثر شغًا من أبي.. كتب لي أن الحكومات الفاسدة تأتي وتذهب، لكن سيظل الرجال مفتونين بالنساء إلى الأبد.. سيشتهي الرجال النساء، وستشتهي النساء الرجال إلى آخر الزمان.. من

الواضح أن "باين" يحاول إخراجي من حالي السيئة.. كتب في المحادثة التالية: "لننسى المواضيع الخطيرة يا صديقي "ميلان".. كيف أحوالك؟".

كتبت وأجبته: "أقرأ عن الشعر التعبيري الألماني وأتظاهر أن كل شيء على ما يُرام.. ماذا أفعل غير ذلك؟".

رفضت التحدث مع "باين" عن المواضيع التافهة.. تفاجأت أنه يريد مني تجاهل الأمور الخطيرة في حياتي.. عندما بدأ حل يوغوسلافيا في 1991، تمنيت أن يتوقف تدهورنا أو يفيق الشعب من الغيوبة أو يختفي مستقبلنا السيئ.. والآن في بداية 1999، لم أعد أتمنى المعجزات.. تعبت من العيش في نفقٍ لا نهاية له، وأصبحت أنتظر حربًا جديدة.. تحول اضطرابي العاطفي إلى كرهٍ لذاتي.. استسلمت للتهافتات العنصرية ضد شعبي.

كتبت في الإيميل التالي: "لا أوْمَن بالعنصرية، لكننا معاقون بالفعل.. أنساءل متى سنموت حتى يأتي شعبٌ غيرنا ليعيش ويعمل هنا.. هذا بلدٌ جميل، خسارة أن يظل فارغًا!".

رد "باين": "هذا ليس كلامك.. العنصرية الذاتية هي إحدى الأشكال البغيضة للعنصرية.. إن حياتي في مكانٍ بعيد جعلتني ألاحظ أشياء في وطني لم ألاحظها وأنا فيه.. هل تعلم أين يقع الجحيم؟ إنه على الشمس! ومع ذلك هي مصدر الحياة بسبب بعدها عنا".

إن سبب جلوسي فترةً طويلةً على الكمبيوتر لأتحدث مع "باين" واضح.. لأنني أكثر الأشخاص وحدةً في العالم.. لكن لماذا يضيع "باين" وقته في التحدث معي؟ لأنه من الواضح أن "باين" وحيدٌ أيضًا.. إن شاشة

الكمبيوتر هي غرفةٌ للدرشة بين شخصين يشعان بالوحدة، أحدهما في نيويورك والآخر في بلجراد.

أحياناً تبدو الإيميلات وكأنها مونولوج بدلاً من حوار.. اثنان من المونولوج يسيران بالتوازي.. أصبحت واحداً من غريبي الأطوار المزعجين الذين لا يمكن إبعادهم عن موضوعٍ يثير هوسهم.. أحياناً يقول لي "باين": "كفى حديثاً عن السياسة"، لكنني لا أستطيع.. أوصل حديثي عن الشر وأتنبأ بالمزيد منه.. كتبت له أن كل أسبوع يتعرض ستة من رجال الشرطة للقتل في "كوسوفو".. مررنا بعشر سنواتٍ من السياسات الكارثية وهناك قوميتان متعارضتان، كل هذا قادنا إلى حربٍ ستجد فيها يوغوسلافيا نفسها ضد حلف الـ"ناتو".. كتبت إلى "باين" لأخبره عن جنرال صربي متفائل يقول إنه لا يجد سبباً يمنع يوغوسلافيا من الفوز في حرب ضد تسع عشرة دولةً في حلف الـ"ناتو".. بالنسبة إليّ، إن هذا الجنرال و"تاركوينيوس سوبربوس" الذي يتحكم به بيدوان مثل شخصين يقفان في الطابق السابع ويفكران في القفز أو التراجع.. فيقول فاعلو الخير: "لو قفزتما ستموتان أو ستعجزان بقية حياتكما".. لكنهما لا يصدقان ويريدان التجربة.

وقد فعلا.

أدرك "باين" أخيراً أنني لست مصاباً بالشك والاضطهاد كما ظن.. في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من مارس، أيقظني ليحذرني:

- كن حذراً! فهم سيقصفونكم اليوم أو غداً على الأرجح.

قلت بصوتٍ منخفضٍ قبل أن أغلق الخط:

- شكرًا!

في ذلك اليوم فتحت إيميل "باين" القديم الذي يصف فيه حماس الشعب الأمريكي بالألفية الجديدة.. في مكتب البريد الذي يشتري "باين" منه الطابع توجد ساعةٌ رقمية تحسب الوقت تنازليًا بالأيام والساعات والدقائق حتى الألفية الجديدة.. أرسل إليّ "باين" إعلانًا للألفية الجديدة خاصًا باستوديوهات "يونيفيرسال" في هوليوود، تم نشره في جريدة "بيبول People" .. يقول الإعلان:

"في صيف 1999

ستتبدل نظرية التطور،

وستتخطم قوانين الطبيعة..

سيتغير تعريف المادة للأبد..

ستتوقف قيود الجاذبية،

ولن يتحرك الزمن في مسارٍ واحد..

لكن سيظل سؤالٌ واحد،

هل أنت مستعد؟".

أنا و"بويان" ننظر إلى سماء الألفية



عندما بدأت القنابل بالسقوط فوق رؤوسنا، كان انطباعي الأول هو الذهول وليس الخوف.. إن صفارة الإنذار التي أعلنت عن كل هجمةٍ على بلجراد كان صوتها أشبه بخوار الثور العملاق الذي تحوّل إليه "زيوس" عندما خطف "يوروبا".. في اليوم الأول بدا الصوت مضحكاً، لكن لاحقاً أصبح مخيفاً.. كان المشهد في المدينة أشبه باحتفالات الألفية.. تسلّق الناس على أسطح المباني وشاهدوا النيران المشتعلة في المدينة.. بدت الصواريخ بعيدة المدى أشبه بالشهب.. كلما أصابت هدفاً في حي "باتاينيتسا"، ارتجت شقتي ذات الطابقين.. أحياناً كانت تبدو الانفجارات وكأنها تندلع من تحت قدمي وتطيح بي وبالمبنى مسافة ثلاثين ميلاً.. عندها أشعر وكأن روحي تخرج من جسدي.. وأتساءل إن كان المبنى ما زال قائماً، وإن كنت ما زلت

على قيد الحياة.. يتناغم الوهج الأحمر الصادر من مضادات الطائرات على الأرض مع دخان الصواريخ في الجو.. امتلأت السماء بالقذائف التي تشبه الألعاب النارية، لكنني ارتجتفت رعبًا حين فكرت بما سيحدث لي أو لغيري إذا أصابتنا تلك الصواريخ.

دخلت المخبأ الذي هو عبارة عن قبو عادي.. جلستُ أقرأ كتابًا عن الشعر التعبيري الألماني.. كانت المرأة الجالسة أمامي لاجئًا صربية من كرواتيا.. أحد ثدييها تمت إزالته جراحياً.. قضت الليلة التي تلت خروجها من المستشفى في القبو.. شاهدت بكاءها.. دوى بكاء النساء الألبان في إقليم "كوسوفو".. كانت أمي تبكي كلما اتصلت بها.. سألت نفسي ما إذا كان هناك مقياسٌ للدموع ليحدد وزن القطرات، ومدى صدقها وزيفها، وأيها يمكن تجاهله أم لا.. بدلًا من إرهاق ذهني بهذا التفكير، دفنت وجهي في كتاب "الشعر التعبيري الألماني".. تصاعد عمودٌ أحمر من اللهب في ضواحي بلجراد، بينما أقرأ قصيدةً بقلم "جاكوب فون هوديس" في القبو.

"نهاية العالم"

من فوق الرؤوس طارت القبعات

وصم الآذان صوت الصرخات

ووقع البناؤون من فوق الثقالات

على الشواطئ اشتد المد

وحلت العاصفة وهلك الجند

هاج البحر والتلال غرقت

وسالت الأنوف والشعوب مرضت

والقطارات من على الجسور سقطت".

عندما انتهيت من قراءة آخر سطر، ارتج المبنى بسبب انفجارٍ بعيد.. فزعت وسقطت من يدي كتاب الشعر.. أدركت مدى ضعفي وعجزتي.. شعرت بأنني مجبرٌ على الشعور بالتواضع الذي تنص عليه المسيحية.. شعرت بوجود الرب.. لكن على عكس "بوريس" الذي شعر بوجود الرب في القنابل الساقطة على "سرايفو"، شعرت أنا بالرب في القنابل الساقطة على بلجراد.

خلال الليل، دوَّت صفَّارات الإنذار وأضيت السماء بالانفجارات الشبيهة بالألعاب النارية.. أمَّا خلال النهار، طارت أوراق الصفصاف فوق نهر الـ"دانوب" وبدا كل شيءٍ طبيعيًّا.. في أحد هذه الأيام "الطبيعية" في الأسبوع الثاني من القذف، طرقت شخصٌ ما بابي.. لم أصدق عينيَّ حين رأيت "إيرينا" على عتبتني.. كانت تحمل حقيبةً كبيرةً بإحدى يديها، بينما يدها الأخرى تمسك طفلًا في الرابعة من عمره وتعلو وجهه نظرةً جادة.

مددت يدي وقلت:

- أهلاً!

قالت:

- هناك سيجارةٌ في يدك.

دخلت الغرفة وبدونا متحفظين.. جلسنا.. كانت الغرفة مظلمة مع أننا في منتصف النهار، لذلك أضأت النور فعادت النجفة للحياة.. لاحظت أن عيني زائرتي منتفختان، كما أنها تتصرف بعصبية.

جلست "إيرينا" على الأريكة وهي تعض شفتيها وتختلس النظر إليّ.. تلعثمت وهي تخبرني أنها وابنها "بويان" كانا مختبئين لفترة في بيت أهل "بوريس" في "جناو بون".. حمدًا لله أن ذلك البيت تم استخدامه أخيرًا.. أصرت "إيرينا" على إخباري بمدى خوفها على سلامة "بويان".. علمت أن "بوريس" و"دادا" قتلوا الشاب "فوكوتيتش" وزوجته الحامل.. ذكرتني "إيرينا" بأن "سينيستير دود"، والد زوجة "فوكوتيتش"، أقسم على الانتقام من عائلة "بوريس".. عندما انتقل "تشيدومير"، والد "إيرينا"، إلى موسكو، حيث يملك شركة تجارية، لم تجرؤ على الذهاب معه.. كدت أسأل نفسي لماذا تخبرني بكل هذا، عندها نظرت إليّ وقالت:

- هل أستطيع أن أترك "بويان" معك؟ أرجوك يا "ميلان".. لا أحد يعرفك.

قلت لنفسي إنه عليّ الحذر.. الأمر يبدو جنونيًا.. "تشيدومير"، والد "إيرينا"، ليس ساذجًا أو عاجزًا.. إنه يستطيع الوصول إلى أقوى الملوك لو أراد، حتى لو كان "تاركوينيوس سوبريوس" آخر أباطرة روما بنفسه.. يمكنه تأجير عشرة حراسٍ لمرافقة "بويان" إلى الطائرة.. أعلم أنه سيكون هناك قناصة وقد يقتلون الطفل في المطار أو في موسكو.. أشعر بالريبة.. نظرت إلى "إيرينا" بشك.. هل هي حقًا خائفة؟ أم تحت تأثير الهيروين؟ أم - وليسامحني الله في ظني - أصيبت بالجنون ولهذا تريد ترك الطفل معي؟

أمسكت "إيرينا" بيدي وكررت رجاءها:

- لا أحد يعرف بشأنك.

ثم بدأت حبيبتي السابقة بالبكاء والصراخ.. حاولت أن أتذكرها حين كانت بلا هموم.. حاولت تذكر حبي لها.. وعندما فشلت، أدركت أن نصف حياتي انتهى بلا رجعة.. تحطم الوجه الأثوي الذي أمامي كالزجاج.. بكت "إيرينا" بهستيريا فظيعة.. وقف "بويان" الصغير متجمداً بينما يشاهد بكاء والدته.. ثم بدأت شفتاه ترتجفان.

قلت لها:

- كفى! سأفعل ذلك.. سأفعل أي شيءٍ لكن توقي عن البكاء.

خرجت الكلمات على الرغم مني وأفزعتني تمامًا.. تساءلت "زورا" كثيرًا، هل علينا الشعور بالشفقة على الحمقى الأشرار؟ كانت تؤمن بأنه علينا ذلك.. أمّا أنا فأعتقد أن كل واحدٍ يصب غضبه على الأبرياء، لذلك لا ينتهي الشر أبدًا.. لو أن "إيرينا" مجنونة، فالطفل ليس كذلك.. إنه بحاجةٍ إلى مساعدة.

قالت "إيرينا":

- أشكرك، أشكرك.

ثم ضحكت وكأننا نتبادل أطراف الحديث.

قالت لـ "بويان":

- إنه رجلٌ طيب.. أحبه وأطعه.. ستعود أمك قريبًا.

أعطتني الحقيقة الخاصة بـ "بويان" وهي تقول:

- ارعه حتى ينتهي الأمر.

حتى ينتهي الأمر؟ دونت رقم "تشيدومير" في موسكو ورقم "بوريس" في مدينة "سالونيك" على أمل أن يكون أحدهما أعدل من "إيرينا".

أثناء وداعنا تعانقنا عناقاً غريباً وكأننا نخشى الاقتراب من بعضنا.. أفسدت دموع "إيرينا" مكياجها وهي تغادر.. ظل الطفل ذو الأربع سنوات ينظر بوجه جامدٍ إلى حيث كانت والدته.. في تلك اللحظة كان وجه "إيرينا" أشبه بورقةٍ مكتوبٍ عليها "قُضي علينا!".

قالت بعدما خرجت:

- أشكرك.. أحبك.

لم تخبرني من قبل إنها تحبني.. عضضت شفطي بغیظٍ لأن إحدى أمنيات حياتي تحققت بسخرية.

رحلت "إيرينا" بينما بقيت أنا أنقر بأصابعي على جبهتي وكأنني أعزف.. ماذا سأفعل الآن؟ لقد بقيت في المدينة المعرضة للقذف لأرعى طفلاً يريد أحدهم قتله بدافع الانتقام.. أفزعتني شجاعتني المفاجئة لدرجة أنني أردت صفع نفسي.. لماذا لم أقل لـ"إيرينا": "أسف، ما تطلبينه جنونٌ تام؟" لماذا لم أخبرها أن كل أمٍ عليها رعاية طفلها؟ لماذا لم أطردها؟ كان "بوريس" يتفاخر دومًا بشجاعته.. أمًا أنا فكنت مترددًا كـ"هاملت".. كيف ينتهي الأمر بأن يتوجب عليّ حماية ابنه من الانتقام؟ يمكنهم قتلي مع جدي والطفل "بويان".. لا أستطيع فعل شيءٍ الآن.. كل ما يمكنني فعله هو التمني

بأن يظل هؤلاء المجرمين على جهلٍ بوجودي.. أدعو الله أن يجد القتلة ما يشغلهم
عني في هذه المدينة المعرضة للقصف.

في الأيام التالية فعلت ما بوسعي لأعقد صداقةً مع "بويان".. أخبرته أنني كبرت مع
والديه.. وعدته أنهما سيعودان قريباً وأنا سنتصل بهما.. اتصلت بـ"إيرينا" في "نيمار"
وبالأرقام التي في موسكو و"سالونيك".. لم يجب أحد.. لم أعرف كيف أتحدث مع طفلٍ
صغير، فسألته:

- ما الممتع أكثر بالنسبة إليك، التبول أم التبرز؟

أجاب "بويان" الذكي:

- لا أعرف.. لا شيء ممتع.

عندها ابتسم لي لأول مرة.. قبلت جبهته وأخذته لأقدمه إلى الجد "تيوفيل".. وجدنا
"تيوفيل" في غرفته ينقر على زجاجات أدويته، بينما يدندن أغنيته السخيفة التي تقول:
"ذهبت إلى الصيدلية اليوم، يريدون جرح مؤخري، يقولون إن...!!.. تنحنحت ووضعتُ
يدي على كتف "بويان" وقلت إن الطفل سيقوم معنا في الوقت الحالي.. لم يتفاجأ
السيرالي العجوز من وجود طفلٍ غريبٍ في شقته.. لكن ما ظل يفاجئه هو؛ كيف يعقل
أنه - "تيوفيل جورجيفيتش" - يعيش في هذا العالم؟ نبج "جيكأ" - كلب الصيد
الأيرلندي الخاص بجدي - على الطفل الصغير، فأخذ يبكي.. تظاهر "تيوفيل" بضرب
الكلب ثم مسح دموع "بويان" وأجلسه في حجره.

سأل جدي الولد ليهدهئه:

- ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟

فهم "بويان" السؤال لكن لم يجب.

ابتسم "تيوفيل" ابتساماً جعلته أشبه بالسلحفاة وقال:

- لا عليك.. أنا أيضًا لم أقرر ماذا أريد أن أصبح عندما أكبر.

فقط عندما عدنا إلى غرفتنا، مال الولد على أذني وهمس:

- أريد أن أصبح ملكًا.

الحياة الغربية التي عشناها بدت طبيعيّةً خلال النهار.. كنا في الربيع.. ذكرت لكم أن أوراق الصفصاف تطير فوق النهر.. نسيت إخباركم أن الشباب كانوا يذهبون إلى المقاهي ويراقبون الفتيات.. كدنا ننسى الحرب الدائرة.. لكن كل ليلة يتحول "زيوس" إلى ثورٍ عملاقٍ ويطير فوق المدينة مطلقًا خواره، هذا هو وصفي عن الغارات الجوية.. أثارت صفارات الإنذار جنون وحيد قرنٍ حساس في حديقة حيوان بلجراد، فانتحر عن طريق ضرب رأسه في الحائط.

تراجعت عن قراري بعدم الذهاب إلى المخبأ، وذلك بسبب "بويان".. في كل ليلةٍ أحمل "بويان" إلى القبو، حيث تتلاعب تيارات الهواء بخيوط العنكبوت.. أخذ معي كتاب "الشعر التعبيري الألماني" وبطانية صوف من أجل الطفل.. أمّا "تيوفيل" فظل في شقته.. حاول تجاهل الحرب بشكلٍ عام.. كان يأخذ كلبه "جيكا" للتمشية في أي وقتٍ من اليوم ويزمجر قائلاً:

- الكلب يقضي حاجته وقتما يشاء، ولا ينتظر أمرًا من حلف الـ"ناتو".

قبل الفجر بقليل دوت الصفارة لتعلن وقت الخروج من القبو، وجدْتُ جدي محنيًا في مقعده تحت لوحة القديس "جورج" يركب تنيًا ويقتل حصانًا.

انتهى الأمر! بدأت أتخيل كلمات النعي تتألق تحت جسد جدي المرتخي: "تيوفيل جورجيفيتش"، ولد في حرب البلقان الأولى.. توفي في العام الأخير من الألفية.. ولد في حرب، وتوفي في حرب".

في تلك اللحظة فتح "تيوفيل" عينيه وغمز قائلاً:

- مشيرٌ للاهتمام، صحيح؟

بالكاد منعت نفسي من قول: "تبًا لك أيها الأحمق العجوز!".

حاولت الاتصال بـ"سالونيك" وموسكو لكن بلا جدوى.

في الوقت الراهن قمت بتعليم "بويان" غسل يديه.. قلب "بويان" قطعة الصابون بين يديه مستمتعًا بمشاهدة الرغوة البيضاء تغطي يديه قبل أن يزيلها بالماء.. أصعب شيء هو وضعه في السرير لينام.. كلما دوت صفارة الإنذار أو اهتز المبنى من الانفجارات، لم يكن يبكي، بل تتسع عيناه وكأنهما تريدان ابتلاع العالم.. عندها ألفه بالبطانية وأهديه.. ظن الجيران في المخبأ أنه ابني.. كانوا يتغامزون ويتهامسون بأن والدته تُوفيت.

لم تعد ألسنة اللهب تكتفي بالاندلاع في الضواحي.. نظرنا جميعًا في الأرض بذل، بينما نسير جوار الأطلال في وسط المدينة.. شيئًا فشيئًا أصبحت المدينة تشبه تلك التي حررها "تشيدومير" منذ خمسين سنة.. انهار برج الساعة الموضوع فوق مبنى وزارة السكك الحديدية.. تساءلنا جميعًا: "ما الوقت الذي سنسير على أساسه الآن؟".. دمرت القنابل مصنع

الكيمويات في مدينة "بانتشيفو".. انسكبت المواد السامة في نهر الـ"دانوب".. هربت خالتي من "بانتشيفو" السامة ونامت في شقة أُمي.. اتصلت بأُمي يومًا لأرُفِّه عنها.. أخبرتني أن جيرانها يسرون مثل الزومبي.. قد يرفع شخصٌ غريبٌ رأسه في الشارع ويسألها: "ما نهاية كل هذا يا سيدي؟ ماذا سيحدث لنا؟".

في المخبأ تعرفت أكثر إلى جيراني الذين بالكاد ألقى عليهم السلام صباحًا.. تبادل الجيران سرد القصص.. شجَّعوا بعضهم.. وكرهوا بعضهم.. قال رجلٌ حكيمٌ ذات مرةٍ إنه من الصعب تقبُّل الديمقراطية إن كانت تأتيك في شكل قنبلة.. لقد وصفوا كيف ارتج المبنى الجرانيت المجاور لمستشفى النساء والولادة عندما تعرض للقصف.. أسرعت الأمهات الذين ولدوا حديثًا وهن ما زلن ينزفن إلى غرف الأطفال، بينما حاول الأطباء فصلهن عن أطفالهن لتنظيم الإخلاء.. تحدث الجيران عن القنابل العنقودية التي دمرت وسط مدينة "نيش".. تحدثوا عن راكب الدراجة من مدينة "نوفي ساد"، لقد طار في الهواء عندما انفجر الجسر، والعجيب أنه نجا.. تحدثوا عن الناس الذين كانوا يشعلون شموعًا على جسر بلجراد.. الطفلة التي ماتت وهي تجلس على "النونية" أصبحت أسطورة، كانت من مدينة "باتاينيكاً".. علمت بحدوث جرائم حربٍ في إقليم "كوسوفو".. تجاهل بعض الناس في المخبأ طوابير اللاجئين الذين احتشدوا عند الحدود للهرب إلى ألبانيا ومقدونيا.. فكرت في بؤس هؤلاء اللاجئين وسط الجبال الباردة.. تخيلت الحدود المقدونية حيث تلاقت

العائلات وأخذت تسأل عمّا حدث لباقي الأفراد والجيران.. تذكرت سطرًا من قصيدة يقول: "كل كلمة وكل أغنية لا تعرف سوى نوعٍ خاصٍ من الحب".

أحيانًا كان "بويان" يستيقظ لأسبابٍ لا تتعلق بالقصف.. عندها ينظر إلي بتعبيرٍ جامدٍ وكأنه لا يعرفني ويسألني همسًا:

- متى ستعود أمي؟

- ستعود.. ستعود أمك، لا تقلق.

ثم أعانقه بينما يمسخ دموعه بيديه الصغيرتين.

هناك موقفٌ واحدٌ بخصوص ذلك الطفل محفورٌ في ذاكرتي أكثر من أحداث الحرب.. أضاءت الألعاب النارية القاتلة سماء بلجراد.. كنت أرقد بجانب "بويان" النائم، مستغرقًا في قراءة أشعار "جورج هايم" من كتاب "الشعر التعبيري الألماني".. عندما تقلبت، لم أجد "بويان" في المخبأ.. لم يكن موجودًا.. لم أجد سوى البطانية التي لفتتها حوله.. وضعت سرتي على كتفي وخرجتُ إلى الشارع، نظرت يمينًا ويسارًا.. أين هو؟ جالت فكرتان بخاطري.. الأولى، تمنيت إيجاد.. والثانية، لن أرحمه حين أجده.

فجأة شعرت بحدسٍ واثقٍ يوجهني إلى حي "كوسانتشيتشيف فيناتس".

لمحت "بويان" عبر الشارع من منزل "ميكا ألاس".. أردت الإمساك به وجره حتى المخبأ.. لكنَّ شيئًا ما منعني في وقفة الولد.. وقف الصغير ينظر للأعلى بذهول.. كان ينظر إلى سماء بلجراد التي أنارتها الصواريخ ووهج مضادات الطائرات.. ضم قبضتيه وفتح عينيه على وسعهما، وظل

ينظر إلى نذير الشؤم الذي يضيء السماء.. فتح "بويان" فمه وبدا كما لو أنه ينتظر سقوط شهابٍ ليبتلعه، تمامًا كما يبتلع الساحر شعلة النار.. بينما أتأمل الطفل ذا الأربع سنوات، تذكرت آخر سطور قصيدة "الضاحية" التي انتهيت من قراءتها للتو، وهي بقلم "جورج هايم".

"بتباهٍ زائفٍ عند الأسوار

بمعطفٍ أسود حريري.. القزم سار

وإلى القبة الخضراء وجّه الأنظار

حيث تنطلق الشهب في مسار" ..



عن شجاري مع العالم



يعيش "باين" في أمريكا، بينما أعيش أنا في بلجراد.. وهما أن أمريكا قصفت بلجراد بالقنابل، هذا يعني أن "باين" قصفني.. ما زالت خدمة البريد الإلكتروني تعمل في أثناء الحرب، لذلك ظللت أتبادل الرسائل مع "باين".. إن كلاً منا يكتب الرسائل من موضعٍ مختلفٍ تمامًا.. "باين" يقف على قمة مركز التجارة العالمي وينظر إلى نيويورك من أعلى.. كان يكتب وهو على قمة العالم.. أما أنا فأكتب وأنا في أعماق أطلانتس الغارقة، حيث تحولت طيورها إلى أسماكٍ منذ زمنٍ طويل.. أم أنني في العالم السفلي الذي وصفه "ديستوفسكي"؟ لا فارق.

بما أن الأحداث اتخذت أسوأ مسارٍ لها، لم أتفاجأ حين بدأت أنا و"باين" بالجدال معاً.. نعرف أنه في كل حربٍ جديدة يجب أن يفقد شخصٌ ما عقله.. المشكلة هي أننا لم نستطع الاتفاق على من منا فقد عقله، أنا أم هو؟ كنا نمر باضطراباتٍ عاطفية معاكسة لبعضها.. أنا أدافع عن بلجراد بينما هو

يهاجمها.. شاهد "باين يانوفيتش" على التلفزيون الأمريكي مئات الآلاف من الألبان ينزحون إلى الحدود المقدونية.. تأثرت مديرتة "بوليمنيا باباس" بشدة على الرغم من خوفها من المؤامرة العالمية للإسلام.

كانت تقول بانفعال:

- انظروا إلى عيون هؤلاء الأطفال! آه يا قلبي! يا قلبي! انظروا إلى عيون الأطفال!

كنت أنا و"باين" نلصق وجوهنا في الشاشة ونتجادل بحدّة في غرفة الدردشة بينما نقاوم شعورنا بالوحدة في نيويورك وبلجراد.. بهذه الطريقة حدث شجارٌ بيني وبين العالم، لكن هذا العالم يجسده صديقي القديم "باين".

يخبرني "العالم" في رسائله: "يجب أن يتوقف الإرهاب الذي في "كوسوفو" بأي ثمن". فأكتب له ردي:

"أتمنى أن يندم المسؤولون عن الجرائم ضد الألبان، وأن يغسلوا أيديهم الدامية بدموعهم.. كنت سأرتاح أكثر لو لم أرَ بنفسني الأكاذيب في تقارير حلف الـ"ناتو" عن هذه الحرب، وأظن أن "تاركوينيوس سوبريوس" هو من وراء هذه الأكاذيب.. إن من يكتبون تلك التقارير يتصرفون وكأن الكارثة البيئية في "بانثشيفو" غير موجودة.. الحرب يتم شنّها رسمياً على "تاركوينيوس سوبريوس" المقيم بأمان في ملجأه المحصن ضد القنابل.. إنه في أمان بينما أنا فلسْتُ كذلك".

نعاني من الانقطاع المستمر للكهرباء والماء.. أنا أغسل الأطباق على ضوء الشموع
وكأنني أقوم بطقوسٍ سحريةٍ شريرة.. كل مرة تنطلق صفارات الإنذار يرتجف "بويان"
الصغير.. أتساءل إن كان خائفًا، فيرد قائلاً: "لا، أشعر فقط بالبرد".. ماذا يمكن أن أخبرك؟
لا أعرف.. أحياناً أشعر وكأنه تم تصنيفنا في مرتبةٍ أقل من البشر، وأننا لا نستحق
المعاملة الحسنة.

سألني "العالم" - الذي يجسده صديقي "باين" - كيف أتوقع من العالم الغربي اتباع
القوانين، بينما يتعامل مع شعبٍ لا يطيع الوصايا العشر نفسها!؟

فأجبتة: "إن القضاة لا يغتصبون المغتصبين ولا يأكلون من يأكل لحم البشر.. إن
الفارق بين المجرم والقاضي هو أن القاضي يلتزم بالقانون.. وإلا أصبحنا نتعامل مع
مجرمٍ يرتدي قناع قاضٍ".

سألني "العالم" - أي "باين": "لماذا أنت متفاجئ؟ ألم تشتكي كل هذه السنين بشأن
الجرائم المتخفية خلف قناعٍ من البراءة؟ هل تخدع نفسك؟ الإنسان يحصد ما يزرع
دائمًا".

ذُكرت "باين" بالفترة التي سقط فيها في بئر اليأس ورقد في المستشفى العسكري
للأمراض العصبية.. ذكرته بأنه كان مثل "يونس" و"دانيال".. ذكرته بأنه لا أحد ينتظرنى
ليرحب بي في أي مكان، وأن قوانين الفيزا يتم تطبيقها في كل الحدود.. سألتته إن كان
يظن بأن رعاية شخصٍ ما يتعرض للقصف تعتبر فعلاً لائقاً؟

كتب "العالم" - أي "باين" - يسألني: "هل تظن أن حالك أسوأ من أهل
"ساراييفو"؟".

أجبتة: "بالطبع لا.. لكنني أظن بأن حالي أسوأ من حال الشخص الذي يعظني الآن.. أتمنى كل سوءٍ للأشخاص الذين يرتكبون جرائم ضد المدنيين.. سأستخدم حكايةً دينية لأشرح لك فكري عنهم.. تخيل كومةً من الرمال بحجم الكون.. تؤخذ منها حبة رملٍ كل عشر سنوات.. ذات يومٍ ستختفي كومة الرمال، لكن عذاب الملعونين في الجحيم لن ينتهي أبداً.

أظن أن كل سكان بلجراد من مصابي الهيموفيليا واللصوص والسيدات العجائز والمثليين والسياسيين والمتقاعدين يتم معاقبتهم على شراء السجائر في المدينة التي ولدوا فيها.. كما أظن أن فكرة التشابه بين أعضاء المجموعة وفكرة الذنب الجمعي هما أساس الفاشية.. فمن يدعم هذه الفكرة لا يمكنهم اعتبار أنفسهم ضد الفاشية".

رفعت يدي وقلت باستسلامٍ إنني فرد ولا يجب أخذي بذنب الجماعة.. قضيت وقتًا طويلاً من حياتي أمام المرأة، واقتنعت أخيراً أنني موجود.. أنا "ميلان جورجيفيتش"، مواطن في بلجراد، وحيد.. أعيش بين نار "تاركوينيوس سوبربوس" الذي يدعوني إرهابياً، ونار الصحفيين الأجانب الذين يدعونني فاشياً.. الصحفيون المذكورين هم بمثابة أعز الأصدقاء لـ"تاركوينيوس سوبربوس".. إن انحيازاتهم تتناسب مع بعضها، إنهم يجعلونني خفياً.. هل يمكن أن أقاطع الكلام وأسأل لماذا أنا خفي؟

صرخت في رسالتي:

"أيها العالم! هل جربت أن تضع نفسك مكاني ولو لمرةٍ واحدة؟".

على مدى سنوات ظلمت أنتقد "تاركوينيوس سوبربوس" علناً في الصحف، والنتيجة؟ لا شيء! أنا - الشخص الذي ينتقذه - يأتيني الدعم على شكل قنابل تسقط على رأسي وليس على رأسه هو.

صحيح أنني تعذبت على مدى العشر سنوات الأخيرة، لكن هذا لا يعني أنه لم يبق لدي ما أقوله.. لا يمكن أن أرتدي خرقاً بالية وأتوقع أن أظل على قيد الحياة.. أحتاج إلى رؤية الظل الذي خيم على منطقتي بسبب قصف مصنع الكيماويات في "بانتشيفو".. كما أحتاج إلى رؤية قائد جيش تحرير "كوسوفو" وهو لا يتوانى عن ارتكاب الجرائم، مثل "تاركوينيوس سوبربوس".. أريدهم أن يروا مئات الآلاف من اللاجئين الصرب في حالة ليست إنسانية ولا يتلقون قرشاً من السادة الداعين إلى الأخلاق.

كُتبت إلى "العالم" - "باين" - وقلت:

"لم أعتقد أن ما أكتبه مهماً.. لم أظن حتى أنك ستستمع إليّ، وأن طاووس الجنة الذهبي وطاووس الجحيم الأحمر سيتعانقان ويغنيان معاً.. أنا مؤرخ، وأعرف أنه لا شيء أشد ميلاً للتغيير أكثر من الماضي.. أعلم أن الرب يستطيع تغيير كل شيء بإشارة من يده كالسحر.. ليكن هذا دليلاً على اليأس والشك.. ليكن هذا دليلاً على الضعف البشري، وعلى الشك الذي يملأ الأرض تحت هذه السماء، وعلى الذنب الذي اقترفه العالم".

رد "العالم" - "باين" - مستخدماً كلمات "بوليمنيا باباس":

"آه يا قلبي! يا قلبي! انظروا إلى عيون هؤلاء الأطفال! وصلت الأمور إلى مرحلة إثبات الجريمة أو الدفاع عنها.. ترى في أي تصنيفٍ منهما ستوجد

كلماتك؟ في النهاية أنت تريد من العرق البشري أن يعترف بكل ندم بأنه أساء فهمك..
تريد من العلم أن يربت على رأسك ويقول لك بعطف: "أيها البائس!".

أجبتة: "أنا لست بائسًا.. لن أقول إنني بائسٌ أبدًا، ولو حتى على فراش الموت".

ما زاد حدة الجدل بيني وبين "باين" هو أننا كنا نحاول إخماد الشكوك التي
تضعف موقفنا.. لهذا اشتعل الجدل.

كتب يسألني بينما نتجادل ذات مرة: "هل تشعر بالوحدة؟".

كتبت له: "أنا لست موجودًا حتى في دائرة وحدتي".

على الرغم من أدائه الممتع لدور "العالم"، بدأت أشعر بنبرة التعب تزداد في رسائل
"باين".. تعب وجهه من حفاظه على ابتسامة الجرسون.. لقد جهَّز ونظَّف تريبيزاتٍ
كثيرة، ولم يعد عمله في مطعم "ديلفي" رومانسيًا بالنسبة له.. لم يعد يتخيل نفسه مثل
"هرمز" و"فيليكس كرول".. أصبح يحلم في الليل بأطنانٍ من الشوكات والكؤوس.. وبعد
منتصف الليل عندما يجلس في الركن الفارغ في المطعم، أصبح يشعر وكأنه في إحدى
لوحات الفنان الواقعي "إدوارد هوبر" الذي يرسم مشاهد من الحياة الواقعية.

عندما شعرت بتعب "باين" سألته إن كان لا يزال يحب نيويورك، فرد "أنا
نيويورك".

أحيت رأسي وتساءلت إن كنت أستطيع القول: "أنا بلجراد".. أدركت أنني لا
أستطيع الهرب من حقيقتي، فرفعت رأسي وقلت: "نعم، أنا بلجراد".

رثاءً على بلجراد

"لم أكتبه بنفسِي، لو فعلت لتجنبت الهرب من حياتي لأقع بعد ذلك في ملحمةٍ

مأساوية".



أنا بلجراد.

هناك حربٌ أخرى جارية.

هناك أسطورةٌ شهيرةٌ في البلقان تتحدث عن دولةٍ لا تستسلم لمدينة.. هذه

الأسطورة عني.. إن مباتيَّ تنهار بعنفٍ مجدداً.

فكروا مجدداً.. أين أطلال الميدان الروماني، والحمامات العامة، والمنازل التي يتم تدفئتها بالبخار؟ أين برج "قسطنطين العظيم" من الحقبة الرومانية؟ أين حكومة الأساقفة التي أعاد تكوينها الإمبراطور "جستينيان"؟ أين مباني الأمير "ستيفان لازاريفيتش" التي جعلتني زاهية بالألوان؟

أين أبراجي وقلاعي على مدى القرون؟ أين البرج المصمم على الطراز البيزنطي؟ أين قلعة الأمير "ستيفان لازارافيتش" التي تبدو ببواباتها الأربعة شبيهةً بيت "داود" نفسه؟ أين قلاع "ياكشيتشيس" المبنية بجانب كنيسة "روجيتسا"؟ أين بيت الأمير "أولريخ" كونت مدينة "تسيليه"؟ أين سوارى السفن التي تحمي المدينة عند حدودها المائية؟ أين أبراج "ميليبار" و"ساهين" و"كارا مصطفى" و"ساهات"؟

أين بواباتي؟ أين بوابات "ساهات" و"روسبي" و"سافا" و"سوكايبا" و"زيندان"؟ أين ذهب جميعها؟ أين اختفت؟

أين كنائسي التي هدمها الأتراك ليبنوا مساجدهم بحجارتها؟ أين الكاتدرائية العظيمة التي بناها الملك الصربي "دراجوتين"، ورسم عليها "لوقا الإنجيلي" صور "مريم العذراء"؟ أين كنيسة الفرانسييسكان في منطقة "لووار تاون" وكنيسة "القديسة مريم المجدلية" خارج أسوار المدينة؟ أين كنيسة "القديس الملاك ميخائيل" وكنيسة "فجر العذراء"؟ أين الثلاث كنائس التي استخدمت حجارتها في بناء فندق "محمد باشا سوكولوفيتش" الذي يشبه الكاتدرائية؟ أين هذا الفندق الآن؟

أين مساجدي التي هدمها الألمان والمجر والصرب ليأخذوا حجارتها لبناء الكنائس؟
أين مسجد "سليمان القانوني" العالي الذي يحتوي على مائة وخمسين درجة سلم،
والذي قام المهندس المعماري "سنان" بقطع أحجاره بسهولة وكأنها قطعة خشب.. أما
التصميم الداخلي فكان متناغمًا ومريحًا.. أين هو؟ أين جوامع "إبراهيم بك"، و"بيرم
بك"، و"الحاج محمد بك" و"ديجو باشا" و"خليل أفندي" و"تكية" إطعام الفقراء؟
أين "قصر السلطان" الذي كان موجودًا في منطقة "فودينا فاروش"؟ أين قصر كبير
المستشارين؟ أين العشرة فنادق الصغيرة والحمامات التركية العشرة والسبع والعشرون
نافورة راقصة حين كانت بلجراد تشبه بغداد؟

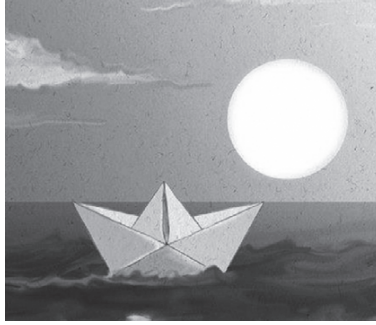
أين تلك المدينة المليئة بالأبراج كما هو مرسومٌ في النقوش التابعة لعصر الحروب
الباروكية، حيث قذائف المدافع تطير في كل اتجاه؟ أين أطلال حصن "كورنارو" منذ
نهاية القرن السابع عشر والحصن الذي بناه السويسري "نيكولاس دو كسات دي
موريز" في بداية القرن الثامن عشر؟ أين الممشى الخاص بالمباني ذات الطابق الواحد
المجاورة لنهر الـ"دانوب" من القرن الثامن عشر عندما كنتُ تابعة للنمسا؟ أين
الكنيسة والدير في ميدان "ستيودينت"؟ أين المدرسة والدير اليسوعي ومستشفى
المدينة الذين تم بناؤها لتكريم "يوحنا المعمدان"؟ أين الكاتدرائية؟ أين قصر الأمير
في حي "دورتشول"؟ أين الشوارع المسماة "إرديليسكا" و"ترجوفاتشكا" و"ريبارسكا"؟
اختلفوا، تلاشوا في الزمن مثلما تختفي دمعَةٌ وسط المطر.

أبدو مثل مدينة بيضاء قوية.. لكنني مدينةٌ مصنوعةٌ من الشمع، وشعلة الزمن الخفية تحوم حولي دائماً لتذيني وتغيّر شكلي.. على مدى قرون تحول الكاثوليك بداخلي إلى أرثوذكس، والأرثوذكس إلى كاثوليك.. بعض سكاني استخدموا أحجار كنائسي لبناء مساجد.. وآخرون استخدموا أحجار مساجدي لبناء كنائس.. قال بعض الحكماء إن هذا خطأ لأنه ليس سهلاً درجة الأعمدة المتشعبة إلى فرعين على الأرض.. وقال حكماء آخرون إن هذا جيد لأن الرب يعيش ما بين العوام، وهذا يتمثل في الديانات المختلفة.

هل رأيتم فيديوهات عن مراحل ازدهار وذبول الزهرة؟ تخيل فيديو كهذا عن مراحل تغيير بلجراد.. تخيل رؤية ألفي عامٍ من تاريخي في عشرين دقيقة.. سترى في هذا الفيديو اللهب وهو يلتهم الأسطح، والرياح تصفر وهي تخترق الأبراج وكأنها تعزف على مزمار.. سترى السيوف وهي تقتل عائلاتٍ بأكملها وتقطع نسلها، وستشاهد حروباً تمحي انجازات.. ستجد مباني تتشيد وتهدم مثل ازدهار وذبول الزهرة.. ستراني أنا بلجراد، وستشاهد مساجد وكنائس يتم بناؤها ثم تدمرها فوراً في اللقطة التالية، مثل الحلزون الذي يُخرج ويُخفي قرونه بسرعةٍ جداً.



الخاتمة



عندما حلمت مجدداً، شعرت كالغريق الذي ظل يغرق لسنواتٍ ثم صعد إلى
السطح أخيراً، واستنشق الهواء.
حلمت بالمدينة.

حلمت بكنايس وقصور.. حلمت بمسارح تحيط بالميدان الذي يلتقي فيه الشعراء،
ويلقون أشعارهم على المسامع.. حلمت برجالٍ وسيدات كبار السن يسرون في
المنتزهات متأنقين ونشيطين.. حلمت بعشاقٍ غارقين في قبلاّتٍ حارة.. حلمت بتمائيل
في الميادين وأمام واجهات البنايات.. حلمت بألف فندقٍ يقدم طعاماً من ألف بلد..
حلمت بمحلات الخمر التي تشبه المكتبات.. حلمت بمدينةٍ بها نهران يزيلان همومها
ويريحانها.

حلمت بمكتباتٍ ومقاهٍ يقضي فيها أي رجلٍ حياته إلى أن يشيخ بكل راحة.. حلمت ببلدةٍ يتمتع فيها الإنسان بمرور الزمن.. حلمت بمكانٍ يغريني بتفاصيله حتى يسحرني بكيانه.. حلمت بالمدينة.

ابتسمت إلى المدينة التي في حلمي.. إنها مدينةٌ في ظهرٍ أبدي بلا غروبٍ أو ظلام.. تمشي الملائكة في الشوارع، وتطل النساء من النوافذ لتنثر عليهم قصاصات الورق الملون المعبأة في أكياس الوسائد.. عندما فتحت عيني رأيت ملاكًا يقف فوقي.. لم أر عينين مثل عينيه من قبل.. أشار الملاك إلى الجرف الذي يعلو النهر وقال:

- انظر!

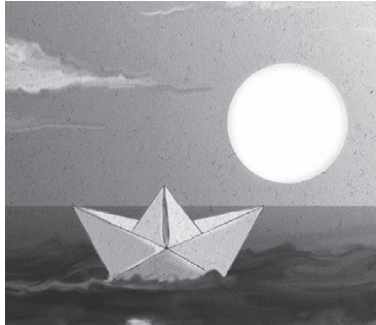
نظرت إلى ما يشير إليه الملاك، ورأيت كل شيء هناك!

رأيت مدينةً على الجرف.. جدرانها أنصع بياضًا من العظام، وتلمع في ضوء الشمس.. رأيت المباني مكدسة في فوضى ساحرة.. الملائكة تلوح لي من فوق الأسوار.. يقف معهم "سيمها كون"، و"يهو دا ليرما"، والأمير "ستيفان لازاريفيتش"، والقديس "سافا"، والشيخ "نور الله منيري البلجرادي"، وملاكٌ ذو نظارات، والأديب الفيلسوف "دوسيتي أوبرادوفيتش فلاديسلاف"، والشاعر "بيتكوفيتش ديس".. كان أبطال هذا الكتاب ينحنون، وكأنهم في ختام مسرحية.. لمحت بينهم وجهًا يحمل ابتسامة "باين" الخجولة.. تعبت عيناى من محاولة التعرف إليهم.. عشرات الأشخاص يحملون وجوهًا لا أستطيع رؤيتها بوضوح، لكنهم يلوحون لي، بينما يقفون عند أسوار بلجراد التي رأيتها في حلمي.. شعرت وكأنهم "هيروليون" و"جيبيد" و"آفار" و"بيزنطيون" و"بجناك"

و"هون" ومجر وبلغاريون ورومان و"كلت" وألمان و"سنسكريتيون" و"أرمان" وأتراك
وصرب.. كان وعيي مشوشًا ولم أكن واثقًا إن كان الناس الذين يلوحون لي أمواتًا أم لم
يولدوا بعد.

نظرت برعبٍ إلى حلمي الذي تحقق.. إن تحققه هو ما صدمني.. الآن بما أن حلمي
تحقق، أستطيع التلاشي مثل فقائيع الصابون.. شعرت أنني أقل من أن أستطيع تحمل
مسؤولية حلمي.. لا أريد لعب دور أبدي ومقدس في تأسيس مدينة.. أريد الصراخ
والصياح.. أريد دفن رأسي في الأرض.. أريد السخرية مما أردته بشدة.

عضضت شفتيَّ ثم قلت لنفسي: "كن شجاعًا! ألم أفق أمام المرأة مليون مرةٍ لأشجع
نفسي وأستعد لأجعل من مدينة أحلامي وطنًا لي؟ وقفت بترددٍ وخطوت نحو بلجراد
مثل رجلٍ أعمى.. أشعر بالتوتر، أصابعي ترتجف من الانفعال.. ترى، هل ستصبح
مدينة أحلامي وطنًا لي في الألفية الجديدة أخيرًا؟!"



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. اسمي نور إلسا أوسوريو الأرجنتين
2. كلي لك كلاوديا بينيرو الأرجنتين
3. أرامل الخميس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
4. نقطة الصفر ناريك ماليان أرمينيا
5. مشروع روزي جرايم سيمسيون أستراليا
6. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية إنجو شولتزة ألمانيا
7. لأننا في مكان آخر رشا الخياط ألمانيا
8. الثلاثة سارة لوتز إنجلترا
9. الموت والبطريق أندريه كيركوف أوكرانيا
10. تاتي كريستين دوير هيكي أيرلندا
11. جريمة الساحر أرني ثورارينسون أيسلندا
12. شركة الحب المحدودة أندريه سنار ماجنسون أيسلندا
13. الحب لم يعد مناسباً ميلا فينتوريني إيطاليا
14. حذار من جوعي لوتشانا كاستيلينا إيطاليا
15. سارق الجثث باتريسيا ميلو البرازيل
16. السيمفونية البيضاء أدريانا ليسبوا البرازيل
17. مقبرة البيانو جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
18. نيزك في جالفائش جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
19. أن تأتي متأخراً ديميترى فيرهولست بلجيكا
20. صانع الملائكة شتيفان بريتش بلجيكا
21. مخاوفي السبعة سلافيدين أفيدتش البوسنة
22. جامع الكتب جوستابو فابرون باترياو بيرو
23. أبسنت أيفر تونش تركيا
24. أحلام محطمة بيولانت سينوكاك تركيا
25. ارحل قبل أن أنهار تونا كيرميتشي تركيا
26. امرأة صديقي تونا كيرميتشي تركيا
27. توباز هاكان جنيد تركيا
28. ثلاثة على الطريق تونا كيرميتشي تركيا
29. جريمة في البوسفور أسمهان أيكول تركيا
30. جريمة في إسطنبول أسمهان أيكول تركيا

تركيا	برهان سوغميز	31. خطايا الأبرياء
تركيا	ماين كيركانات	32. دبستينا
تركيا	هاندي ألتايلى	33. الشيطان امرأة
تركيا	تونا كيرميتشى	34. الصلوات تبقى واحدة
تركيا	هاندي ألتايلى	35. لون الغواية
تركيا	سولماز كاموران	36. مينتا
تركيا	مجموعة قصصية	37. نساء إسطنبول
التشيك	ميلوس أوربان	38. جرائم براج
التشيك	ياخيم توبول	39. معسكرات الشيطان
التشيك	بيترا هولوفا	40. حدث في كراكوف
التشيك	باتريك أورشانديك	41. حُفِظَت القضية
التشيك	سوزانا بربتسوا	42. ديتوكس
التشيك	إميل هاكل	43. سراق طائر البطريق
التشيك	فرانز كافكا	44. كافكا
التشيك	فاتسلاف هافل	45. المواطن فانيك
الجبل الأسود	أوجنين سباهيتش	46. المبعدون
جواتيمالا	دافيد أوجنز	47. العقل المدبر
سلوفاكيا	أورشولا كوفالك	48. امرأة للبيع
سلوفاكيا	مجموعة قصصية	49. خلف طاحونة الجبل
سويسرا	ميرال قريشي	50. الحياة هنا
سويسرا	يونا لوشر	51. ربيع البربر
سويسرا	يونا لوشر	52. كرافت
الصين	شيو تسي تشين	53. بكين... بكين
الصين	يي ماي	54. بنات الصين
الصين	تشيه زيه جيان	55. الربع الأخير من القمر
الصين	جوو دا شين	56. رحلة الانتقام
الصين	يي ماي	57. سبع ليالٍ في حدائق الورد
الصرب	فلاديمير بيستالو	58. الألفية في بلجراد
فرنسا	إريك نويوف	59. المغفلون
فنلندا	آكي أوليكائين	60. المجاعة البيضاء
فنلندا	صوفي أوكسانين	61. التطهير
كولومبيا	إيكتور آباد	62. النسيان
مقدونيا	إيرميس لافازونافسكي	63. صانع الزجاج

مقدونيا	بلايز ماينفسكي	64. القنّاص
مقدونيا	توميسلاف عثمانلي	65. الواحد والعشرون
النرويج	إنجفار أمبيورنسون	66. إينج
النرويج	روي ياكوبسن	67. صيف بارد جداً
الهند	روبا باجوا	68. دگان الساري
هولندا	تومي فيرينجا	69. جوي سبيدبوت
هولندا	هيرمان كوخ	70. العشاء
هولندا	هيرمان كوخ	71. المنزل الصيفي
هولندا	تومي فيرينجا	72. تلك الأسماء
كرواتيا	ماريا تاسلر	73. عقيدة الأغنياء

صدر من كتب عامّة:

ألمانيا	جيرالد هوتز	74. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟
ألمانيا	هوبرتس هوفمان	75. قانون التسامح
ألمانيا	فولفجانج باور	76. هاربون من الموت
ألمانيا	فولفجانج باور	77. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام
ألمانيا	كريستوف بيتز	78. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات
أمريكا	روبرت ماكنمارا	79. الهاشميون وحلم العرب
أيسلندا	جون جنار	80. الهندي الأحمر الأيسلندي
أيسلندا	جون جنار	81. القرصان الأيسلندي
الصين	مايكل ديلون	82. مختصر تاريخ الصين
إسبانيا	خورخي كاريون	83. زيارة لمتنّبات العام: تاريخ مكتبات بيع الكتب
إيطاليا	جوفانا لوكاتيلي	84. يوميات صحفية إيطالية
البرتغال	إيسا دي كيروش	85. خيالات الشرق
بلجيكا	دافيد فان ريبروك	86. ضد الانتخبات: دفاعاً عن الديمقراطية
التشيك	باتريك أورشادنيك	87. أوروبيانا
التشيك	فاتسلاف هافل	88. قوة المستضعفين
فرنسا	جي. إم. لو كلوزيو	89. النشوة المادية
فرنسا	أنطوان لاريس	90. لن أمحكّم كراهيتي

كولومبيا	أوسكار بانتوخا	91. جابو
النرويج	ثور جوتاس	92. الجري
هولندا	دوي درايسما	93. عقول مريضة
هولندا	يوريس لوندك	94. اللعب مع الكبار

يصدر قريباً: من سلسلة كتب مختلفة:

الأرجنتين	كلوديا بينيرو	95. بيتي بو
أسبانيا	فيرجينا فالاجيو	96. في حب بابلو وكراهية إسكوبار
إنجلترا	سارة لوتز	97. اليوم الرابع
أمريكا	فيكتوريا فان تيم	98. الحب في الأفلام
البرازيل	تاتيانا سالم ليفي	99. بيت في سامراء
البرازيل	رافاييل مونتييز	100. أيام رائعة
التشيك	مارك سينديلكا	101. خريطة أنا
تركيا	صلاح الدين ديميرتاس	102. سهر
روسيا	أولجا سلافينكوفا	103. بال خال
زيمبابوي	بيروني رحيم	104. شمس سبتمبر
سلوفينيا	جوران فوجنوفيتش	105. يوغوسلافيا وطني
فرنسا	صوفي هيناف	106. دجاج مشوي
كولومبيا	سانتيجو جامبوا	107. صلوات ليلية
المجر	أندريس فورجاش	108. لم يبق أحد
مقدونيا	ألكسندر بروبوكيف	109. قصص خيالية
المكسيك	خيسوس ريكاردو فيليكس	110. مغامرات دكتور مينجوس
النمسا	ميلينا ميشيكو فلاشر	111. أسمىته كرافتة
النمسا	ألموت تينا شميت	112. فرق التوقيت
النمسا	فريدريكا جيزفاينر	113. الحرية الحزينة

#كتب_مختلفة # صربيا



"اقترح "باين" أن أقيم حوارًا مع بلجراد".

عندما تكون مؤرخًا وروائيًا، ستجد صعوبة في كتابة أي رواية بدون الخوض في التاريخ. أمّا عندما تكون مؤرخًا وروائيًا وتعيش في دولة مر بها الكثير من الأحداث التاريخية من حروب ومظاهرات وجيوش محتلة ومقاومة شعبية، فلا مفر من ذكر كل هذا في روايتك .

بلطنا راو ومؤرخٍ ومحبٌ لأصدقائه وبلجراد عاصمة الصرب. يحكي لنا عن حياته وعن أصدقائه، ويأخذ القارئ من يديه في جولة تاريخية عبر مدينة بلجراد. فيحدثنا عن جنازة "تيتو" وعن نهر الدانوب وعن أشهر المغنيين وفرقة الاغتيالات التي ظهرت فجأة واختفت فجأة. وينسج بداخل كل تلك اللحظة التاريخية الواقعية خيوطًا خيالية. تلك الخيوط الخيالية هي قصته وقصص أصدقائه. صديقه "باين" الذي اقترح عليه أن يقيم حوارًا مع "بلجراد" يمثل جيل ما بعد الحرب. الجيل الممزق بين الهروب والسفر إلى أمريكا حيث المال الوفير، أو البقاء لتعمير وطنهم الذي ظل يعاني من آثار الحرب لفترة طويلة .

فلاديمير بيستالو



كاتب صربي، وُلِدَ عام 1960. فاز عام 2008 بجائزة NIN Award وهي جائزة يتم منحها لأفضل رواية في العام في صربيا. تخرج "بيستالو" في كلية الحقوق بجامعة بلجراد وحصل على الدكتوراة بجامعة "نيو هامبشير" بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو يقوم الآن بتدريس التاريخ بكلية "بيكر" بـ"ماساتشوستس" حصلت الترجمة الفرنسية لروايته هذه "الألفية في بلجراد" على جائزة "فيمينا" Femina لأفضل رواية تمت ترجمتها إلى الفرنسية .

تصميم الغلاف: عصام أمين

تيتو
بلجراد
حرب
اغتيال
خيانة الصرب
شذوئية



www.alarabpublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-432-1



9 789773 194321 >



60 شارع النصر العنبي 11451 القاهرة
ت: 27947566 - 27921943 - 27954529 فاكس:
www.alarabpublishing.com.eg